



مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة كتب المستقبل العربي (٥٥)

اللسان العربي وإشكالية التلقي

عبد الرحمن عزي
محسن بو عزيزي
محمود الخواصي

حافظ إسماعيلي علوي
رياض زكي قاسم
عبد الحميد عبد الواحد



مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة كتب المستقبل العربي (٥٥)

اللسان العربي وإشكالية التلقي

عبد الرحمن عزي
محسن بو عزي
محمود الذواوي

حافظ إسماعيلي علوي
رياض زكي قاسم
عبد الحميد عبد الواحد

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية
اللسان العربي وإشكالية التلقي / حافيز إسماعيلي علوي... [وآخ.]

١٥٨ ص. - (سلسلة كتب المستقبل العربي؛ ٥٥)

ISBN 978-9953-82-150-4

١. اللغة العربية. ٢. الألسنية. ٣. الإعلام العربي. أ. علوي، حافيز
إسماعيلي. ب. السلسلة.

492.7

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن اتجاهات بيتناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ - ١١٣
الحمراء - بيروت ٢٤٠٧ ٢٠٣٤ - لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ - ٧٥٠٠٨٥ - ٧٥٠٠٨٦ - ٧٥٠٠٨٧ (+٩٦١١)
برقياً: «مرعبي» - بيروت
فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (+٩٦١١)

e-mail: info@caus.org.lb

Web Site: <http://www.caus.org.lb>

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز
الطبعة الأولى

بيروت، آب/ أغسطس ٢٠٠٧

المحتويات

مقدمة	٩
-------------	---

القسم الأول جسور التفاهم والتواصل

الفصل الأول : فقه اللغة وعنف اللسان والإعلام	
في المنطقة العربية	١٣
أولاً : عنف اللسان في اللغة والتاريخ	١٦
ثانياً : عنف اللسان وتراجع اللغة في الخطابات المعاصرة	٢٢
ثالثاً : اللسان المستعار في بعض اللهجات العربية مثلاً	٢٤
رابعاً : عنف الإعلام والمسؤولية التربوية للمجال العام	٢٦
خامساً : «عنف اللغة» عند بعض المحدثين ومآخذها	٣٠
سادساً : من أجل ربط اللسان باللغة وتسخير الواقع للقيمة	٣٦

الفصل الثاني : في مخاطر فقدان العلاقة العضوية بين المجتمعات العربية ولغتها	٤١
أولاً : اللغة ظاهرة اجتماعية	٤١
ثانياً : دور المجتمع في تقدم اللغة وتأخرها	٤٢

٤٣	ثالثاً : تجزية اللغة العربية في ميزان علم الاجتماع
٤٤	رابعاً : الوجه الآخر للأمن الثقافي العربي
٤٥	خامساً : الصمت عن الأمن اللغوي
٤٦	سادساً : مفهوم الأمية الجديدة
٤٦	سابعاً : ملامح الأمية الجديدة عند أساتذة الجامعات العربية
٤٨	ثامناً : ملامح الأمية الجديدة عند الطلبة العرب
٥٠	تاسعاً : تقسيم الأدوار اللغوية بين الفصحى والعامية
٥٢	عاشراً : مكانة اللغة العربية الفصحى في الوطن العربي
٥٥	حادي عشر : غربة الفصحى لا تكاد تطرح
٥٦	ثاني عشر : الانعكاسات الخطيرة لتدهور الفصحى
٥٧	ثالث عشر : جذور تدهور إنقار الفصحى
٥٩	رابع عشر : كيف يمكن أن تتحسن الفصحى
٦٠	خامس عشر : وضعية الفصحى بين التشاؤم والتفاؤل

الفصل الثالث : اللسان العربي :

٦٣	الحاضر والآفاق عبد الحميد عبد الواحد
٦٣	أولاً : حقيقة الوضع اللساني
٦٥	ثانياً : المعرفة بحقيقة اللسان العربي
٦٧	ثالثاً : الثنائية اللسانية (La Diglossie)
٦٩	رابعاً : الازدواجية اللسانية (Le Bilinguisme)
٧٠	خامساً : اللسان العربي والتعريب
٧٢	سادساً : وضع المصطلح العربي
٧٣	سابعاً : وضع المعجم العربي
٧٥	ثامناً : اللسان العربي والإعلامية

القسم الثاني اللغة وثنائية الهيمنة والتطور

الفصل الرابع : نحن واللسانيات :	
٨٣	بحث في إشكالات التلقي حافيط إسماعيلي علوي
٨٥	أولاً : اللسانيات العربية : من الأزمة إلى إشكالات التلقي
٩٠	ثانياً : اللسانيات في الثقافة العربية وإشكالات التلقي
١١٤	ثالثاً : تلقي اللسانيات في الثقافة العربية : محاولة للتقويم
الفصل الخامس : اللغة والإعلام :	
١٢٣	بحث في العلاقات التبادلية رياض زكي قاسم
١٢٣	أولاً : في المصطلح والإشكالية
	ثانياً : اللغة والإعلام في ضوء واقع مكونات العمليات الاتصالية
١٣٢	ثالثاً : اللغة والنص الإعلامي
١٤٠	رابعاً : اللغة والإعلام : نحو تنمية الوظائف المشتركة
الفصل السادس : اللغة وروابط الهيمنة عند ابن خلدون محسن بوعزيزي	
١٤٥	أولاً : الفرضية
١٤٦	ثانياً : اللغة والهيمنة
١٤٩	ثالثاً : اللغة ظاهرة اجتماعية موضوعية
١٥١	رابعاً : سوسيولوجيا الملكة الخلدونية
١٥٢	خامساً : أطلس اللغة عند ابن خلدون : المستوى المتكروني
١٥٥	سادساً : سياقية اللغة : المستوى الدياكروني
١٥٦	سابعاً : سوسيولوجيا ابن خلدون

مقدمة

مع أولى بوادر الوعي القومي لدى العرب، كما هي كل شعوب العالم، تتداعى الرغبة في البحث عن المقومات والثوابت المعبرة عن الكينونة والهوية، ويتوجه الاهتمام نحو اللغة، ويتوسع ويتجذر الاهتمام بها باعتبارها المستودع الأمين الذي تصطف فيه ذاكرة التطور، ومقومات الانتماء إلى المنابع والأصول. وهكذا لا تغدو اللغة تلك الرموز فحسب، بل عنوان الوجود والهوية. وإننا في الواقع لا نستطيع أن نعرض تاريخ أمة أو شعب من دون أن نتحدث عن العامل الذي يضمن استمرارية وجودها وتطورها، وصياغة هويتها المتميزة عبر الزمن، ودون أن نضع اللغة قاسماً مشتركاً في كل ثوابت وجودها.

وهكذا كانت اللغة العربية حاضنة عوامل الارتباط العضوي بين التراث والحاضر والماضي، ومصدر تحديد الملامح الأساسية المعبرة عن طبيعة الأمة، وهو ما دفع جيل من علماء اللسانيات والمهتمين بأصول اللغات للبحث عن الأصول والاشتقاقات، والتوسع في تحديد العلاقات بين اللغة وقيمتها، وبذلك تبنى اللغة بذاتها ككيان حي، ينمو ويتفاعل ويدع وهكذا.

ومن هنا فإن اللغة العربية، كغيرها من لغات العالم أثرت وتأثرت بمحيطها، وعبرت عن مراحل تكوين مجتمعاتها، في الوقت الذي تطورت لتواكب معطيات تطور العلاقات الإنسانية. وبذلك، وكما يقول ج. د. ميكائيليس (J. D. Michaelis) (١٧٩١ - ١٧١٧) في مقالته التي صدرت عام ١٧٥٩ بعنوان: «تأثير الآراء في اللغة واللغة في الآراء»: «اللغة هي... نوع من المدونات التي تحفظ الاكتشافات البشرية بمنأى عن طوارئ الدهر المقجعة، مدونات لا يقوى عليها اللهب ولا تزول إلا بزوال الأمة».

وفي ضوء ذلك تشكل العلاقة العضوية بين المجتمع واللغة، إنها في الواقع علاقة اجتماعية تبادلية وكائن ينمو ويتأثر بمحيطه. وبالقدر الذي تتم فيه رعاية اللغة

والمحافظة على أصولها وثوابتها والدفاع عن قواعدها المعنوية والمادية، فإنها تحافظ على مكانتها كعنوان للتميز وكدلالة عن طبيعة الهوية والدور الحضاري.

وبشيء من التوسع في هذه العلاقة يمكن أن نستدل على حقيقة أن اللغة هي المُعبر عن كينونة الأمة وتميّز دورها الحضاري، ولم يبالغ العلامة ابن خلدون حين أشار إلى أن استعمال اللسان العربي صار من شعائر الإسلام وطاعة العرب. ولذا فإن اللغة في المدرسة الخلدونية هي الشرعية في الهوية والوجود، وإن التعامل مع موضوع اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية كلية ومرتبطة بثوابت الاستعمال، وبالعلاقات القوة، وروابط الثبات للحفاظ على الهوية، هو تعامل مع مقومات الحضارة وعناصرها الأساسية وسعاتها غير القابلة للتغيير.

ومركز دراسات الوحدة العربية إذ يقدم هذه المجموعة من البحوث العلمية الرصينة في مجال اللغة وضمن إطار اللسان العربي وإشكاليات التلقي، فإنه ينطلق من إيمانه المبدئي الراسخ بأهمية ذلك في إطار النضال القومي التحرري لتأكيد الهوية وتمييز دورها في ترسيخ وتطوير العلاقة العضوية داخل المجتمع العربي ومع المحيط الإنساني، وبأهمية توسيع دائرة البحث والنشاط الفكري لتعزيز مكانة اللغة وتعميق دورها الإنساني.

وغير ذلك، إن اللغة هي الشاهد الأمين على تاريخ الأمة ومسار تطورها وعنوان وحدتها ورمز هويتها.

مركز دراسات الوحدة العربية

القسم الأول

جسور التفاهم والتواصل

الفصل الأول

فقه اللغة وعنف اللسان والإعلام في المنطقة العربية

عبد الرحمن هزي^(*)

مقدمة

إن الأصل في اللغة احتواء القيمة ونقلها كما دلت على ذلك الكتب السماوية، فاللغة وهاء يحوي أسماً ما يمكن أن ينطبق به المراد من معانٍ، وهي البداية، «كأن الكلمة». أما ما أدخله الأفراد المتحدثون من اللفظ أو تعابير مستحدثة فذلك يعتبر لغة أخرى تم إدخالها إيجاباً أو سلباً على اللغة الأصلية تبعاً لحالات فردية أو اجتماعية أو تاريخية معينة. ويعني ذلك أن «العنف اللساني» ظاهرة دحيلة نسبياً^(١) على اللغة وإن كانت أصبحت طرفاً في اللغة بفعل التداخل بين اللغة وفعل الكلام خاصة مع تراجع مكانة اللغة تاريخياً وانتشار الحديث كظاهرة صوتية سادت مع الثقافة الشفوية وتوسع وسائل الإعلام الحديثة.

إن اللغة قائمة على فقه الكلمة المعبرة عن القيمة، أي أن الارتباط متلازم بين اللغة وقيمها، فاللغة تنشئ متعلميها على إتقان استخدام الكلمات، والألفاظ هي سباقاتها التعبيرية، والقيمة وفق ضوابط وقواعد محددة. ففي اللغة أصول، وفي النحو فراكيب، وفي الأصوات أنغام، وهي المعاني دلالات، إلخ. وقد ورد في الحديث السوي مثلاً: «أن الله تعالى إذا أراد بالعدو خيراً فقهه في الدين»، نظراً

(*) أستاذ في جامعة الشارقة.

(١) المقصد من ذلك كثرة استخدام الألفاظ «التيؤدة» في اللغة أو استحداث أخرى عن طريق الكلام أو لباظه أو الخفية.

لأن هذا التنمض يصبون العرد من الانحرافات اللسانية وغيرها التي يتعرض لها في مسار حياته المعنوية والمادية. وتتفرد اللغة العربية تاريخياً بقدرتها على امتلاك القيمة وتثليها لها بفعل أنها لغة القرآن الكريم، أي أنها لغة مقدسة تضيف هيبتها عن متحدثيها متى كانت قواعدها ومعانيها لم تتعرض إلى «الإفساد اللعوي»، وما يترتب عليه من عنف لساني أيضاً.

إن المقصود «بالعنف اللساني» في طرحنا الإخلال «بالبنية القيمية» للغة إلى حساب البنيات الأخرى التي تحدث عنها علماء الألسنية كقواعد النحو والاشتقاق وصوابط مخارج الحروف والصوت، الخ، فاللغة تحيا وتؤثر إيجاباً في المستمع إذا كانت «مشحونة» بالقيم وتنحصر أو تصبح غير فاعلة أو أداة محايدة إذا خلت وتم إغراؤها حزناً من هذا المضمون على النحو الذي يلاحظ حديثاً في لغة المحادثة ليومية والإعلام.

إن مرد ما يمكن تسميته «عنفاً» في الاتصال والإعلام استخدام اللغة أو فعل الكلام أو تقنياً «فعل التلفظ»، وليس اللغة ذاتها التي تبقى معصومة نسبياً من هذا الإفساد بخاصة ما تعلق باللغة العربية مثلاً، فاللغة في نظرنا رسالة ووسيلة في نقل القيمة وليست فقط أداة للاتصال تدرس لذاتها وهي حد ذاتها. وترتبط القيمة بدورها بقواعد النحو، إذ إن التعبير في المبني يؤدي إلى التغيير في المعنى، فالقيمة تأخذ الأولوية على بنات اللغة الأخرى كالنحو والاشتقاق، الخ. إن قواعد النحو بنية فوقية إن صح التعبير وتمثل البنية القيمية التي تنأس عليها اللغة. وإذا ضمنت أو انتفت هذه العلاقة التلازمية انحصر دور اللغة وأصبحت أصواتاً تعني كل شيء، ولا تعني أي شيء في الوقت ذاته. فالعنفاً الذي يستأثر فعل الكلام لا يعود إلى «الكسار» قواعد النحو محسب، ولكن وأهم من ذلك «اهترار» البنية القيمية التي هي أساس اللغة أو ما يمكن اعتباره سر وجودها (Raison d'être).

وقد فتح عالم الألسنية «سوسير» (Ferdinand de Saussure) نافذة جديدة في دراسة اللغة عندما ميز بين اللغة (La Langue) والكلام (La Parole). فاللغة ترتبط بما هو ثابت، أما الكلام فيمثل استخدام الفرد للغة وذلك يختلف من متكلم إلى آخر. وهذا التمييز يسمح لنا بدراسة اللغة ككلية أحياناً وككلام أحياناً أخرى. ولعل سوسير لم يهتم كثيراً بفعل الكلام على اعتبار أنه ظاهرة شحصية متغيرة، على الرغم من أن هذا الفعل «حاسم» في دراسة اللغة على النحو الذي سنتناوله في هذا الطرح. وبما لا شك فيه، أن اللغة والكلام وجهان لعملة واحدة، فاللغة يوم معايير فعل اللفظ والفرد لا يقدر على الكلام من دون الاستناد إلى قواعد اللغة. وقد ورد هذا الجمع في القرآن في تعبير اللسان. ﴿ومن آياته خلق السموات

والأرض واختلاف ألسنتكم واللغاتكم»^(٢)، فاللسان أشمل من اللغة إذ يتضمن القواعد والنطق معاً. واللسان يوحى بالكلام، غير أن هذا الأخير لا يتم من دون قواعد ضابطة وإلا لما حصل الفهم. وينسجم هذا المعنى مع تقديمات علماء الألسية بأن الأصل في اللغة الكلام، أما كتابة اللغة فظاهرة حديثة نسباً. ويمكن لأي كلام أن يصح مكتوباً متى اتفقت المجموعة المتحدثة على الرموز التي يمكن استخدامها في فعل الأصوات إلى لغة النص، بينما يصعب إيجاد لغة جديدة بأصوات متميزة عن اللغات الأخرى. ولذا، فإن اللسان ينقسم إلى اللغة (أي القواعد)، والكلام (أي استخدام اللغة في الاتصال). ولعل اللغة الفرنسية تتشابه مع اللغة العربية في هذا التمييز، فهناك ما يمكن تسميته باللسان (Language) الذي ينقسم إلى اللغة (Langue)، والكلام (Parole). أما اللغة الإنكليزية فلا تتضمن الكلمة الجامعة وأما اللغة (Language) والكلام (Speech) فحسب.

إن دراسة العنف اللساني في طرحنا تخص فعل الكلام وليس اللغة على الرغم من أن اللغة تتأثر بدورها باللمعظ المنطوق، فاللغة تمثل المرجعية لكل من البنية القيمية والسموية، أما ما يشوبها من «عنف» فيعود إلى استدخلات المتكلمين والذي (أي العنف) عادة ما يتم حصره بالمودة إلى اللغة الأصلية وبالأخص عندما يتعلق الأمر باللغة العربية.

وقد تعرض العديد من اللغات مع الزمن إلى التعبير، بل وإلى «التدمير» تبعاً لاستخدام الفرد للغة والتطور الاجتماعي والعلاقة مع اللغات الأخرى في شكل ثقاف أحياناً وهيمنة أحياناً أخرى، فالاستخدام المردي قد يدخل «إفساداً لغوياً» إذا كان المتكلم لا يمتلك «الأهلية اللغوية». ويقصد بذلك قدرة المتحدث على الكلام وفق لبية السموية وكذلك البنية القيمية التي تنتمي إليها اللغة، فالكثير من المصاح الشريفية تركز كثيراً على قواعد النحو من دون الربط مع القيمة فيصبح المتحدث «معرولاً» عن الجو القيمي الذي يميز اللغة، بل إن التوجه الحالي في بعض مصاح التعليم هو الاحتفاظ بقواعد النحو واستبدال البنية القيمية بنظام آخر من التفكير. وفي الخالص، فإن المرء يحدث إخلالاً في كلامه فيؤثر سلباً في اللغة والسموية. أما العلاقة مع اللغات الأخرى فتحكمها عوامل عديدة، وأهمها موقع اللغة الأصلية من اللغة المرافدة، كأن يكون موقع ضعف أو قوة أو تبادل متوازن، فاللغة يمكن أن تسمير الكلمات المستحدثة وبخاصة التقنية من دون أن يمس ذلك ببنيتها السموية والقيمية، أما أن يمس ذلك كيان اللغة فيعتبر إخلالاً أو إفساداً من نوع آخر.

(٢) القرآن الكريم، سورة الروم، الآية ٢٢

أولاً: عتف اللسان في اللغة والتاريخ

إن العتف اللساني منبؤ في اللغة نفسها وهذا ما نجده في مختلف المعاجم العربية وغيرها. لقد ورد في القاموس المحيط أن العتف «ضد الرفق». والعفيف من لا رفق له بركوب الخيل والشديد من القول والسير». واعتنف الأمر «أحده ضعف، واستدأه، واعتنقه وجهه، أو أثناء ولم يكن به علم». واعتنف المجلس «تحول عنه» وعينه «لامه بعنف وشدة»^(٣). وفي الأثر، فإن دلالة اللة ارتبطت بالاحتمار والدقة، «مخير الكلام ما قل ودل».

إن العتف اللساني ليس قيمة بل صفة «منبوذة». وهي ليست صفة قائمة في حد ذاتها ولكنها رد فعل غير متوازن على قول أو فعل أو وضع أو ظاهرة تجعل المتكلم يعتقد السيطرة على اللغة، فيلجأ إلى جملة من الانحرافات التي تكون من صنع الكلام حتى وإن كان المتحدث قد «ورث» ذلك من المتحدثين الآخرين. وينجلى العتف اللساني إما في الكلام المباشر أو في الانصال غير اللفظي، فالحديث المباشر يخص إما الإتيان بالكلمات «المنبوذة» في اللغة إلى الصدارة من فعل الكلام، أو استحداث أخرى في الكلام الدارج أو المحكيات. أما الانصال غير اللفظي فيتضمن ملامح الوجه وحركة العين واليد مثلًا، فاللامح تشمل الوجه العبوس أو القنوط أو «المكهرب» أو «التكبر» أو «التجبر» وغيره، وتشمل العين الحديق والغيرة والحسد والنظر إلى الصورة المنمعة القيمة والأمارة بالسوء... الخ.

وقد حث الوحي القرآني في غير آية على الحيطة والحذر في الكلام، فأحسن القول ما يوثق الصلة مع الخالق تعالى: «ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين»^(٤). والكلمة تكون دالة إذا حملت مخزوناً نيمياً ثابتاً من جهة ودعت الإنسان إلى ما هو أفضل من جهة أخرى: «ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء»^(٥). أما الكلمة التي تعقد أو تناقص القيمة فليس لها قرار: «ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض»^(٦). والكلمة القيمة تنصب بالصواب والصدق والعدل والحق «ولا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً»، و«ومث كلمة ربك صدقاً وعدلاً».

(٣) الطاهر أحمد الراوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة الصباح الخير وأساس البلاغة (د. م. عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٧٣)، ص ٣٢٦.
(٤) القرآن الكريم، سورة فصلت، الآية ٢٣.
(٥) المصبر نفسه، سورة إبراهيم، الآية ٢٤.
(٦) المصبر نفسه، سورة إبراهيم، الآية ٢٦.

و«كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً»، «ومع الله الباطل ويحق الحق بكلماته»، و«لا تبديل لكلمات الله»^(٧). إن قيمة الكلمة الدالة تكمن في أنها ترتفع إلى المنزلة العليا وترفع صاحبها: «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه»^(٨).

ووضع الوحي القرآني معايير خاصة في استخدام الأفضل في مخاطبة الآخرين «ادفع بالتي هي أحسن»^(٩). كما دعا إلى اتباع النهج نفسه في مخاطبة أهل الكتاب «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن»^(١٠). والجلل بغير علم أو حق قد يحدث إفساداً لغوياً في الحديث ومن ثم كان الاعتماد عن هذا النوع من «الشجار» مطلوباً ومرغوباً: «ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير»، و«إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه»^(١١). إن الإفساد اللغوي له تبعات وهو إفساد في مجالات أخرى: «وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض»، «الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد»^(١٢). كما إن انحراف الكلام عن بنيته القيمية يؤدي إلى إضعاف الصلة مع الآخر وإلى الوقوع في النزاع والفتنة. «فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة»^(١٣).

ومن فقه اللغة في المناجاة باللسان ما روي عن النبي (ﷺ): «إن الرجل ليتكلم بالكلمة فيزل بها في النار بعد ما بين المشرق والمغرب، فإذا أراد الله تبارك وتعالى بعبد خيراً أعانته على حفظ لسانه وشعله محبوب نفسه عن عيوب غيره»^(١٤). وروي عنه أيضاً: «من شهد شهادة زور على ذمي أو مسلم أو من كان من الناس، علق بلسانه في الدرك الأسفل من جهنم»^(١٥). ومجد هذا المعنى الذي ينبذ العنف اللساني بصفة مباشرة أو ضمنية في العديد من الأحاديث النبوية. لقد ورد عن الرسول (ﷺ)

(٧) المصدر منه: سورة الباء، الآية ٣٨، سورة الأنعام، الآية ١١٥، سورة الكهف، الآية ١٥.

سورة الشورى، الآية ٢٤، وسورة يونس، الآية ٦٤ على التوالي.

(٨) المصدر منه: سورة طاهر، الآية ١٠.

(٩) المصدر منه: سورة فصلت، الآية ٣٤.

(١٠) المصدر منه: سورة العنكبوت، الآية ٤٦.

(١١) المصدر منه: سورة الحج، الآية ٨، وسورة غافر، الآية ٥٦ على التوالي.

(١٢) المصدر منه: سورة القصص، الآية ٧٧، وسورة المجرم، الآيات ١١ - ١٢ على التوالي.

(١٣) المصدر منه: سورة النور، الآية ٦٣.

(١٤) أبو العرج عبد الرحمن بن علي بن الحوري، «مستان الواعظين ورياض السامعين» (بيروت: المكتبة المصرية، ٢٠٠٣)، ص ٦٥.

(١٥) المصدر منه، ص ٦٥ - ٦٦.

أما قال: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً. وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وما زال العبد يتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(١٦). وجاء رجل إلى الرسول (ﷺ) قال: علمني شيئاً، ولا مكث على لعلي أعيبه. قال: لا تغضب، فردد ذلك مراراً، كل ذلك يقول: لا يغضب^(١٧). وورد في المعنى نفسه قوله (ﷺ): «ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي أحد شيئاً هو خير وأوسع من الصبر»^(١٨). وقال الرسول (ﷺ): «إن في الجنة عرفاً ترى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها مقام أعرابي فقال لمن يا رسول الله قال لمن أطاب الكلام. الخ»^(١٩). وورد عنه (ﷺ) أنه قال: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»^(٢٠). كما ورد عنه (ﷺ): «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء»^(٢١).

إن اللغة العربية كغيرها من اللغات تأثرت بمختلف المراحل التي واكبت المجتمع منذ فجر الإسلام، فامتداد استخدام اللغة العربية (أي الكلام) مع الفتوحات الإسلامية واكماله إدخال تراكيب وأصوات لغوية ليست من أصل اللغة العربية، فظهر النحو والصرف حفاظاً على اللغة من هذا «الاعوجاج». وكان المرجع في ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية وشعر العرب الذي لم يتأثر بالواعد من التعابير والأصوات. والمثير علمياً، أن اللغة العربية تمكنت من «استدخال» الفلسفة اليونانية والحفاظ عليها بل والتعليق عليها من دون أن تفقد بيتها في الشكل والمضمون. وينطبق ذلك على نقل أدب الشعوب الشرقية كفارسي والهند. ويمر هذا الأمر جبرئياً إلى أن اللغة العربية كانت لغة حضارة في تلك الفترة، فاللغة الأقوى عادة ما تستوعب أو تعرض نفسها على اللغات الأخرى. ولا يعني ذلك أن اللغة العربية لم تتعرض إلى نوع من «الإحلال» أو «الإفساد» اللغوي بفعل الحذل الذي ساد خلف العرق التي أظهرت تأثيراً بالفلسفة اليونانية أو اعتراضاً على اللغة السائدة آنذاك هي المجال الديني بخاصة،

(١٦) صحيح الترمذي، [تحقيق] هشام سميح البخاري (بيروت، دار إحياء التراث، ١٩٩٥)، ج ٧،

ص ١٤٧.

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٧٦.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٧٤.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٥٢ - ١٥٣.

(٢٠) المقصد «التكبرون»، انظر أيضاً: المصدر نفسه، ص ١٧٤.

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٧٧ - ١٨٧.

فقد شهدت مرحلة الانحطاط تراجعاً في تطور اللغة العربية واستخدامها، فاللغة تسمو على قدر تطور أهلها في شتى المجالات والعكس صحيح. وقد تحولت اللغة العربية إلى التعبير بالمشافهة في عهود الانحطاط، فظهرت اللهجات العربية المحصنة، وتأثرت كل لهجة بأحوال متحدثيها وواقعهم، ودخلت الطقوس، والشعيرة، والخرافات في الكلام، وظهر المباح، وغير المباح، وكثرت الاستعارات من اللغات الأخرى كالتركية والإسبانية والفرنسية والإنكليزية... الخ. وقد عمل الاستعمار على إزاحة اللغة العربية ونكريس واقعها كلغة وضع مترد، وأبعدتها عن مساحة العمل السبسي والثقافي. واعتبر الاستعمار الفرنسي في الجزائر مثلاً وابتداءً من ١٨٤٧ اللغة العربية لغة أجنبية، ومن ثم مع استيراد أو إدخال الكتب والوثائق التي تكتب بهذه اللغة. وعمل بالمقابل على جعل اللغة الفرنسية لغة المدارس والإدارة والصحف وحصرت اللغة العربية في المساجد والكتاتيب التي فرضت عليها الإدارة الفرنسية رقابتها.

وهكذا تم الاعتماد على العربية العامية التي تعددت لهجاتها واستعاراتها من اللغة الفرنسية وغيرها. وحديثاً، سعت الدول الناشئة في منطقة المغرب العربي إلى إعادة اللغة العربية إلى مكانتها الطبيعية كلغة محادثة ودراسة وإدارة واقتصاد... الخ، عبر ما سمي «بسياسة التعريب»، إلا أن هذا المسار شمل اللغة ذاتها لا بنيتها القيمية، بل إن بنية اللغة الجديدة حملت الخطاب السياسي السائد كاليبرالية والاشتراكية... الخ. كما أدى هذا الطرح «السياسي» إلى «تخلف» بعض الفئات «المفلسة» التي تنظر إلى اللغة العربية من خلال متحدثيها، أي أنها «متخلفة»، وبعض الفئات الأخرى التي تعتبر اللغة العربية لغة الدين أكثر منها شيء آخر وأن لفظ «التعريب» يعني إزالة هويتهم اللغوية والثقافية.

وبشكل عام، فإن وسائل الإعلام والقضائيات في المنطقة العربية عامة عملت على إشاعة نوع من العربية التي تعتبر قاسماً مشتركاً بين أفراد المجتمع المتحدثين بهذه اللغة. وتعرف هذه إعلامياً باللغة الصحافية، وهي أسلوب لغوي يحتل مكانة بين اللغة الأدبية العالية، واللهجات العامية. إن هذه اللغة المستحدثة وفوقها الصحافية المعروفة والتي برزت مع ظهور الصحافة المكتوبة والوسائل الإعلامية الأخرى أدت دوراً إيجابياً في تقليص العجوة بين اللغة المثقفة، وغير المثقفة كما ساهمت في تأسيس ما يمكن سميته بالثقافة الجماهيرية، إضافة إلى أنها أحدثت نوعاً من الوعي العام المرتبط بالمصايا المطروحة في المنطقة العربية عامة. إن مثل هذا الإسهام لم يتم من دون بعض الإفساد اللغوي وبخاصة في ما يتعلق ببنية اللغة المعصية، إذ تم إفراغ لحر، الأكبر من هذه اللغة من الصبغة كما نجد ذلك في اللغة الإخبارية التي تعكس

خطاباً يكاد يكون أحاديّاً^(٢٢) في الأسلوب كالقول «استقبل» و«صاح» و«كان» في توديعه و«أشد» و«ندد» و«استنكر» و«هي نبأ عاجل» و«اندلع» و«شدت» و«دش»، و«تركرت المحادثات حول العلاقة بين البلدين» إلخ. وإذا كانت هذه اللمعة عادة ما تحترم النية الحوية فاتها على الرغم من بعض الأخطاء الشائعة هنا وهناك، إلا أن سببها القيمة محدودة، كما إن هناك بعض التوجه نحو إدخال اللهجات العامية في العديد من البرامج الإخبارية والحوارية كاللهجتين اللبنانية والمصرية مثلاً.

والخاص بل أن العنف اللساني يزداد مع ابتعاد فعل الكلام عن القيمة واللمعة الأصلية. إن تأثير اللغة العربية في المتلقي حالياً ليس مثل حال تأثيرها عندما عبرت عن القيمة ليس إلا، في الفترات الأولى من ظهور الإسلام، مثلاً، فالجزء المتبقي من القيمة في اللغة العربية المعاصرة يتنافس مع مجموعة من الخطابات الأخرى التي قد تكون محايدة نسبياً أو منافية أو معارضة أو في الاتجاه الآخر للقيمة وفيها الكثير من الإفساد اللغوي إن في البنية القيمة أو الحوية أو غيرها^(٢٣).

ومعرفياً، تمت العودة حديثاً إلى دراسة اللمعة كمؤسسة علمية مستقلة عنها تكشف أسرار تراكيبها وأصواتها ومعانيها في الوقت الذي كان فيه الاهتمام منصباً على تاريخ اللغة ومقارنة اللغات في الدراسات الألسنية. وقد تطور علم اللغة بفضل إسهامات سوسير، وقيام علم الألسية الذي شملت اهتماماته مجالات شتى، منها الإعلام^(٢٤). واعتبر سوسير أن اللغة مؤسسة قائمة في حد ذاتها وتدرس كذلك، فاللغة تفهم اعتماداً وحصرياً من خلال فهم العلاقات القائمة بين أجزائها، بغض النظر عن العوامل الخارجية. ولعل سوسير أراد بهذا النهج أن ينقل الألسنية إلى علوم «الدقيقة». والخاص بل أن النقد الذي تعرض له هذا التوجه «الحديد» لم يشرك الألسنيين عن متابعة النهج نفسه والبحث عن نية اللمعة من داخلها. إن اللمعة كما نعرف وثيقة الصلة بالحراك الاجتماعي أو بالمتحدثين، إلا أن البنيويين يعتبرون هذا الطرح كلاماً اجتماعياً وليس لسانياً، فانشداد هؤلاء إلى اللمعة كظاهرة مستقلة لها حياة خاصة بها يبعدهم عن ربط اللمعة بأية ظاهرة خارجية تحس كيان اللمعة أو سببها التي وعلى حد قولهم نعلت من قبضة المتكلمين أو وضعهم الاجتماعي والتاريخي مثلاً.

(٢٢) إننا امتدنا إسهامات العضائيات المستقلة التي ثبت مبدأ الرأي الآخر

(٢٣) كذلك فقد طمى خطاب «الصراع من أجل المعيشة» على الحياة في المنظمة العربية وكثيراً ما فقد هذا الأخير الصلة مع القيمة في سياق «قانون السوق» والخوف من المستقبل والاعتقاد المثير بأن العناية بتردد الوسيلة وتحويل المصوغ إلى الحاضر والمختلص إلى المرحوم وغيرها من سمات الخطاب اليومي المعاصر.

(٢٤) كمثل تقديرات رولان بارت عن الصورة

إن من أكرر المفاهيم التي تميد تحليلنا هذا التمييز الذي وضعه سوسير بين اللغة والكلام، فاللغة (La Langue) بنية مستقرة نسبياً وتحكمها بنيتها، قواعدها النحوية واشتقاقاتها. أما الكلام (La Parole) فهو استخدام الفرد للغة، وذلك الاستعمال يختلف من شخص إلى آخر. ولم يحتل الكلام الصدارة في الدراسات اللغوية والإعلامية على اعتبار أن فعل الكلام ظاهرة فردية، متعددة ومتغيرة، وفي علم الألسنية، يكون هذا الأمر قد حسم جزئياً بما أورده شومسكي بأن سببه العقل، تستطيع أن تولد عدداً لا متناهياً من الاحتمالات اللسانية انطلاقاً من قواعد اللغة نفسها. وعلى هذا الأساس، فإن فعل الكلام إنتاج لمعوي وفق إمكانيات الفرد واحتياجاته. أما في الدراسات الإعلامية فينظر إلى الكلام كوسيلة اتصال بغض النظر عن المضمون الذي يتغير من فرد إلى آخر ومن جماعة إلى أخرى. وينمير آخر، فإن الدراسات الإعلامية تهتم أكثر بآليات الاتصال كتصنيفه إلى شخصي وتنظيمي وجماعي وتفاعلي، وليس الاتصال ذاته، واتكاساته على مستوى اللغة. وحسبنا أن دراسة فعل الكلام يقع في موضع بين الألسنية والدراسات الإعلامية، فالألسنية تعتبر الكلام مسألة فرعية في اللغة ويمكن تدارك «الإحلال اللغوي» بالعودة إلى قواعد اللغة، أما مسألة «المعنى» فقصية داخلية في اللغة وليس للمتحدث دور يذكر في هذه العملية إلا من باب أهليته أو عدم أهليته للمعنى. ويعني ذلك أن هذا الإحلال مسألة «شخصية» ونتم حلها كذلك. وفي الدراسات الإعلامية، يكون التركيز في الكلام على تحقيق الهدف المنشود مهما كان نوعه، حتى وإن كان هدفاً اقتصادياً على سبيل المثال. ويصب هذا الاتجاه على زيادة فعالية الاتصال الشخصي كوضوح الصوت وثقة المتكلم بحطابه والنمط مع المتلقي. الخ. أما تأثير الكلام على اللغة سلباً أو إيجاباً فذلك يخرج عن مجال الإعلام ويقترّب من الألسنية التي بدورها تعتبر موضوعاً جانبياً في مجالها الأساسي، أي اللغة، فالدراسات الإعلامية لم تهتم كثيراً باللغة كمؤسسة خاصة على الرغم من أنها أداة ومحتوى الاتصال، ويمرّد ذلك جزئياً إلى وجود تخصص قائم بذاته يختص باللغة: الألسنية (Linguistics). وحديثاً، لحأ العديد من الجامعات إلى إعادة تصنيف العلوم الإنسانية والاجتماعية فجعل اللغة والاتصال فرعاً ينياً مشتركاً^(٢٥)، فاللغة ليست فقط أداة اتصال ولكنها سبب لها تراكيبها واشتقاقاتها وأصواتها ومعانيها أيضاً، وهي بحسب طرحنا هذا تشكل محزون المجمع من القيم والثقافة والتاريخ.

(٢٥) كما هو الحال في جامعة الإمارات العربية المتحدة حيث يسمي تخصص الإعلام إلى وحدة اللغات

والاتصال وذلك في إطار تطبيق خطة جديدة في هذا الشأن.

وقد اعتبرنا في طرحنا الكلام العنصر الأساسي في العنف اللساني والذي يعكس في «تهميش» أو «إضعاف» النية القبيحة في اللغة. وإذا كان الكلام مسانه «عردية» أثناء فعل التلغظ فإنه أيضاً ظاهرة اجتماعية منى أصبحت العامة الأساس والمرجعية في الكلام. إن الكلام في هذه الحالة يتخذ أبعاداً اجتماعية أو فنية أو طائفية الح، عندما تستخدمه جماعة المتكلمين فيميرهم ويتميزون به، فالعنف اللساني يتحول في هذه الحالة إلى ظاهرة اجتماعية. وفي عياب المرجعية الدعوية، أي بينها العيمية والتحوية، قد يصبح التأثير عكسياً فتأثر اللغة بالكلام وليس العكس. وليس المقصود التأثير بالألفاظ والأصوات فحسب ولكن بالمعاني السالبة كالعنف اللساني مثلاً. وقد امتد الكلام إلى مختلف مجالات الحياة في ظل تراجع النظام التنموي والتعليمي وازدهار الثقافة الاستهلاكية والترفيهية. ويدخل في ذلك استخدام الكلام الدارج في وسائل الإعلام وبخاصة المسموعة والمرئية.

ثانياً: عنف اللسان وتراجع اللغة في الخطابات المعاصرة

إن اللغة المستخدمة في الحياة اليومية عامة (أي الكلام) يشوبها الكثير من العنف اللساني، وبهذا يتم انتهاك حرمتها علانية، فاللغة مصدر القيمة، ومنى انحسرت سلطة اللغة هل المتكلم، أو تم إفراؤها من قبها دخل المجتمع في ما يمكن تسميته بالاتصال الاحتياطي. إن مستويات العنف اللساني تختلف من فرد إلى آخر، ومن فئة اجتماعية إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر، إلا أن المشهد أصبح ظاهرة «مدمرة» انعكست على حياة الأفراد والمؤسسات على حد سواء، وإذا كان مستواه الأدنى يتمثل في عدم الرد على التحية مثلاً، فإن مستواه الأعلى يصل إلى شتم الأفراد باستخدام الألفاظ السالبة، وسب الدين، والعباد، والسلاف. ويمكن في هذه الحالة استبدال ما قلناه الشاهر عن الأخلاق بقولنا: إنما الأمم اللعة ما بقيت، فإن هم ذهب لبعثهم ذهبوا.

ويمتد العنف اللساني إلى مجالات شتى كالعنف الذاتي والاجتماعي والسياسي والثقافي والاقتصادي وغيره. وتتجلى هذه المظاهر في شتى الأساليب.

إن العنف اللساني الذاتي أن يظلم الفرد نفسه، والآخرين، فيتغوه بكلمات لا يمكن العودة عنها إذا كان الصبر من طرفاً آخر في الكلام، ويشمل ذلك مثلاً أن يجعل الفرد مركز اتصاله الغيبة والتميمة وقول الرور وغيره، كما يتضمن ذلك أن يكثر الفرد الحديث عن نفسه ويباهي بصعوبات حاضرة أو متعلة، كقوله «أنا العارف»، و«أنا الذي بنيت وشيدت»، و«أنا الشجاع»، و«أنا الشاطر»، و«أنا الذي إن فعلت تفوقت»، و«أنا الذي يلجأ إليه حين تربع الأبصار»، و«أنا الشمس إذا

ظهرت لم يبد من كوكب»، و«إني وإن كنت الأخير زمانه، لآت بما لم تستطعه
لأوتل». الخ. ولو عاد التكلم إلى بنية اللغة القيمة لوجد أن ما أصابه من حير
معن عد الله وما أصابه من شر فمن عند نفسه، وما الحديث عن النفس إلا حالة
مرضية وعنف لساني يضر بصاحبه قبل أن يضر بالآخرين.

وبشمل العنف اللساني الاجتماعي أساليب تجاهل الآخر والنعدي عليه
وحتفاره أو إهائه ما يفكك أو اضر المجتمع وينهك قواه ويفرغه من القيمة. ويشمل
هذا العنف مجالات عديدة، فالبعض يخص الحياة المعيشية الصرفة، والبعض يخص
الحياة الأسرية والبعض يخص السمط الجديد من الحياة وتقديس المال واستهلاك
منتجات العير والتباهي بالأبطال والنجوم الذين تعرض صورهم الإعلانات ووسائل
الإعلام عامة. وينعكس ذلك في ألفاظ خاصة ونكت وأمثال... الخ. وعلى الرغم
من أن بعض هذه التعبيرات قد تعكس واقعاً معاشاً إلا أنها ليست قيماً لغوية، كأن
يقال مثلاً^(٢٦) «لازم الواسطة»، «عنده كثاف» (أي عنده سند)، «طاق على من طاق»
(أي القوي يأكل الضعيف)، «مش شاطر» (لا يستخدم الحيلة)، «إلي قرأ قرأ بكري»
(أي أن التعلم لم يعد ممكناً الآن)، «الشركة هلكة»، «الأقارب عقارب»، «أحيني
اليوم واقتلني غدوة» (أي الانتماع الآن أهم من أي شيء يأتي لاحقاً ما يشير إلى عدم
الثقة بالمستقبل حتى القريب)، «كور واعط لمور» (أي انه العمل بأي راحة كانت)،
وفي مثل هذه الحالة، تصبح «الواسطة» مساعدة، أي صفة إيجابية و«الغش» إنقاذ،
والتحايل ذكاء، وتجاوز الآخرين حكمة، والتمعدي شجاعة، والتكبر رفعة، والحياء
خوفاً، والصبر مدلة... الخ. وبمعنى هذا إدخال بنية أخرى «إسادية» في المعنى
والمبنى.

ويتضمن العنف اللساني السياسي الادعاء بامتلاك الحقيقة من دون غيرها، اتهام
الآخر بأنه لا يراعي إلا مصلحته، وتجاهل الطرف الآخر - ما يسهم في التوتر وعدم
رتقاء المجتمع والدخول في الصراعات التي تبعد طاقة المجتمع وموارده. ويتعلق
العنف اللساني الثقافي بتجاهل التباين الثقافي، وإنكار ثقافة الآخر واحتقارها أو
تهميشها، ويشمل العنف اللساني الاقتصادي الاحتكار والتحايل والمصارعة خدمة
لأهداف ومصالح خاصة.

إن مرد العنف اللساني في نظرنا هو تفكك البنية القيمية للمعنى، ومن ثم تفكك

(٢٦) من باب التوضيح في اللهجة السائدة في منطقة المغرب العربي، ويوجد ما يشبه ذلك في اللهجات
الأخرى أيضاً.

علاقة الفرد بالكلام والعلاقة مع الآخرين . وكلما ابتعد الكلام عن القبعة فقد أجزء ، كثرة من معانيه ودخل في الاعتباطية. وإذا كان الكلام قد تأثر بالإرث التاريخي المشوه والمحدود من عصور الانحطاط والاستعمار ورمز الأيديولوجيات، فإن تفحص ارتباط الكلام باللغة وبنياتها، وما ترتب على ذلك من إفساد للمواقع الاحتفالي والسياسي والثقافي والاقتصادي قد جعل عنف اللسان «خطراً» على كيان المجتمع وانتمائه وعلاقته بالآخرين.

إن الأصل في اللغة التربية والتهديب. والكلمة الدالة هي القادرة على الانطلاق من المحزون القيمي لتلمس واقعاً يعيشه الفرد أو المجتمع وتدفع إلى الأسمى في المعنى والحياة. وبالعكس، فإن العنف اللساني ينزل بالفرد والمجتمع إلى الديوي (الدوني) ويدمر ما أنجزته اللغة من ثقافة وحضارة وقيم امتدت في الزمان والمكان.

ثالثاً: اللسان المستنار في بعض اللهجات العربية مثلاً

من الحالات التي تعسر التداخل اللغوي، وما يترتب عليه من «الإخلال اللغوي» في العلاقة مع قواعد النحو وبنية اللغة القيمية حالة اللهجات المحلية، ومنها مثلاً اللهجة العربية الجزائرية التي يقال عنها إنها «غير مفهومة» وبخاصة عند أهل المشرق. ويعود هذا التداخل اللغوي إلى عاملين على الأقل :

أ - تفرع هذه اللهجة إلى لهجات فرعية. ويرتبط هذا التصنيف بـ «الفئة الاجتماعية التي يتحدث أفرادها هذه اللهجة أو تلك.

ب - تعدد مصادر اقتراض (من القروض) الكلمات (أي الكلمات المستعارة) في هذه اللهجة كالاقتراض من اللغة الفرنسية مثلاً.

وتنقسم اللهجة العربية الجزائرية إلى عدة أقسام لا تسمح هذه الدراسة بعرضها، كالدارجة الريفية «غير المثقفة» الخالصة، والدارجة المدية القديمة الخالصة، والدارجة العربية «المثقفة» والدارجة المدية الحديثة، والدارجة المرسية «المثقفة»، والمصحى (العربية المعيارية الحديثة، والفرنسية)^(٢٧). وما يهمنا في هذا العرض تأثير هذه اللهجات في اللغة الأصلية كنية قياسية وقواعد نحوية. والحاصل أن اللغة تتأثر

(٢٧) انظر مثلاً العامية الجزائرية «Algérie Dialectale» على الموقع الإلكتروني . < <http://www.geociencia.com/languages/darja> >

سلباً هذه اللهجات حتى وإن كانت قد أصبحت جزءاً من اللغة الأصلية كما تشير إلى ذلك نظرية «المتقي».

ويضاف إلى هذه التصنيفات أن اللهجة العربية الجزائرية تعتمد كثيراً على الاستعارة اللغوية من عدة لغات كالأمازيغية، واللاتينية، والإسبانية، والتركية، والعربية، إضافة إلى العربية الفصحى. لقد أخذت اللهجة العربية الجزائرية العديد من الألفاظ الأمازيغية مثل «سقم» (أي اصلح)، و«بخسيس» (التي)، و«مكرون» (سلحمة)، و«مرطوط» (مراشة)، و«بوجفللو» (حلزون)، و«فلوس» (فرغ الدجاج)، و«بلارح» (الفللق) . . . الخ. كما أخذت من الإسبانية مثل «كوزينا» (Kuzina) (أي المطبخ)، و«طوماطيش» (Tomatic) (أي الطماطم)، و«نشينا» (Tina) (البرتقال)، و«دور» (Duru) (فلس)، و«سباط» (Sebbat) (الحذاء)، و«روبا» (Roppa) (العباءة)، و«سبينار» (Sbitar) (المستشفى) . . . الخ. وأخذت من التركية ألفاظاً عديدة مثل «البراك»، و«الدولما» (أنواع من المأكولات)، و«بقلاوا» (نوع من الحلويات)، و«قهاوجي» (مالك المقهى)، و«بالاك» (ربما)، و«جاوري» (أجبي) . . . الخ. وأخذت من الفرنسية قائمة طويلة من الألفاظ مثل «تريسيني» (Electricité) (الكهرباء)، و«شماندفيو» (Chemun de fer) (طريق السكة الحديدية)، و«باهر» (Vapour) (سفينة)، و«باطيما» (Batiment) (عمارة)، و«سوتي» (Sauter) (القمر)، و«بوبيبا» (Poupée) (دمية)، و«فيلو» (Vélo) (دراجة) و«مامبا» (Mafia) . . . الخ. كما تتضمن هذه الدارجة العديد من كلمات العربية الفصحى مثل «الحطة»، «ثانية»، «محظية»، «ولو»، «مكتبة»، «مدير»، «حانوت (أي دكان)» . . . الخ.

إن هذا التسرع في اللهجة والاستعارة يحدث بمحض «الاعتزاز» في البنية القومية، كما إنه ومع انكسار قواعد النحو وزيادة الاستعارات يضعف قدرة اللغة على التعبير عن القيمة وهل نقلها إلى الآخرين.

والحاصل أن اللغة العربية لم تغير كثيراً في قواعد وأصوات لغات الأمم الأخرى التي اعتنقت الإسلام كالتركية والفارسية والملاوية والكردية والأمازيغية وغيرها، وإنما أثرت أساساً في بنيتها القيمية فأصبحت ولفترات تاريخية عمدة لغات قومية بفضل تفاعلها مع اللغة العربية. وهكذا انتشرت القيمة بلغات متعددة، أما المرحلية الصاعدة لعدم الوقوع في الإفراط اللغوي فكانت لغة القرآن الكريم على الرغم من الترجمات الموجودة في مختلف هذه اللغات. وحديثاً، فإن «امرار» السبب القسمة من جلّ هذه اللغات بما في ذلك اللغة العربية، ولم يعد ذلك التأثير الإيجابي قائم بين هذه اللغات إلا في ما ندر. وفي ظلّ هذا التعكك القيمي، تسعى

كل لغة إلى أن تنكمش على ذاتها وتحفظ بخصوصياتها إلى حين. ومعنى آخر، فإن تفلص القيمة جعل اللغة العربية تشابه مع اللغات الأخرى، ونفقد مكانتها المميزة كلغة قيمة. وقديماً، كانت الشعوب الإسلامية تثبت تعلم اللغة العربية رعة واعترافاً بمعرفة قيم دينها. أما حديثاً وعندما تراجعت القيمة في هذه اللغة فقد فصلت هذه الشعوب مثل غيرها تعلم الإنكليزية والفرنسية وغيرها من اللغات على اعتبار أنها لغات العلم والتكنولوجيا.

إن استخدام العامية في المحادثة اليومية أمر واقع وجرء من عملية الانصاف في هذه المجتمعات. بيد أن امتداد اللهجات العامية إلى مختلف مجالات الحركة الاجتماعية من دون مرجعية لغوية وقيمة يجعل هذه اللهجات تؤثر سلباً في اللغة وبنيتها.

رابعاً: عنف الإعلام والمسؤولية التربوية للمجال العام

يعتبر عنف الإعلام^(٢٨) جرءاً من العنف اللساني، فقد ارتبطت ظاهرة العنف إعلامياً بالأفلام والمسلسلات التلفزيونية التي تتضمن أحداثاً عنيفة. وحديثاً، هناك من أضاف تعبير «العنف الترفيهي» و«العنف الإخباري»^(٢٩) على مضامين هذه الوسائل. وتشير عدة دراسات إلى أن العنف المشاهد على التلفزيون مثلاً يساهم جزئياً في زيادة العنف الملاحظ في الواقع، فعنف الألفاظ مقدمة لعنف السلوك. وليس هذا ما نهدف إلى بحثه في هذه الدراسة، فالتركيز من منظورنا يجب أن يتم على أساليب العنف الدعوية المباشرة وغير المباشرة التي تستخدمها وسائل الإعلام أثناء التعامل مع المتلقي الذي عادة ما يكون «متسياً» في هذه الحالة.

إن الأساليب غير المباشرة تكون أصعب إدراكاً، وإن كانت أكثر تأثيراً من غيرها. إن تخصيص الجزء الأكبر من النشرة الإخبارية «لحقيقة المسؤول» مثلاً يعتبر شكلاً من عنف الإعلام لما يحدته من أثر في المتلقي «الواعي»، من معور أو إرهاب أو ملل أو استياء أو «تمرد» الخ. وقد لا تظهر ردود الأفعال هذه مباشرة متحزرها ابداعه على شكل شخصيات كائنة يمكن أن تبرز لاحقاً في شكل عنف لساني آخر، والعنف اللساني عادة ما يولد عنفاً لسانياً آخر «معادياً له في الاتجاه». إن هذا النص

(٢٨) عنف الإعلام ظاهرة جرية إذاً وبالنسبة ليس كل ما هو إعلامي ينتمي إلى هذا العنف.

(٢٩) انظر مثلاً موضوع «العنف شاشه أو مرآة؟» على الموقع الإلكتروني <http://www.amanjordan.org/aman_studies/onlineview.php?ArtID=665>

اللساني الإعلامي ليس عنفاً لسانياً ظاهراً إلا أنه يفعل سعيه إلى «فرض حقيقته» على الحقائق الأخرى التي يزخر بها الواقع، ويفعل تجاهله المتلقي ككائن له قيمته وحقه في التمييز بين الحقائق، يعتبر عنفاً لسانياً بطريقة ضمنية.

إن مساحة الإعلام تشهد باستمرار صراعاً من أجل فرص حقائق لسانية على الآخرين. ويمكن أن ترفع هذه الحقائق أناساً وتسقط آخرين، فليسان الإعلام يحدد و«منكر» معايير من يمكن اعتباره مثلاً ناجحاً أو فاشلاً، وطيباً أو أنانياً، تقدمياً أو رجعياً، ماصلاً أو متخادلاً، مصالماً أو مشاغياً... إلخ. وتتبادل هذه الألفاظ المواقع باختلاف الفئات على الخطاب اللساني السائد. وعلى هذا الأساس، يمكن أن يصبح العاشل ناجحاً، والرجعي تقدمياً، والبخيل سحياً، والجاهل عالماً، والمنحذل مجتهداً... إلخ، وذلك جزء من عنف الإعلام.

ويشمل هذا العنف غير المباشر حرمان الآخر من فعل الكلام وبالأخص الكلام المعبر عن حقيقة من الحقائق، كحرمان الفرد والجماعة من التعبير عن حقوقها الاجتماعية والثقافية والسياسية وغيرها. ويمكن تسمية ذلك «بعنف التجاهل»، فالإعلام «بجال عام» (Public Sphere) ومن ثم يصعب تبرير احتكاره بأكبر باحتكار حقيقة الوضع المعاش. وفي ضوء تعدد الواقع وحقائقه، تكون مسؤولية الإعلام تربية، أي تكون له سلطة معنوية في عرض الحقائق وإعطائها فرصة التدافع حتى يتمكن المتلقي من تكوين قناعاته عن ديانة بعيداً عن التجاهل الذي ذكرناه آنفاً.

وتشمل مظاهر عنف الإعلام شواهد متعددة أخرى، فالصورة الإعلامية وعدد من الشرائع الإخبارية تعتمد المرأة بوصفها جسداً، أو سلعة وليست مضموناً، أو أداة في نقل الرسالة، واستخدام المرأة بهذا الشكل «المزحرف» عنف لساني ضمني يمس كرامة المرأة من جهة ويشوه الحقائق أمام المتلقي الذي قد يسجد إلى الشكل دون المضمون، فيبدو الأمر وكأن هذه الوسائل تريد أن تسوق جدمائها وسلعها عبر جسد المرأة «المزين». وقيمياً، فإن التعلق بهذه الصورة يبعد الفرد عن القيمة ويشعره عن دوره ومكانته الحقيقية في الأسرة والمجتمع، بأكبر بما ترسب في «لاوعي» الفرد من «خيال معهود» على النحو الذي تحدث عنه علماء النفس.

وننصم أساليب العنف المباشر إظهار مشاهد العنف في الشرائع الإخبارية التي وإن كانت بعكس واقعاً معاشاً، غير أنها لا تتلاءم وتباين مسؤوليات المتلقي في إدراك هذه المشاهد في سياقاتها وبخاصة عندما تتعلق الأمر بفتة الأطفال مثلاً. وهديماً، عمد العديد من المجتمعات إلى التدرج في إدخال مفردات العنف على لغة

لأطفال، كأن ينهي الطفل مثلاً عن استخدام كلمات «الدم»، و«المسكر»، و«الدبح»، و«القتل»، و«الاغتصاب» في المراحل الأولى من العمر، لإحداث مسافة ممتدة نسبياً بين الطفل وإدراك دلالة هذه المفردات، والمعروف أن التعود على أشياء مقدمة إلى فعله دون تأنيب ضمير، ومن لم يتعود على ذلك صعب عليه الانتقال إلى العمل خوفاً أو جهلاً أو حياة... الخ. وإذا فإن مثل هذه المشاهد جرة من عصف الإعلام تجاه فئة الأطفال على وجه التحديد مثلاً.

وتشمل هذه الأساليب ما يعرض من أعلام العنف والجس وال مسلسلات التي تمقل معاني القوة والبذخ واستعراض الجسد ولهو الحديث وتمجيد «السجود» السيمائي... الخ. وهو الوضع الذي يشغل حتى المجتمعات خارج المنطقة العربية والإسلامية لما له من تأثير سلبي واضح في الثقافة والدوق والسلوك.

ويضاف إلى هذه الأساليب اللغوية المباشرة وغير المباشرة إدخال العامية في لغة بعض هذه الوسائل بما في ذلك لغة الصحافة المكتوبة، فإدخال العامية وإن كان على نطاق محدود يعد إفساداً لسانياً على مستوى قواعد النحو، وضوابط الأصوات، وهو مقدمة لإفساد البنية القمية للغة نظراً للترابط القائم بين القواعد والقيم.

وقد عالج نسيم الخوري هذا الموضوع بإسهاب في مؤلفه: الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية^(٣٠) وبش كيف تمتد المحكية اللبنانية إلى مختلف وسائل الإعلام بما في ذلك الصحافة المكتوبة، فتعميم المحكية واعتبارها لغة إعلام الناس حول «الصراع» القديم بين المصحى والعامية إلى «الصراع بين اللغة الصحافية ومحكيات العامة من الناس ولهجاتهم»^(٣١). وقد تقلص استخدام العربية المصحى بشكل كبير من البرامج والأخبار والإعلانات حتى في الوسائل الإعلامية الرسمية وذلك لمصلحة المحكيات^(٣٢). ويقدم الخوري عدة نماذج عن ذلك ومنها مثلاً إحدى الأغاني الترويجية في إحدى المحطات التلمزيونية اللبنانية التي من جملة ما نقول «نحن رعار، يا كمار الي كنتو زغار، مش راح ملعب لمبتكن، مش حلوي لعبة الكمار، نحنا التغيير الي جايي، معها منكفي المشوار». ويخلص الخوري إلى القول إن اللغة العربية انحدرت «نحو العامية قراءة وكتابة. وباتت سلطتها التقليدية

(٣٠) نسيم الخوري، الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،

٢٠٠٥)

(٣١) المصدر نفسه، ص ٢٤١.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

التي حمها طيلة العصور مثل السياسة والدين والمؤسسات التربوية في امير مثلها^(٣٣). ويصيف «ولا جديد في الفول أن المحكية صارت لغة رسميه ولغة الرسميين، وفي الإعلام الخاص والعام، يتفاعل معها اللبنايون والعرب ويصلون عليها وكأنها منبع المعرفة والثقافة الوحيد، وهذا ما يزيد بالطبع من انهيارات العربية وحقق مستوياتها إلى أدنى الدرجات»^(٣٤).

إن الظاهرة التي عالجها الخوري ماثلة وبمستويات محتلمه في المناطق العربية الأخرى. وإلى عهد قريب، كانت اللهجة المصرية حاضرة بفعل انتشار الأفلام، والمسلسلات المصرية. وأعقب ذلك المحكية اللبنانية، والشامية وبخاصة مع ظهور الدراما الشامية والفصائيات التلفزيونية العربية التي نشط فيها المقدمون من هذه البلدان. وأياً كانت اللهجة، فالتأثير يكون سلباً في بنية اللغة التركيبية كما بين اللغويون ذلك في القديم والحديث. وما يخص موضوعنا هو اختلال البنية القيمية في اللغة تأثراً باللهجة أو الكلام. وأرغم أن استعادة البنية النحوية في حد ذاتها لا يكون كافياً إذا لم يتزامن ذلك مع ربط اللغة بسياق القيمة الذي هو أساس وجودها. والحاصل أن بعض لغات الشعوب الإسلامية كالملاوية مثلاً تحمل شحنة قيمية قد تكون أقوى من العربية الحديثة بفعل أنها لم تتعرض بنفس الحدة^(٣٥) إلى إفساد عصور الانحطاط والاستعمار والأيديولوجيات المعاصرة.

وعامة، فإن اختلال البنية النحوية يؤدي إلى اختلال البنية القيمية، غير أن سلامة البنية النحوية لا يعني حضور البنية القيمية، فاللغة لها من الاستقلالية ما يجعلها أداة بناء أو تدمير وفق اقتراحها أو ابتعادها عن نظام القيمة.

ويمكن الافتراض أن عصف الإعلام عامة قد يتجلى في شتى مظاهر الحياة إذا كان الفرد يمتلك استمداد تقبل هذا العنف كجزء من ثقافة هذا الزمان، أو أن الفرد لا يمتلك الخصاصة القيمية التي تلقاها في مؤسسات غير وسائل الإعلام، فيبرز ذلك في عصف لساني نجاء الآخرين أفراداً أو مؤسسات. ويمكن أن نحدد ذلك التناغم بين الإفساد اللغوي والفساد الأخلاقي وإفساد الطبيعة، والفساد الإداري والفساد المالي والفساد السياسي... إلخ.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٢٧١

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٤٧٣.

(٣٥) رغم أن كتابها باللاتينية أدى إلى اختفاء بعض الأصوات العرمة فيها كالعين التي تنطق ألفاً

خامساً: «عنف اللغة» عند بعض المحدثين ومآخذها

تكمن إسهامات لوسركل^(٣٦) في أنه سلط الضوء على جانب في اللغة م يكن محل تركيز في علم الألسنية: المتبقي. وعلى الرغم من أن «المتبقي» لا يخصص الكلام ذاته^(٣٧) على النحو الذي تناولناه إلا أن طرح لوسركل يمس في إظهار الجانب الآخر من الإفساد اللغوي اعتماداً كما يبدو على اقتراحات النظرية النقدية والمدرسة الفرويدية.

إن من الدراسات الحديثة في مجال «عنف اللغة» تقديمات جان جاك لوسركل. يرى لوسركل أن علم الألسنية على النحو الذي أبرره سوسير وأنبأه «يكرر» الجانب الأسامي في اللغة والذي يخالف «النحو العلمي». وسمى لوسركل هذا الجانب «بالمُتَبَقِي» (Le Résidu)، فالألسنية «السوسيرية» تدرك حضور هذا «المتبقي» ولكنها تتجاهله على اعتبار أنه فعل أو كلام فردي وليس طرفاً في نظم اللغة^(٣٨).

وعلى الرغم من أن لوسركل يعتبر نفسه من المدرسة «السوسيرية» إلا أنه ينتقد مؤسسها على عدة مستويات، فهو يرى أن هدف الألسنية دراسة «اللغة بمعناها ولبنانها»^(٣٩) وليس في العلاقة مع متغيرات خارجية. إن «التزامن» في نظره غير كاف في دراسة اللغة، فاللغة ليست نظاماً مغلقاً أو مجالياً «لاتاريخي» ولا اجتماعي^(٤٠) بل مؤسسة ذات امتداد في الواقع المعاش. ويعتبر لوسركل أن اللغة تراث ما قبلها، «فالواقع التراكمي الراهن دائماً يرث تاريخ اللغة»^(٤١).

ويجعل لوسركل «المتبقي» جزءاً إن لم يكن «الجزء الصادق» من اللغة فهذا الجزء وإن كان يمارس التخريب على نظام اللغة إلا أنه طرف «متهور» يعاود الظهور لمعياً في عدة أشكال، فالتجاذب قائم بين اللغة كبنية والمتبقي كجانب اعتباطي يفرم على أطرافها، فاللغة في نظره «مستقلة ولا مستقلة»، محكومة بالقواعد وهو صوبة، اعتباطية ومسببة (بفتح الباء)، مستقرة وفاسدة^(٤٢). ويجد لوسركل هذا

(٣٦) جان جاك لوسركل، «عنف اللغة»، ترجمة وتقديم محمد بدوي، مراجعة سعد مصلوح، لسانيات ومعاجم (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٥).

(٣٧) يتنقل «المتبقي» كثيراً في المکتوب من الأدب مثلاً.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٧١ - ٨٣.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٧٩.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٣٢٧.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ١١٨.

«المتبقي» فيما «تنبه» أو تقمعه قواعد النحو» كالتنكات وزلات اللسان والأخطاء السحوية والشعر وغيره^(٤٣)، فالمتبقي «هو الجزء المقموع في اللغة ويعود إليها»^(٤٤). ويعتبر لوسركل أن «المقهور» لغوياً يبرز فقط في الأساليب التهكمية التي على ما يبدو نفلت من قبضة اللغة كالآدب: «إن الميل المكبوت نحو العث والسحف لا يظهر إلا في شكل التنكات والطرائف... والهنديك (الذي هو) نوع من الأنواع الأدبية»^(٤٥). كما يمكن إيجاد أمثلة أخرى عن المتبقي في «النصوص المنوحشة وكلام (نصوص) المجانين»^(٤٦).

إن «المتبقي» يمارس تحريماً أو عتقاً لغوياً وإن كان ذلك في نظره «شز لا بد منه». ويرى لوسركل أنه لا يمكن حصر دراسة اللغة في لهجتها الرئيسية أو المعصية كما تعمل الألسنية، «فالجانب الرئيسي أو السحوي فيها دائماً عرضة للتحريب من جانب الأصغر الذي يشبه المتبقي»^(٤٧). ويجد لوسركل في الآدب المجال الذي يتفاقم فيه هذا التحريب، «فالصّ الذي يجد فيه تحريب اللهجة الكبرى على يد اللهجات الصغيرة أكثر ظهوراً هو الصّ الأدبي»^(٤٨). ويعتبر لوسركل أن اللغة قادرة على إعادة التشكل باستمرار وفق ما يضعه المتبقي على اللغة، وليست اللغة نظاماً مستقلاً على النحو الذي اعتقده سوسير وأتباعه. إن الإزعاج الذي يحدثه المتبقي عادة ما يكون جزئياً ويتم استيعابه لغوياً: يقول لوسركل «فتحت التشويش الظاهر، تبتق محاولة أخرى، وإن كانت شادة وجزئية، لإيجاد نوع من النظام»^(٤٩)، ويضيف «نحن لا نرى هناك الفوضى الشاملة بل نجد أجراً من اللغة غير مقبولة بعد»^(٥٠).

وتقدم تقديمات لوسركل كمثال الألسية على علم النفس الفرويدي، وبالأخص لدور الذي يمارسه اللاوعي في التعبير اللغوي. ومن وجهة نظره، «يصبح المتبقي هو المعادل اللغوي لما كان فرويد يدعو باللاوعي. تنبه أو تقمعه قواعد النحو ولكنه يجاور العودة بصورة مختلفة: السكات، زلات اللسان، الأخطاء السحوية

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٧٣

(٤٤) المصدر نفسه، ص ١١٨

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٧٣ و ٧٥

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٩٧.

(٤٧) المصدر نفسه.

(٤٨) المصدر نفسه، ص ١١٧.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٧.

والشعر»^(٥١). إن عمل المتبقي «يشبه عمل العقل الباطن الفرويدي أكثر مما يشبه عمل النحوي»^(٥٢).

ويعتبر لوسر كل أن اللغة يشقيها البيوي، و«المتبقي» هي التي تتكلم وليس المتكلم الذي تتكلم اللغة من خلاله، «فعندما يتكلم الشخص تكون اللغة دائماً هي التي تتكلم»^(٥٣). وذلك يختلف عن افتراضات الألسنة التي ترى أن فعل الكلام سلوكاً واعياً يمارسه المتحدث، فالألسنة تفترض خطأ «أن النصّ تعبير عن المعنى الذي كان المتكلم الأصلي يموي إيصاله»، وأنه «ينضمّن معنى، واعياً، ومقصوداً. ومن هذه الوجهة، فليس هناك شكّ في أن المتكلم يتكلم لعته، إنه في وصعية السيطرة النامة»^(٥٤). وتعود سيطرة اللغة على المتكلم على ما يبدو في نظره إلى تعود المتبقي في اللغة، على الرغم من ارتباط اللغة بالنظام وليس «بالفوضى اللعوية»، فالمتبقي يجد سبيله إلى اللغة لاشعورياً ما يجعل دور الفرد محدوداً في هذه العملية. ويضاف إلى ذلك أن لوسر كل وعمل الرغم من إدراكه لاستقلالية اللغة كنظام، إلا أنه يرى أن اللغة تتأثر بالبعد الاجتماعي، وحتى بالصراع السياسي ما يجعلها أكثر نفوذاً من إمكانية الفرد على التحكم فيها أثناء فعل الكلام.

إن التاريخ في نظر لوسر كل يؤدي دوره في تشكيل اللغة، كما إن هذه اللغة ليست بعيدة عما يجري في المجتمع من تحول وصراع على عدة مستويات، ويبرر هذا التداخل بين اللغة والعوامل الخارجية في المتبقي والاستعارات المتعددة، الأدبية، والسياسية، فهو يرى أن «اللغة مجال العمل للتدخل التاريخي (السياسي) ووسيلته في الوقت نفسه والاتجاه الاجتماعي للجسم وللجسم السياسي»^(٥٥)، وأن «الرابط بين اللغة والسياسة واضح في ناحية واحدة على الأقل - هي الخطابات السياسي»^(٥٦). ويضيف في السياق نفسه «أن اللغة هترة ليس فقط بعنف المواطنين فحسب، بل أيضاً بالعنف الرمزي للنضال السياسي»^(٥٧).

ويتضح أن لوسر كل يتبنى جريئاً النظرية التنفيذية في إبراز الترابط بين اللغة وما

(٥١) المصدر نفسه، ص ٧٣

(٥٢) المصدر نفسه، ص ١٩.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٦.

(٥٤) المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٢٢٤.

(٥٦) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

(٥٧) المصدر نفسه، ص ٢١٢.

يسميه بصراع الطبقات، وذلك بعكس ما ذهب إليه معظم علماء الألسنية المحدثين، فهو معتبر أن «اللغوي يعكس الاجتماعي ويؤثر في العناصر الأخرى التي تسهم فيه، فليس هناك حالة للغة ذات مناعة ضد التلوث الآتي من قبل الطرف التاريخي»، وأن «اللغة ليست محصنة ضد التأثير بالتزعات الطبقة». ويبدو في نظره أن «المتبقي» شكل من أشكال هذا الصراع الذي ينفذ إلى اللغة على الرغم من نظاميته، إن صح هذا التعبير، فهو يرى أن هناك دائماً محاولة «إعادة السيطرة للمفهورين على المعايير الأصلية التي كانت الطبقة الطالقة تحميها عليهم». ويرز ذلك أيضاً على المستوى السياسي، إذ يوحد هناك ما سماه «بالنراع السياسي اللغوي للسيطرة هي الكلمات». ويبدو في نظره أن اللغة تتأثر بعامل السلطة وميران الأكثرية والأقلية: «فتأني الأكثرية وتستثنى الأقلية التي غالباً ما تعود وتهدد بالتخريب، والحاجة إلى العنف تكمن عميقاً في بنية اللغة». وإدأ، فإن «اللغة ليست وسيلة للتواصل بل للعمل»، كما إنها «ليست أداة حيادية تستعمل في التسمية، كما إنها ليست مجرد أداة للتواصل، ففي اللغة الكثير من الترسبات. والمتبقي شأنه في ذلك شأن اللاوعي، يبقى ويستمر ويتوسب»^(٥٨).

إن عنف اللغة هي نظر لوسر كل هو ذلك الجانب السلبي في المتبقي، فهناك «جانب سلبي للمتبقي يدمر، ويفكك نظام اللغة، وجانب إيجابي في الشيء الذي لا يمكن تجاوزه»^(٥٩). ولا يتوقف هذا العنف على قواعد النحو فحسب، بل يمس أيضاً مضمون المتبقي من مختلف الاستعارات التي هي نتاج توظيف المتبقي للاحتمالات النحوية الكامنة في اللغة. «عنف اللغة لا يمكن حصره بعنف اللانحوية حيث إن المتبقي يخرب قواعد نظام اللغة»^(٦٠). ومن وجهة نظره، فإن العنف اللغوي متعدد الأبعاد، ويمثله في ذلك المتبقي الذي هو «تسلل التناقضات والصراعات الاجتماعية التاريخية إلى حرم اللغة». وإدأ، فإن هناك علاقة تناقض مستمرة بين المتبقي واللغة، وهذه اللغة «هي الحياة بكل تناقضاتها وفوضويتها»^(٦١).

ويمكن في هذا السياق أن نذكر المآخذ التالية على نظرية «المتبقي» التي أوردتها لوسر كل:

- يطلق لوسر كل في مقدمة تحليله من تراث الألسنية ويقول «أنا لا أزال من

(٥٨) المصدر نفسه، ص ٣٦٤ - ٤٦٩

(٥٩) المصدر نفسه، ص ٢٦٦.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٣٢٤.

(٦١) المصدر نفسه، ص ٢٢ - ٢٤.

اتباع سوسير^(٦٢)، إلا أن طرحه أكثر ما يكون طرح النظرية النقدية «المعروفة»، فهو يعتبر اللغة نظاماً غير مستقل «تماماً»، وإنما يتحللها ما سماه بالمتبقي والذي بشري اللغة ويمكن من الإبداع، بل يعتبر أن «الكثير من الأنشطة الإبداعية في اللغة تقع خارج هذا النظام»^(٦٣)، وذلك ما يعيدنا إلى الجدل «القديم» الذي أهتبه الألسنة بالقول إن اللغة «متعالية» عن متحدثيها أو كما أشار إلى ذلك كلود حجاج في مؤلفه «إنسان الكلام من أنه «لا يوجد لسان طريقي على الرغم من أن اللسان يتبع استعمالاً طبقية له، فاللسان تشكل تحديداً لخدمة أفراد المجتمع بعض السطر عن انتمائهم ل«عريقي»^(٦٤).

- يعيد لوسر كل «الإفساد اللغوي»^(٦٥) إلى اللغة ككل، فاللغة في نظره تنقسم كلاً من:

أ - البنية على النحو الذي أورده سوسير وغيره.

ب - المتبقي الذي يعتبر ظل اللغة أو الوجه الآخر، ذلك الوجه «المفهور».

وقد يكون هذا الأمر صحيحاً في اللغات الأخرى، إلا أن الأمر مختلف، عندما يتعلق الأمر باللغة العربية بخاصة، فاللغة العربية تمتلك مرجعية لغوية، وقيمة ثابتة تتمثل بالقرآن. وعليه، فإن هذه المرجعية تحد من «الإفساد اللغوي» الذي تتعرض له هذه اللغة، مثل غيرها، بعمل إستراتيجيات فعل الكلام ونمو اللهجات العربية في مختلف المناطق: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»^(٦٦). وبمعنى آخر، فإن «الإفساد اللغوي» سواء كان بنية لغوية، أو معنى لا يمكن أن يكون جزءاً من اللغة بل يظل على أطرافها إلى حين. والحاصل أن اللغة العربية «المصحى» لم تشهد تحولات تاريخية أساسية مثل اللاتينية مثلاً، ومارال الشعر الجاهلي عند السحابة مثلاً مرجعية أخرى، يرجع إليه لتثبيت بنية اللغة وتصحيحه.

إن اللغة العربية «المصحى» تمثل مرجعية لغوية وقيمة متى ظلت وثيقة الصلة ببعض القرآني، والسنة النبوية، وبمجموع التراث، وبالشعائر اللغوية، والاجتماعي المستنق عن هذه الأرضية. وكما إن المجتمع أو «الحضارة» تتعرض إلى استكاسات

(٦٢) المصدر نفسه، ص ٢١٦.

(٦٣) المصدر نفسه، ص ١١.

(٦٤) كلود حجاج، «إنسان الكلام» مساهمة لسانية في العلوم الإنسانية، ترجمة وصوان طاطا (بيروت).

معلمه العربى للترجمة، ٢٠٠٣)، ص ٣٥٩.

(٦٥) يستعمل أحياناً الإفساد اللغوي وأحياناً أخرى العنف اللغوي.

(٦٦) القرآن الكريم، سورة الحجر، الآية ٩.

تاريخية ظرفية كذلك الحال بالنسبة إلى اللغة، فقد تأثرت اللغة العربية بمر من لاحتطاط ونحو لت جرتياً وموقتاً من لغة العلم إلى لغة الشعوذة والخرافات، وما لشت أن استعادت اللغة توازنها وأصبحت لغة النهضة الجديدة التي شهدت المنطقة العربية ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر مع الحركة الإصلاحية، فكان الإصلاح لعوباً، وقبلياً. كما استدخلت اللغة العربية، لظروف تاريخية محددة «السرعة الوطنية» وأصبحت أداة مواجهة وتعبير في زمن الحركات الوطنية. وحدثاً، تعرضت اللغة العربية إلى «هزات أيديولوجية» تمثلت بالنظم، والمذاهب السياسية المتعددة، كالرأسمالية، والاشتراكية، والقومية، والليبرالية، وغيرها، فالصراع بين هذه الأيديولوجيات كان لغوياً، فكُلّ حاول ويحاول فرض مفاهيمه على الساحة، واقع المفاهيم الأخرى أو إزاحتها. وتم في هذه الحالة استدخال الكثير من الألفاظ غير المألوفة أو غير الحاضرة في المنطقة العربية كمصردات «الاقتصاد الليبرالي»، «حرية المرأة»، «الثورة»، «الإقطاعية»، «البرجوازية»، «الإمبريالية»، «صراع الطبقات»، «الجماهير»، «الرعي الرائف»، «العلمانية»، «العمولة»... إلخ، ولم تعقد اللغة العربية على الرغم من كل ذلك طاقاتها القيمة، بفعل ثبات مرجعيتها على مرّ الزمن.

- يرى لوسركل أن اللغة «هي التي تتكلم» وليس «أنا الذي أتكلم»، فاللغة تسيطر على متحدتها ولو بطريقة غير شعورية، فقواعد النحو و«المنبقي» يمارسان «لتسلط» على المتكلم، وكأن هذا الأخير لا يختار بالضرورة خطابه. والحاصل أن لوسركل يميل إلى علم النفس المرويدي في تفسير حالة المتكلم المدفوع بقوى غير شعورية، ويضيق إليه بُعد المتلقي الذي على ما يبدو يساهم في التعبير عن هذا الذي يسميه لوسركل «بالقهور» من جهة، ويؤدي إلى الإفساد اللعوي من جهة أخرى. ول معروف أن اللغة أكثر من الفرد ونحوي مخزوناً من القيم التي يمكن أن يعيشها الفرد في زمان وظرف محددين بعيداً عن تاريخ اللغة وحياتها المستقلة نسبياً. وكما يقول عبد الاجتماع فإن اللغة ظاهرة اجتماعية، أما الكلام فعملية فردية والجماعة أكبر من الفرد، ويتبنى الفرد النظام القيمي عن إدراك و«وصي»، أما التأثيرات اللاشعورية، فمحالات ظرفية، وعادة ما تكون مرضية.

- يعطي لوسركل «المنبقي» منزلة عالية كجزء «مقهور» تسعى استعادته إلى واحه اللغة على الرغم من إيجائه بأن «المنبقي» يدخل في صيروره إفساد اللغة، هلك متروك في إصفاء حكم قيمي محدد على المنبقي، فمن جهة، يعبر المنبقي هو ذلك الجزء الذي يلازم اللغة، ومن جهة أخرى، يعمل المنبقي على الإحلال بالنظم اللعوي، على الرغم من قدره اللغة على استيعاب ذلك.

- يربط لوسر كل «المتبقي» أساساً بالصراع الاجتماعي بين الفئات، على الرغم من اعترافه بأن هذا المتبقي قد يتحول بدوره إلى أداة تسلط، فيحدث ما يمكن تسميته بمسقيات أخرى. والحاصل أن اللغة بنية لها استقلاليتها على الرغم من تأثرها بالوضع أو الواقع المتجدد. إن إقصاء فكرة كون اللغة قد سبقت الإنسان - «وعلم آدم الأسماء كلها»^(٦٧) - جعل العديد من النظريات على الرغم من «هشاشتها» تعتبر اللغة ظاهرة مستحدثة ومن وحي الإنسان نفسه. أما ما يحدث للغة من إفساد فتوي أو طيفي أو طائفي إن صح التعبير فيعود إلى فعل الكلام وليس إلى اللغة كما أسمى.

سادساً: من أجل ربط اللسان باللغة وتسخير الواقع للقيمة

إن ظاهرة العنف اللساني والإعلامي جزء من الواقع المعاش في المنطقة العربية حديثاً، ويمكن ملاحظة ذلك في تنامي نوعية الخطاب اليومي الذي ينتجه الأفراد، أو الجماعات، إضافة إلى اتحداد الكثير من محتويات الوسائل السمعية والمرئية إلى مستوى محاربة العرائز، والزعات الاستهلاكية، سعياً وراء الكسب المادي، وتقليداً للموضة السائدة في الإعلام الدولي وبخاصة الغربي.

ويترتب على ذلك أن تراجع اللغة كمارس، ومحرك للقيمة، وتصبح اللغة مجرد وسيلة كلام، فينكمش للتكلم من شح ما ينمو به، ويصاب التلقي بحياة أمل من صحالة ما يتعرض له، إن كان في الاتصال الذاتي أو وسائل الإعلام، فاللغة تتميز بقيمتها المثلثة لثقافة، أو حضارة متميزة، ومنى تراجعت أو تلاشت القيمة، لا تعود اللغة أداة ثقافة أو حضارة، بل تصبح مجرد أصوات تستخدم لتحقيق بعض المافع ليس إلا. والثابت الآن أن اللغة العربية، وبمعل ثبات مرجعيتها القيمة ما زالت قادرة على الانبعاث من جديد، طالما أن هناك محاولات تدل لإعادة الربط بين اللغة والقيمة على نحو ما نادت به الحركات الإصلاحية.

إن هذا الربط يتوقف على إدراك القيمة علمياً وممارستها في فعل الكلام عملياً، فالقيمة أشد ما تكون مرتبطة بالعلم والمعرفة، فكلما ارتقت اللغة قيمياً، ارتقى المجتمع ثقافياً وحضارياً، والعكس صحيح، إذ يصعب تصور مجتمع راق بلغة تكون دون ذلك، أو يكثر فيها الإفساد اللغوي، وبمعنى آخر، فإن اللغة القيمة هي المحرك لرفي المجتمع، وازدهاره معنوياً، ومادياً. أما الربط بين اللغة والقيمة عاطفياً من دون سد من العلم والمعرفة فمجرده لجوء مؤقت إلى اللغة في ظل فساد الوضع، وذلك ما يدخل إفساداً لغوياً من نوع آخر إلى اللغة.

(٦٧) المصدر نفسه، سورة الفرقة، الآية ٣٦.

إن الركود إلى العامية حتى في المواقف التي تتطلب لغة ترقى إلى مستوى الحدث، كالحوارات التلفزيونية، مثلاً، يفقد اللغة الأصلية شرعية وجودها كأداة لصط الوصح المعاش، وتوجيهه نحو الأفضل في القيمة والممارسة، ويترتب على هذا لعنف اللساني ضعف اللغة نفسها وتراجع دورها، فيتقلص العاصل بين اللغة المثقفة التي مرفح من منزلة محدثيها، واللغة غير المثقفة أو العامية التي تسمر في إنتاج الإفساد اللغوي كلما ابتعدت عن القيمة باستمرار.

إن طرحنا هذا ليس دعوة أخرى إلى اللغة القصص في ذاتها، فذاك موضوع معروف، ومدرس، وإنما هو توجه نحو إعادة البنية القيمة إلى اللغة، فاللغة يمكن أن تكون قصص من دون أن ترتبط بضرورة القيمة، كما هي الحال في شتى أنواع الخطاب التي تزجر بها المنطقة العربية، كخطاب المحادثة اليومية، والخطاب السياسي، والإخباري، والترفيحي، والغنائي، والاقتصادي، والرياضي، والأسطوري والسحري، وغيره.

إن هذه البنية القيمة هي التي يمكن أن نعيد للغة سلطتها على المتكلمين، والخطابات الأخرى القائمة. وما تشهد المنطقة العربية من «تطرف» أو «عنف» لساني أو إعلامي يعود إلى متحدثيها، وليس إلى اللغة التي لا تزال تحتفظ، بطريقتها الخاصة، بمرجعيتها القيمة. وبتعبير آخر، فإن العنف لساني وليس لغويًا ومنشأ الظروف التاريخية والاستعمارية وحالة المتكلمين أنفسهم. إن مثل هذا العنف اللساني ليس خاصاً بالمنطقة العربية وإنما حاصر في شتى المنظومات اللغوية التي لا تملك مثل اللغة العربية مرجعية قيمية ثابتة في المعنى، والمبنى، وإنما جاء التركيز على المنطقة العربية على اعتبار أنها أيضاً، كما قبل، مركز لأنواع أخرى مما يسمى بالعنف عامة.

إن عنف اللسان والإعلام في المنطقة العربية وما ترتب عليه من تبعات على المستوى الاجتماعي، والسياسي، والثقافي، والحضاري، يعود إلى «انكسار» البنية القسمة للغة التي لم يرد ذكرها في أقوال علماء الألسنية، إذ استثنوا فكرة منشأ اللغة، ومرجعيتها القيمية، والبراث الذي اثبت عن ذلك. والحاصل أن علماء الألسنية أفصروا التاريخ جملة، عندما احتجوا إلى التحليل الترامني، واعتبروا اللغة كياناً مستملاً ليس له علاقه بالعوامل الخارجية.

إن إعادة إحياء البنية القيمة للغة نعيد لها قوتها كمصدر إشعاع مؤثر في اللسان، والإعلام. فلساتياً يمكن العمل على إعادة الربط بين فعل الكلام، والنظام

الثقافي، والتعليمي، والقيمي الكامل في المجتمع. وإعلامياً، يمكن إدخال مدأ المسؤولية الاجتماعية في أذهان القائمين على وسائل الإعلام والجمهور المتلقي، واعتبار استخدام هذه الوسائل حلاً يتجاوز المفعة المادية، وتحقيق الأهداف السياسية، وتتضمن هذه المسؤولية إدراج القيمة في لغة الإعلام، وبرامجها وإجراءاتها، فإن ذلك يشمل اعتبار «عنف الإعلام» سمة سلبية فيمياً، ويرتبط هي ذلك «تهميش» تلك البرامج التي تعرض العنف المباشر كأفلام ومسلسلات العنف، والجس. وينطبق ذلك على العنف اللغوي غير المباشر الأشد فتكاً على اعتبار أنه قد بعثت من وعي المتلقي، وبخاصة إذا كان هذا الأخير لا يمتلك الحصانة القيمة الكمية، كصور الإعلان وتسويق جسد المرأة، وترويج النزعة الاستهلاكية، وبشر الدهاية السياسية.

وفي الجانب الآخر من هذه المعادلة، يمكن الحديث عن سلسلة من الموارث والأولويات التي تضمن استمرارية اللغة كأداة في حمل القيمة، ونقلها، فانشرفيه أو الثقافة الترفيفية» ضرورة متى كانت محطة استرخاء مؤقتة لإعادة إدراج المتلقي في النظام الثقافي، والقيمي الذي يميز المجتمع. وفي غياب القيمة، تصبح هذه الثقافة التي يبتها التفرهون وسيلة هروب من الواقع، وأداة حجب للمتلقى عن منظومته الثقافية والقيمية. وفي هذا السياق، فإن حصر مبطرة «المال» والاحتكار، هي محتويات وسائل الإعلام أمر يعرض نفسه كلما زادت البرامج إحصاداً وعنماً، فالقيمة ثمك قوة جاذبة، والمرد هو الذي يرتقي بقوله وفعله إلى القيمة، فالقيمة ما يسمو بها صاحبها وتسمو هي به، وفي هذه العملية اعتياد، والمرد عادة ما يرغب في ما تعود عليه. إن المنطق الذي تبني عليه وسائل الإعلام معايير نجاح الثقافة الجماهيرية كالقول بأن الشباب يهوى لهو الحديث، والرقص، والعنف، والجس، وغيره، أمر يعثره الضعف، والبطلان، ذلك أن الفرد شاباً أو غيره يظل على ما نشأ عليه، فميل للشباب إلى هذه الثقافة مرده الأساسي التنشئة الإعلامية، وضعف المؤسسات لتربية والعائلية في تقديم نشئة من نوع آخر.

وشمل هذه الموارث إعطاء المنظومة الثقافية، والمعرفية عصاء أوسع في هذه لوسائل التي تستمر في إنتاج الثقافة الاستهلاكية الجماهيرية. هذه الثقافة التي تحاطب لغرائر، وتستغل معد المتلقي، أو انشغاله، أو جهله بالقيمة، والاثار السلسه «لدمره» التي منتج من اتباع الهوى، والشهوات المرتبطة بالجسد، والدة، والنحد نجوم هذه الثقافة نماذج في الحياة، والسلوك، فحضور أهل المعرفة والثقافة محدود في هذه الوسائل بالمقارنة.

وعلى الرغم من ^{٢٠} الأحداث السياسية وبخاصة في المنطقة العربية، والإسلامية تميرها «كثرة العنف» على النحو الذي تعرضه وسائل الإعلام، إلا أن الواقع نجذب بين الاستقرار والصراع أو بين الخير والشر، وليس أعنف مما تصوره هذه الوسائل المتأثرة بلجأ الفائل إن الإثارة والسلبية مصدر جذب لاهتمام المتلقي. ويدخل ضمن مسؤولية وسائل الإعلام، الرقي بالمتلقي، والوصول إلى المرشد من الرقي في العلافه مع القيمة وممارستها.

إن عيب اللسان والإعلام يتطلب إصلاح الكلام، واستعادة ما يكاد يعلت من واقع اللغة، أي بنيتها القيمية، والنحوية، فالكلام «مسؤولية» وخبره ما قل ودل، ويقع صاحبه، وعيره، ويتأني ذلك بالانطلاق من القيمة، والاندفاع نحو الأفضل، فلفرد «العرف» دور، وللمؤسسة التربوية مهام، وللأسرة وظائف، ووسائل الإعلام مسؤوليات أكبر كونها تحس قطاعات واسعة من المجتمع، في زمن تسوده الثقافة الترفيهية والاستهلاكية.

الفصل الثاني

في مخاطر فقدان العلاقة العضوية بين المجتمعات العربية ولغتها

محمود النوادي (*)

أولاً: اللغة ظاهرة اجتماعية

إن محاولة الفهم العلمي والموضوعي اليوم لوضع اللغة العربية في الوطن العربي يصعب أن تتم بدون رؤية علم الاجتماع إلى ظاهرة اللغة^(١). فمن ناحية، إن اللغة عند علماء الاجتماع هي ظاهرة اجتماعية في الصميم، أي أن اللغة لا يمكن أن توجد وتستمر في الحياة بدون وجود فردين على الأقل يعرفان ويتكلمان تلك اللغة. ومن ناحية ثانية، يتعذر وجود حقيقي ذو معنى لمجموعات بشرية، صغيرة أو كبيرة، بدون رباط لغوي ييسر التواصل والتفاعل الاجتماعي، والتضامن والتماسك بين أفرادها وفئاتها المختلفة^(٢). وهكذا، فاللغة المشتركة بين الأفراد والمجموعات والتماسك هي الأساس القوي للتبلور الفعلي للتقارب، والشعور الجماعي والوحدة بينهم. ويصدق هذا كثيراً على حال مجتمعات الوطن العربي منذ أن أصبحت اللغة العربية،

(*) أستاذ في قسم علم الاجتماع - جامعة تونس.

(١) علي عبد الواحد وافي، علم اللغة (القاهرة: دار تحفة مصر للطبع والنشر، [د.ت.])، ومحمدي ريدان، الفلسفة النظرية والألفاظ العربية، [ترجمتها وعلق عليها مراد كامل] (القاهرة: دار الهلال، [١٩٦٩]).

(٢) Jean-François Derricq, dir., *Le Langage* (Ann Arbor, [s. l.]; London: Penguin Books, 1981); (٢)

Jacques Leclerc, *Langue et société* (Laval: Minerva, 1986); Peter Trudgill, *Sociolinguistics* (London: Penguin Books, 1981), and Eugene Linden, *Apes, Men, and Language* (Harmondsworth, Middlesex, England; New York: Penguin, 1981).

بعد المنوحات الإسلامية، قاسماً مشتركاً بارزاً، لسكان منطقته ما بين الخليج والمحيط. فالتضامن القوي منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً بين شعوب العالم العربي أدب وتؤدي فيه لغة الضاد دوراً مركزياً^(٣).

ثانياً: دور المجتمع في تقدم اللغة وتأخرها

على مستوى آخر، فاللغة مادة اجتماعية، بمعنى أنها تخطر وتنمو وتتهص ونراجع وتتخلف وتندثر وفقاً للتعامل الإيجابي أو السلبي الذي تلقاه من مجتمعها. فمن جهة، تصبح اللغة كائناً حياً نابضاً بالحركة والفتوة والتطور، إذا ما شرف أهلها بالاستعمال الكامل لها في كل قطاعات المجتمع. ومن جهة ثانية، يفقد اللغة حيائها العادية وتتخلص حركتها، فتتخلف ويزداد الشعور بغربتها بين أهلها إذا هُش استعمالها في مجتمعها.

ومن ثم، فاللغة هي كائن اجتماعي بالطبع^(٤)، أي أن تقدمها وتأخرها يتوقفان في المقام الأول على مدى استعمالها في المجتمع. فهي من ناحية، تنمو وتتطور وتبلغ أوج نضجها وعنفوانها إذا لم يقصها المجتمع من الاستعمال في أي من قطاعاته وأنشطته. وهي من ناحية أخرى، تتعطّل في مسيرة نموها وتطورها ونضجها إذا وقع إقصاؤها جزئياً من الاستعمال في المجتمع. وهي في حالة ثالثة، تتعرض إلى الموت الفعلي إذا حرّمها المجتمع بالكامل من دنيا الاستعمال.

إن هذا الطرح السوسبولوجي للغة ككائن اجتماعي حتى لا يقبل مطلقاً، الأذويل التي تدعي بأن هناك لغات متقدمة بالطبع، وأخرى متأخرة بالطبع. فهذه مزاعم جاهلة بالطبيعة الاجتماعية للغات. فهي إذن باطلة من الأساس لأنها لا تستند على علم ومعرفة بطبيعة الأشياء. وإنما هي متأخرة في تلك الأقاويل بقصور في النظر وفقدان لروح الموضوعية والسقوط في فخّ الرؤى الإمبريالية والاستعمارية والمصرية في مسألة اللغات والثقافات في عالم اليوم^(٥).

(٣) انظر محمد هاني الجابري، مسألة الهوية العربية والإسلام. والقريب، سلسلة التعمق القومية، ٢٧. قضايا الفكر العربي، ٣، ط ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧)، ومحمود الخولدي، «مدوّنة التعريب في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية»، مجلة العلوم الاجتماعية، السنة ١١، العدد ٣ (أيلول/سبتمبر ١٩٨٢)، ص ٢٢٧ - ٢٤٣.

(٤) جرجي زيدان، اللغة العربية كائن حي (القاهرة: دار الهلال، ١٩٨٨).

(٥) انظر: عبد الكريم غلاب، وهنات الفرنكفونية في علاقتها بمسألة التعريب والهجنة (الدار البيضاء: مشروبات المجلس القومي للثقافة العربية، ١٩٩٩)، David Crystal, *English as a Global Language*, 2nd ed. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 2003), and Louis - Jean Calvet, *La Guerre des langues et les politiques linguistiques, langages et sociétés* (Paris: Payot, 1987).

ثالثاً: تجربة اللغة العربية في ميزان علم الاجتماع

بما لا شك فيه أن تصورنا السوسيولوجي للغة ينطبق على تجربة النخبة العربية في الماضي والحاضر. أي أن مسيرة هذه اللغة إيجاباً وسلباً تأثرت وتتأثر بسوعية محيطها الاجتماعي، فهي مرحلة ماضية كانت لغة الضاد هي لغة الاستعمال في كل القطاعات في المجتمعات العربية الإسلامية في عصر أوج نهضة الحضارة العربية الإسلامية. وبحكم الطبيعة الاجتماعية للغة، فقد تقدمت حتماً اللغة العربية وثقافتها بحيث أصبحت ذات اهتمام عالمي في الشرق والغرب وبخاصة في المجالات المعرفية والعلمية.

وفي المرحلة المعاصرة نشاهد أيضاً تأثير اللغة العربية، كمادة اجتماعية، بمحيطها الاجتماعي في تطورها وفي تراجعها. فلا يخفى في العصر الحديث أن قدرة اللغة العربية على الاستعمال في العلوم والمعارف المعاصرة قد وقع اكتسافاً من مبدرة وقرار إعطاء لغة الضاد الفرصة لذلك في بعض المجتمعات العربية. بينما حرمت اللغة العربية من تلك الفرصة الاجتماعية في بعض المجتمعات العربية الأخرى. إن سوريا والعراق معروفان بنجاحهما في تعريب العلوم والمعارف الحديثة، الأمر الذي مكّن اللغة العربية من القدرة العالية على تدريس الطب والتخصصات العلمية الأخرى الدقيقة التقنيات. ويؤكد هذا مصداقية مفروقتنا بأن اللغة كائن اجتماعي حين يسمو وينسج ويتقدم إذا لم يحرم مطلقاً من التفاعل الكامل مع كل أوجه حياة مجتمعه^(٦).

وفي المقابل فشلت مجتمعات عربية أخرى في إعطاء الفرصة الاجتماعية للغة العربية في تدريس العلوم ابتداءً حتى من مستوى التعليم الثانوي، كما هو الأمر في النظام التعليمي التونسي الراهن. وهكذا فرض الإقصاء والتأخر على لغة الضاد في ميادين العلوم والمعارف الحديثة الدقيقة في المجتمع التونسي المستقل مد ما يفار من نصف قرن (١٩٥٦).

إن الدرس واضح للعيان لكل ذي بصيرة من هذه الملاحظات الأساسية لعلم الاجتماع حول اللغة. إذ إن تقدم اللغة العربية وامتلاكها لمصبة العلوم والمعارف الحديثة وآخر صيحات التكنولوجيات وتقنيات الحواسيب والإنترنت هي أمور ممكنة بلعابه إذا نظرت مجتمعات الوطن العربي إلى لغتها العربية ككائن اجتماعي بالطمع، سمو قدراته وتنظروا وتتقدم وتبلغ أوج نهجها انطلاقاً من استعمالها الكامل في كل

(٦) عاتقته عبد الرحمن (ابن الشاطي)، لغتنا والحياة (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١).

أوجه حياة تلك المجتمعات، بما فيها ميادين العلم والمعرفة والتفنية والمعلوماتية الحديثة. ومعاراة أخرى، تأخر اللغة العربية في تلك الميادين لا يعود، في رؤية عدم «الاجتماع» إلى طبيعة اللغة العربية نفسها، وإنما يرجع الأمر بكل وضوح إلى نقص لغة الضاد كثيراً أو قليلاً من القيام بدورها الكامل كلغة وطنية في تسيير كافة شؤون المجتمعات العربية المعاصرة^(٧).

إن تطبيع العرب في القرن الحادي والعشرين لعلاقتهم مع اللغة العربية هو انسياب الطبيعي لكي تصبح لغة الضاد لغة العصر والحداثة. وهذا طريق واضح المعالم لا لبس فيه بالنسبة لجمعية تقدم اللغة العربية. إذ إن اللغة، كما قلنا، هي كائن اجتماعي يستمد حياته ونموه ونضجه الكامل من ظروف وعوامل مجتمعه الإيجابية. ويتمثل بكل بساطة هذا الطريق الطبيعي لصالح تقدم اللغة العربية في الاستعمال الكامل والشامل للغة العربية في كل صغيرة وكبيرة في حياة المجتمعات العربية.

وبناء على منظور علم الاجتماع للعلاقة العضوية التي يجب أن توجد بين المجتمع ولغته، نحاول الآن تقديم وصف وتحليل لوضع اللغة العربية في مجتمعات الوطن العربي منذ الثلث الأخير من القرن الماضي. ويجوز القول بأنه وضع يسوده الإغتراب وفقدان العلاقة العضوية بين أغلبية المجتمعات العربية ولغتهم الوطنية (اللغة العربية).

رابعاً: الوجه الآخر للأمن الثقافي العربي

ينطلق تحليلنا لوضع اللغة العربية في الوطن العربي من ملاحظتين أساسيتين:

الأولى: على الرغم من الاعتراف السائد في الوطن العربي بعد استقلال شعوبه بأن الأنظمة التعليمية العربية الحديثة في المشرق والمغرب العربيين تدرّس وتستعمل اللغة العربية الفصحى على كل المستويات التعليمية (الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعية)، فإن حصيللة شهادة هذه الأنظمة التربوية المنعكسة في النهاية في الكوادر الدعوي للطلال والطلالة الجامعيين اليوم تفيد أنهم على العموم أميون بالمعنى الجديد لكلمة الأمية، أي أنهم غير قادرين لا على الكتابة ولا على التحدث السليم والسهل والمتسلسل بالفصحى. وهم بالتالي جاهلون أساساً بكثير من المفردات الدعوية والتراكيب التعبيرية والقواعد الصرفية والنحوية بما في ذلك السيط منها أحياناً^(٨).

(٧) وافي، علم اللغة، ص ٢٥٧ - ٢٦٠.

(٨) انظر أمين ناصر الدين، «مقائيق العربية» (بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٦)، ومصطفى جواد، في التراث الدعوي (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٨).

وبعبارة أخرى، فإن تفشي تدهور مستوى الفصحى بين المتعلمين العرب اليوم يطرح ما يمكن أن نسميه قضية «الأمن اللغوي» في الوطن العربي أو «الوجه الآخر للأمن الثقافي العربي».

الثانية: هناك اعتقاد واسع أنه في فترة ما بعد الاستقلال أصبح للطفل والطلد والأسناد والمواطن العربي بصفة عامة احتكاك أكبر مع اللغة العربية الفصحى ومع ذلك، فإنه من جهة، لا يزال يلاحظ - لا على مستوى نخوي فقط بل على مستوى جماهيري - الرعية والكالب في العديد من مجتمعات الوطن العربي على تعلم واستعمال اللغات الأجنبية. ومن جهة ثانية، فإنه يغلب اليوم على الفرد العربي المتعلم في لشرق والمغرب العربيين الشعور بالاستحياء والرهبة، والاحراية الاجتماعية والتوتر النفسي عند دعوته للتحدث بالفصحى. فتدهور مستوى الفصحى بين المتعلمين العرب له، إذاً، بين الجامعين مؤشرات الموضوعية وأعراضه النفسية. ومن هنا جاءت مشروعية طرح قضية «الأمن اللغوي» في العالم العربي، كما تثار أخيراً مسألة الأمن العدائي. وبعبارة أخرى، هل أن مستوى الإلمام بالفصحى اليوم في العالم العربي مستوى مشرف أم أنه مستوى ضعيف يكاد يهدد وجود الفصحى كلفة في حد ذاتها، وبالتالي يهدد مسألة ما نسميه عا بالأمن اللغوي الذي هو جزء لا يتجزأ من الأمن الثقافي العربي؟ ونظراً لأن اللغة هي أم الرموز الثقافية/المنظومة الثقافية (الفكر، المعرفة / العلم، العقيدة، القوانين، الأساطير، القيم والمعايير الثقافية) في المجتمع، فإن ما يهدد اللغة العربية الفصحى اليوم في مجتمعات الوطن العربي ذر انعكاسات خطيرة على تلك المجتمعات. ويأتي في طلبتها الخطر المحدق بالهوية الثقافية العربية ذاتها لتلك الشعوب^(٩).

خامساً: الصمت عن الأمن اللغوي

إن ما سنركز عليه في هذه الدراسة هو من ناحية، طرح مؤشرات قضية ندب وضعية الأمن اللغوي في الوطن العربي، ومن ناحية أخرى، كيفية وإمكانية تأمين «مستوى لغوي فصيح» مقبول لأغلبية المتعلمين العرب. ولقد كثر الحديث وتعددت الندوات في العالم العربي حول «الأمن الثقافي» من دون أن نكون هناك إشارات واضحة في تقارير لجان الندوات إلى حالة انتشار تدهور الإلمام باللسان العربي الفصحى بين أساء الأمة العربية المتعلمين. وهكذا تنهي اللجان مداولاتها وتصدر قراراتها حول

(٩) انظر - محمود الدواوي، الصلخف الآخر: حولة أزمة الهويات الثقافية في الوطن العربي والعالم الثالث

(نوس، الأطلية للنشر، ٢٠٠٢)، وأخبار الأمت (٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤)، ص ٤.

أهمية تأمين الأمن الثقافي في الوطن العربي، وكأن قضية ازدياد تدهور مستوى الفصحى بين المتعلمين العرب لا وجود لها. وبالتالي فلا حاجة إلى التأكيد أو حتى ذكر أهمية الأمن اللغوي في أي مشروع ثقافي متكامل يحفظ بحق للامة العربية أمها «الشعامي». اللغة هي أم المنظومة الثقافية للمجتمع، كما أشرنا. وسوف يتضح من معطيات هذه الدراسة عن تدهور مستوى الفصحى في العالم العربي اليوم أن صمت مسؤولي الثقافة العربية عن الأمن اللغوي هو صمت أولاً غير مقبول وثانياً يحتاج في حد ذاته إلى دراسة خاصة لبيان أسبابه.

سادساً: مفهوم الأمية الجديدة

إن مفهوم «الأمية الجديدة» مفهوم حديث الاستعمال^(١٠). بدأ تداوله في المجتمعات الغربية المتقدمة وبخاصة في جامعاتها. وبعض جامعات هذه الدول مثل الولايات المتحدة الأمريكية وكندا قررت عدم قبول الطلاب والطالبات في برامجها وأقسامها إلا بعد نجاحهم في امتحانات لغوية (بالإنكليزية) تعدها المؤسسة الجامعية المعنية. بينما قامت جامعات أخرى بإعطاء دروس لغوية إنكليزية إضافية للطلاب والطالبات المقبولين بغية تحسين مستوى إنكليزيتهم للدراسة الجامعية. إن منطق مسؤولي هذه الجامعات في التركيز على أهمية المقدرة اللغوية قراءة وكتابة لدى الطالبات والطلاب الجامعيين لا يمكن أن يحفى على كل من يعرف العلاقة الوثيقة بين المقدرة اللغوية واكتساب المعرفة بكل أنواعها وفروعها. وقد أثبتت الدراسات الدعوية الحديثة مدى أهمية علاقة المهارات اللغوية، ليس في فهم المرء واستيعابه للمعرفة الإنسانية فحسب، وإنما أيضاً في تحديد نوعية عملية التفكير عند الإنسان^(١١).

سابعاً: ملامح الأمية الجديدة عند أساتذة الجامعات العربية

ولقياس درجة مدى انتشار الأمية الجديدة بين الطلبة العرب وأساتذتهم لا نذكر من التشكيير هنا بمعنى الأمية التقليدية (القديمة): وهي عدم القدرة على القراءة والكتابة. أما دلالة مفهوم الأمية الجديدة في هذه الدراسة، فتعني عندما أن المسنى «بالأمية العربي الجديد» هو ذلك المتعلم ذو المستوى العالي (كالطالب والأساتد الجامعي) من التعليم والثقافة، ومع ذلك فهو غير قادر لا على القراءة ولا على الكتابة

^(١٠) US News and World Report, no. 19 (May 1982), pp. 5-17.

^(١١) نايف حرمان، أخصوا على الدراسات اللغوية المعاصرة، عالم المعرفة ٩١ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٧٨)، من ٣١٦-٣١٧.

ولا على الحديث بطريقة سليمة باللغة العربية الفصحى التي كان له معها احتكاك منذ المرحلة الابتدائية التعليمية حتى للمستوى العالي الجامعي.

أما على مستوى هيئات التدريس بجامعتي فلسطين والملك سعود كمثالين، فقد سجده في العقدين الأخيرين من القرن الماضي الملاحظات التالية كمؤشرات مبدئية ذات دلالة واضحة على وجود ظاهرة الأمية الجديدة بين أساتذة ومدرسي هاتين الجامعات.

١ - ليس هناك إلا قلة من أعضاء هيئة التدريس (بما في ذلك من يدرس اللغة العربية نفسها) التي يبدو أنها لا تزال تحاول التدريس بالفصحى. فوسيلة التدريس الشائعة في قاعات تدريس هاتين الجامعات العربيتين هي العامية المتنوعة من المشرق والمغرب العربيين. وجامعات الجزائر ومجتمعات الخليج كانت ولا تزال هي أكثر الجامعات العربية عرضة لموجة اللهجات العربية الكاسحة لقاعات التدريس وذلك لشدة حاجة هذه الجامعات لاستجلاب هيئات التدريس من مجتمعات عربية مختلفة كمصر والسودان والأردن والعراق وسوريا وتونس والمغرب.

واستعمال العاميات (وليس عامية واحدة) في التدريس أصبح سمة لغوية من سمات هذه الجامعات. أما استعمال الفصحى فهو بعيد كل البعد عن أن يكون صفة من صفات الجامعات نفسها. وفي جو تعدد وطفان اللهجات العامية العربية هذه في قلب المؤسسة الجامعية، هل يبقى من معنى للفائزين بأن للجامعة دوراً مهماً في تعريب و«تفصيح» لغة المجتمع العربي المعاصر؟ أليس أكثر دقة وواقعية القول أن الجامعات العربية وبخاصة الجزائرية والخليجية، تساهم في الأخرى في تعزيز مركز العاميات على حساب الفصحى في هذه المجتمعات العربية؟

٢ - إن الأمية الجديدة عند أعضاء هيئات التدريس العربية في جامعتي فلسطين والملك سعود وهيرهما من معظم الجامعات العربية تنتشر ملامحها أيضاً خارج قاعات التدريس. فمن البادر مثلاً أن يتحدث عضو هيئة التدريس، سواء أكان في ندوة علمية، أو في اجتماع قسم أو في مجلس مناقشة رسالة أو أطروحة طلابية ويتقيد في حديثه باللسان العربي الفصحى، وهو إذا لجأ إلى قراءة كلمته أو محاضرته بالفصحى المكتوبة غير المشكولة، فيندر أن لا يلحن حتى إذا لاذ إلى حيلة الوقوف على السكون بمراراً ومراراً ليسلم لسانه ظاهرياً. فالأمر هنا يبين أن ظاهرة الأمية الجديدة بالعرف الوارد في هذه الدراسة شائعة فعلاً بين أعضاء هيئات التدريس بالجامعات العربية. لكن قد يعتد البعض أن اللجوء إلى اللهجات العامية من طرف هؤلاء في قاعات التدريس لا يمكن أن يكون في حد ذاته دليلاً قاطعاً على جهل المدرسين والأساتذة بالفصحى. فقد يحجم عضو هيئة التدريس عن استعمال الفصحى، على الرغم من

إلزامه بها، نظراً لأن المعايير اللغوية الاجتماعية لا تسمح له بذلك. فهو قد يوصم بالانحراف إذا استعمل الفصحى، وذلك حتى داخل قاعات التدريس الجامعية^(١٢). ومع ذلك يبقى في أبلتنا وسائل أخرى يمكن بواسطتها اختبار مقدرة الشخص في معرفته للفصحى. فمقدرة الكتابة والقراءة للنصوص غير المشكولة هي أدوات تساعد فعلاً على التحقق من مدى قدرة عضو هيئة التدريس على استعمال الفصحى ك لغة تدريس. وقد ذكرنا من قبل أن السلوك اللغوي القرائي والكتابي ذو علاقة ارتباط قوية مع السلوك اللغوي الكلامي، وهذه خاصية مميزة للغة العربية الفصحى. فمن يقرأ مثلاً النص العربي غير المشكول بطريقة سليمة يكن قادراً أساساً على التحدث بالعربية بصورة صحيحة نحواً وصرفاً، فكثرة اللحن في القراءة، كما سنرى، عند أعضاء هيئة التدريس هو مؤشر كاف على ضعفهم (الامية الجديدة) في الفصحى وعليه فتعاشي التدريس بها لا يقتصر على الخوف من وضعهم بالانحراف اللغوي الاجتماعي وإنما يرجع ذلك أيضاً إلى عدم الإلمام السليم باللغة العربية الفصحى.

ثامناً: ملامح الأمية الجديدة عند الطلبة العرب

ولاختبار مدى إلمام الطلبة والطالبات باللغة العربية الفصحى لجأنا - في مناسبات عديدة خاصة أثناء نقاش أفكار المطالعات الأسبوعية مع الطلبة - إلى دعوتهم بطريقة عشوائية قراءة فقرة أو صفحة غير مشكولة من كتب أو مقتطفات المادة التي ندرسها لهم، علماً أن عملية القراءة هي أسهل من عملية التحدث باللغة نفسها، لأن عملية التحدث تتطلب مجهوداً أكبر يشبه العرق من حيث الصعوبة بين عملية فهم اللغة وعملية التحدث بها. وكانت تجربتنا هذه على الرغم من بساطتها قد أكدت لنا بطريقة متواصلة أن الطلبة لا يستطيعون فعلاً قراءة نص عربي فصيح (غير مشكول) بدون الأخطاء المتكررة نحواً وصرفاً وحتى في نطق أواسط الكلمات. وعندما نقترح على الطلبة التحدث بالفصحى أثناء المناقشة والتدريس للمواد المدرسية يقابل اقتراحنا غالباً بالتهكم والامتناع من الجميع. وبدا لنا أن سلوكهم كان يمكن أن يكون أفضل (أي أقل مسخرية) لو إتنا طلبنا منهم التحدث بالإنكليزية أو الفرنسية في صورة معرفتهم لإحدى هاتين اللغتين أو لكليهما.

وفي ما يخص ضعف الطلبة السعوديين في الإلمام بالفصحى كتابة وقراءة

(١٢) لم يصل الطلبة حتى الآن إلى الاحتجاج الواضح على الأساليب التي يستعمل معهم الفصحى في المحاضرات. لكن استعمال العاميات بـسبة لا تقل عن ٨٠ في المئة لدى الأساتذة للتدريس لا يستبعد أن يؤدي مع قريب إلى احتجاجات أكثر من طرف الطلبة ضد استعمال الفصحى للتعاشي مع التقاليد الجامعية الجديدة التي تفضل العاميات العربية.

وحديثاً، فالأمر يبدو أنه متفق عليه من لدن كل من كان له احتكاك بهم وكان له معرفة بالفصحى، تسمح له بقياس مقدرة الطالب والطالبة في لغة الصاد. فقد كان طرح مجلة الإمامة السعودية لقضية تدهور مستوى الفصحى وما تبعه في أعداد المجلة اللاحقة نفسها، برهاناً دامناً لكل من لا تزال عالقة في قلبه ذرة واحدة من الشك بخصوص هذا الموضوع^(١٣).

ولذكور محمود كامل الناقة الذي قام بأبحاث لغوية في جامعة أم القرى بمكة قد أدل لمجلة الإمامة بملاحظات كاشفة حول جهل الطلبة بلغة الصاد. يرى أن علاقات ضعف الطالب في الفصحى تتمثل في الآتي: «الضعف الواضح في مهارة الكلام والحديث أو ما نسميه اصطلاحاً التعبير الشفوي... بل يصل الأمر في كثير من الأحيان إلى إحجامه عن الحديث لعدم قدرته على ذلك، والضعف في مهارة القراءة. والشكوى صارحة في عدم قدرة طلابنا، حتى في التعليم الجامعي، على قراءة فقرة قراءة صحيحة وفهمها فهماً واعياً... أضف إلى ذلك الضعف في القراءة الجهرية حيث نجد اللعنة والتردد والخشخشة والنبرة الناعمة والصراخ المزعج... وبعد أن كان الكتاب خير رفيق وجليس وأنيس أصبح في حياة طلبتنا شيئاً مكروهاً غير مرغوب، فهل هناك ضعف أكثر من ذلك في اللغة العربية؟»

أما رئيس قسم اللغة العربية في جامعة الملك سعود الدكتور سليمان السويح فقد سرد لنفس المجلة بعض الأمثلة التي تصرح بمدى تدهور إلمام الطالب بالفصحى. «وخذ أيها القارئ العزيز أمثلة قليلة لمستوى الكثير من الطلاب في جامعاتنا في اللغة العربية: لا يفرق كثير من الطلاب بين الفعل والاسم، فلو طلب من أحدهم إعراب جملة «السور عال»، مثلاً، فأجب نمسك حتى لا نماجئك إجابته بأن «السور» فعل مضارع وإذا أوجعتك إجابته إيجاعاً شديداً لكك كضمت ميمك، وطلبت منه تمام الإعراب، فمن الراجح أن يضيف قائلاً «مرفوع بالمتحة»... وفي مثل هذا المفعول به لا يدري مصوب هو أم مرفوع، وكذلك الماعل... وهو قد سمع بحروف الجر لكنه لا يمر ما بعدها بل يصبه أو يرفعه، أما الجر بالإضافة فلا يعلمه في رأيه إلا الله أو الراسخون في العلم^(١٤).

وهل يمكن تعميم تدهور مستوى الفصحى هذا على بقية الجامعات العربية؟ الإجابة على مثل هذا السؤال لا يمكن حسمها بسهولة. لكن بالرغم من عدم وجود دراسات رسمية معروفة حول وضعية الفصحى في كل الجامعات العربية عند الطلبة

(١٣) انظر: «لغتنا الجملة» لثاقم نهد جيلة ٢٠٩، الإمامة، الأعداد ٧٤١ - ٧٤٣ (١٩٨٣)، ص ٣ - ٩.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٣٥٤ - ٥٥.

والأساتذة، فإن ملاحظتنا الشخصية وملاحظات الآخرين للتكوين اللغوي المصحح للطالب العربي بصعوبة عامة، تسمح بالقول إن مستوى الطالب العربي في الفصحى مستوى لا يتجاوز المقبول في أحسن الأحوال. وهاتان الصورتان للامية الجديدة على المستوى الجامعي عند كل من الأستاذ والطالب في الجامعات العربية اليوم تطرحان تساؤلات أوسع وأشمل على الأنشطة التربوية التعليمية في الوطن العربي كيف هو حال تعلم المصحح واستعمالها في المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية في هذه الأقطار؟

١ - هل أن المصحح تدرس بالعامية كقواعد يتم حفظها من دون استعمالها بحراً وصرفاً وتعبيراً وحديثاً من طرف التلاميذ ومعلميهم وأساتذتهم حتى في قاعات المدارس؟

٢ - أم هل أنها تدرس فعلاً بكل جدية وبكل التزام من طرف هيئات تدريس يتفنون هم أنفسهم هذه اللغة ويحبون استعمالها على الأقل في قاعات التدريس ودروب المدارس؟

إن حالة المصحح المتردية على المستوى الجامعي، كما رأينا، لا يمكن تفسيرها بما جاء في السؤال الثاني. إذ لو كان الأمر كذلك لاستطاع تلامذة وطلبة الإعدادي والثانوي والعمالي أن يقرأوا قراءة صحيحة وأن يكتبوا كتابة سليمة وأن يتحدثوا بالمصحح حديثاً مقبول المستوى تعبيراً وقواعد. ومن هنا فإزمة المصحح كما وصفت هنا لا بُدَّ أن تكون لها علاقة قوية مع ما جاء في التساؤل الأول أعلاه. ومهما اختلفت أسباب تدهور مستوى المصحح في الجامعات العربية، فإن هذا الواقع الدعوي مؤشر ذو دلالة بالغة على أن الأمن اللغوي للمجتمعات العربية مهدد فعلاً، فإذا كانت حالة المصحح قد بلغت تلك الدرجة من التلويح في المؤسسات الجامعية فما بال حالها بين سواد المتعلمين الأقل تعليماً وثقافة؟

تاسعاً: تقسيم الأدوار اللغوية بين الفصحى والعامية

إن أي تحليل لوضعية الفصحى في شفي الوطن العربي لا يمكن إغناؤه حقه بدون الأخذ بالاعتبار وجود واستعمال اللهجات العامية العربية التي تستعمل كوسيلة تخاطب عمومية وطبيعية جماهيرية^(١٥).

أما المصحح فلا يلجأ إلى استعمالها في الحديث إلا في بعض المناسبات

(١٥) يوسف حر الدين، «الخطاب الإعلامي بين العامية والمجتمعة»، الفصل (تشرين الأول/ أكتوبر -

تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٤)، ص ١٤ - ٢٧

الرسمية المواتية مثل الخطب النعيمية والمواضيع الأكاديمية... إلا أنها تعوض ما تأخذ منها العامة على المستوى الشموي وذلك بسيطرتها الكاملة على ميداني الكتابة والقراءة. فمواعد المصحى صرفاً ونحواً وتعبيراً هي المعترف بها رسمياً في المجتمعات العربية. ومن ذلك يتضح أن العامة والمصحى ذات أدوار لغوية متكاملة في مجتمعات العالم العربي. فللمصحى دور القراءة والكتابة وللغامة دور الحدث اليومي. ولعل هذه الثنائية اللغوية عامل مهم، لا بُدَّ من الاستعانة به، في تفسير ندرة استعمال المصحى حتى من طرف الذين يتفنون الحديث بها في الاحتكاكات الاجتماعية اليومية، إذ إن اللجوء لاستعمالها يعد خرقاً للمعايير الاجتماعية اللغوية المستعملة في تيارات الحياة الاجتماعية العامة في المجتمعات العربية. ويرجع ذلك من منظور تحليل إلى الفروق الكبيرة الموجودة بين المصحى والعامة العربية بسبب أن النص العربي القرآني قد ثبت من جهة، نسق بنية اللغة العربية الفصحى وقواعدها، وأن اللهجات العربية محكوم عليها من جهة أخرى، بالتعبير المستمر عبر الرموز والمكان اللذين تخضع لهما طبيعة اللغات واللهجات.

فالمستعمل للمصحى في الظروف والأماكن العامة ينظر إليه اجتماعياً كمعروف لغوي. ومن ثم فالمراقب التي تقع أمام الاستعمال الواسع والسليم للمصحى لا تنحصر فقط في عامل ضعف الأغلبية العربية المتعلمة في الإلمام بلغة الضاد (لامية جديدة) تعبيراً وقواعد وقراءة وحديثاً، فالعوامل المتعددة التي انتهت عبر العصور بإفراز الثنائية اللغوية العربية قد أحدثت واقعاً لغوياً عربياً جديداً لم تكن انعكاساته السلبية على مكانة واستعمال اللسان العربي المصحى متساوية لا عبر فترات التاريخ العربي منذ الفتوحات الإسلامية الأولى ولا داخل المجتمعات العربية المعاصرة نفسها، فترفع العامة العربية للمصحى دورها الحيوي - دور التفاعل اليومي في نبض الحياة حديثاً وكلاماً - جعل المصحى لغة صامتة يقتصر دورها أساساً على الكتابة والقراءة. إن مصير اللغات المكتوبة والمقروءة فقط مصير معروف جداً. فمصير اللغة اللاتينية لا بُدَّ أن يعتبر به أولو الألباب. فاللغة كائن حي، ولا يمكن أن تكون لها حياة طبيعية دالة ومنفاعلة من دون أن يستعملها مجتمعها بمفوية هي صلب كل القطاعات الاجتماعية. حديثاً وكتابة وقراءة. فإذا كانت ممارسة الحديث والكلام بأي لغة هي عصب حياتها، فإنه يتضح مدى ما تحسره اللغة العربية المصحى من نبض الحياة الاجتماعية عندما تزيد العامة العربية في سلبها منها هذا الدور الحيوي الذي أصبح استرجاعه يعارض واقعاً اجتماعياً لغوياً عربياً على طول وعرض الوطن العربي. وهكذا والنجاح في تمكين أفراد المجتمعات العربية من الاستعمال اليومي للسان العربي المصحى يعدّ بكل المقاييس أمراً حيوياً في الظروف الراهنة.

عاشراً: مكانة اللغة العربية الفصحى في الوطن العربي

١ - في المغرب العربي

نعمي هنا بمكانة الفصحى ما تتمتع به هذه اللغة نفسياً واجتماعياً من تقدير أو من تحقير عند أهل المشرق والمغرب العربيين. أما في المغرب العربي اليوم فمكانة الفصحى اجتماعياً وشعبياً في الهرم اللغوي الثلاثي (العامة والفصحى والعربية) هي الثانية بعد لغة المستعمر الفرنسية. وعلى العموم لا تزال العربية تقترون من جهة، في كل من تونس والمغرب والجزائر في أدهان الساس، بالتقدم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والعلمي وبالشعور النفسي بالحدثة. وباحتصار فالتوسيون والمغاربة والجزائريون المتعلمون، وأغليبتهم من ذوي التكوين التعليمي المزدوج اللغة والثقافة، ما فتئوا ينظرون إلى اللغة الفرنسية على أنها لغة التطور والحدثة. ومن جهة ثانية، فإن صورة الفصحى عندهم هي صورة لغة الدين والشعر والتقاليد والثقافة العربية الإسلامية الأصيلة. وبعبارة أخرى، فهي بعيدة عن أن تعتبر بجديّة وحاشية لغة يمكن أن تصبح فعلاً لغة العصر الحديث. فهناك إذاً انهماك نفسي وبخاصة عند مثقفي المغرب العربي ذوي التكوين الفرنسي لفترة ما قبل وما بعد الاستقلال^(١٦). لكن صورة الفصحى - على الرغم من برامج التعريب في هذه الأقطار - يبدو أنها لا تزال بعيدة جداً عن أن تنافس الصورة الإيجابية التي تتمتع بها الفرنسية: لغة المستعمر القديم.

ولعل أحسن مثال على الصورة الإيجابية للغة الفرنسية في المغرب العربي بعد الاستقلال هو «ظاهرة الفرنكواراب الأنثوية». وحسب ملاحظتنا فإن المرأة العربية المغربية المتعلمة (المتحرمة أو المفرنسة) تميل إلى خلط عاميتها العربية بكلمات وعبارات فرنسية أكثر من ريفيتها المغربي المتعلم، وذلك لأن استعمال الفرنسية كدعة لحدثة والعصرية أصبح أدلة رمزية بواسطتها تحاول المرأة التونسية والمغربية والجزائرية المتعلمة أن تعيش (ولو خيالياً) ملامح روح الحدثة التي تحرمها منها مجموعة من التقاليد الاجتماعية في المغرب العربي^(١٧). ومن ملامح استمرارية بسط الفرنسية لسلطتها اجتماعياً ونفسياً خصوصاً على نخبة هذه المجتمعات الثلاثة، فإن عدد هاماً من معكري المغرب العربي البارزين اليوم لا يزالون يكتبون بالعربية على الرغم من إلمام بعضهم بالفصحى إلماماً كلياً وأحياناً ممتازاً يسمح لهم بالكتابة فعلاً باللسان

(١٦) غلاب، رحلات الفرنكفونية في حلقها بمسألة التعريب والهيمنة.

(١٧) عمود الفولادي، «الفرنكواراب الأنثوية في البلاد العربية»، دراسات عربية، المجلد ٣ - ٤.

(كانون الثاني/يناير - شاط/فبراير ١٩٩٦)، من ٨١ - ٩١.

العربي المصباح. فلغة الكتابة السائدة للمفكر المغربي المشهور عبد الله العروي هي الفرنسية، وكذلك الشأن عند بعض المفكرين التونسيين مثل هشام جعيط. أما الحرائر، فيبدو أن هناك محاولات أكبر في العلوم الاجتماعية مثلاً هي التأليف باللسان العربي المصباح. ويتفق هذا مع سياسة التعريب الأكثر حماسة والتزاماً في انظر الحرائر. فإذا كانت الفصحى ليست هي لغة العلوم الإنسانية والاجتماعية عموماً عند المتخصصين في هذه الميادين وبخاصة في كل من تونس والمغرب، فهي أقل استعمالاً بكثير من ذلك في التخصصات العلمية البحتة كالعلوم الطبيعية والطبية... إلخ^(١٨).

٢ - في المشرق العربي

أما مكانة المصباح في المشرق العربي من حيث التقدير أو التحقير معصياً واجتماعياً، فيبدو أنها تتمتع بمكانة أحسن من التي رأيناها في العربي العربي. ولعل هذا يرجع إلى عاملين متشابهين رئيسيين:

أ - إن الاستعمار الثقافي (الإنكليزي أو الفرنسي) لم يمس بعمق، كما هي الحال في المغرب العربي، الأسس الثقافية في المشرق العربي بما في ذلك الفصحى واللهجات العامية.

ب - إن استعمال اللغة العربية واقع اجتماعي منتشر ومتجذر في حياة الفرد والمؤسسات العامة في المجتمعات المشرقية العربية أكثر بكثير مما هو معمول به في المجتمعات المعاربية العربية. ولكن على الرغم من كل هذا فإن المشرقيين لا يبدو أنهم يتقنون قواعد اللغة العربية المصباحية إلا بحدود المنظر منهم. فاللهجاء شائع اليوم في استعمال الفصحى عندهم، وذلك حتى على مستوى أعلى نخبة ثقافية، ألا وهي أساتذة الجامعات وطلبتهم كما رأينا من قبل. فالتعريب الشامل في المشرق العربي لا يعني بالضرورة حسن معرفة استعمال الفصحى تعبيراً ونحواً وصرفاً وحديثاً. وهكذا يبدو أن مفهوم التعريب كأنه يعني في واقع الأمر مجرد استعمال كلمات عربية

(١٨) في تونس مثلاً بينما عزيت كل اللغات في التعليم الابتدائي بما في ذلك تدريس العلوم، لا أن التلاميذ أحسروا على الدراسة بالفرنسية (على الرغم من كل الانتكاسات اليناكسوجية والوطية التي يمكن أن يصرح لها التلميذ من جراء هذه الازدواجية اللغوية للباينة) في كل العلوم العصرية (كالرياضيات، العلوم الطبيعية...) هي مراحل ما بعد الإعدادي. انظر تازلي معروض أحمد، التعريب والقومية العربية في المغرب العربي، سلسلة الثقافة القومية؛ ٦ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦)، و Gilbert Grandguillaume, *Arabisation et politique linguistique au Maghreb*, préface d'André Miquel, coll. d'acier et d'aujourd'hui, 19 (Paris: Editions G.-P. Maisonneuve et Larose, 1983).

بحروف عربية من دون الاعتناء بمتطلبات إتقان الفصحى استعمالاً وكتابة وقراءة. وهكذا يبدو أن العامية قد انتفعت أكثر من عملية التعريب. ومن ثم تدهورت الفصحى على الرغم من غيذر حركة التعريب في هذه المجتمعات العربية المشرقية ولعل انتشار عدم إتقان لغة أجنبية عند عموم أهل المشرق العربي ساعد على دمج الفصحى بالعامية، وذلك لتشابه الإثنتين في كون الأولى هي الأم والثانية هي الفرع فأهمل التمييز بين الإثنتين (الفصحى والعامية) في كثير من المناسبات غير الرسمية بما في ذلك في التدريس بالجامعات وغيرها من المعاهد العليا^(١٩).

وهكذا أصبحت العاميات العربية النمط اللغوي المستعمل كوسيلة للتدريس في قاعات الجامعات العربية. لكن يظل المشرقيون المثقفون أكثر التحاماً وارتباطاً ومساهمة في إثراء الثقافة العربية. فبينما لا يزال عدد كبير من المغاربة المثقفين والمفكرين يكتبون باللسان الفرنسي، وهو ما يعرف بظاهرة الكتاب الفرنكوفونيين المغاربة (Les Ecrivains francophones maghrébins)، فإن هذه الظاهرة لا تكاد توجد بين مثقفي المشرق العربي وبخاصة بعد الاستقلال. فاللسان العربي الفصيح أو الميسر هو لغة الثقافة والكتب والمجلات والجرائد في المشرق العربي. ومن هنا فمساهمة المشاركة في دفع حركة الثقافة العربية العامة في العالم العربي لها حظوظ أكبر في أن تفسر قطاعات أكبر من فئات الشعوب العربية، إذ اللغة الوطنية هي المصدر الأول لتأصيل وتوطيد الثقافة في المجتمعات^(٢٠).

بينما كل ما ينشر في المغرب العربي بالفرنسية تظل تأثيراته، هل الرغم من جهود الترجمة، محدودة في المساهمة من جهة، في وثبة حركة الثقافة المحلية في مجتمعات المغرب العربي وفي الثقافة العربية في الوطن العربي على العموم. ومن جهة ثانية، إن ما ينشر بالفرنسية اليوم في كل من تونس والمغرب والجزائر لا يتماشى مع واقع استمرار ضعف مستوى الفرنسية عند الأجيال الجديدة التي تأثرت وتناثر، على الرغم من الشدائد في بعض الحالات، بحملات ومشاريع التعريب في هذه المجتمعات. وإن الاستمرار في الاتكال على الفرنسية عند مثقفي وعلماء المغرب

(١٩) عبد المومن القير، «اللغة والإعلام - علاقة الجوهري بالشكل والإطار»، الفصل (أب) أغسطس أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢، ص ١٤ - ٣١.

(٢٠) انظر: سعد بن هادي القحطاني، «التعريب ونظرية التخطيط اللغوي - دراسة تطبيقية من تعريب المصطلحات في السعودية (بيروت - مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢)؛ شوقي هبيب، «المصطلحات العلمية - إلى العربية»، المكتب، وجهات نظر، السنة ٦، العدد ٦٤ (أيار/مايو ٢٠٠٤)، ص ٤٤ - ٤٧، والترجمة في الوطن العربي - نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة - بحوث ومناقشات للتأليف المعكبة التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت - المركز، ٢٠٠٠).

لعربي يعارض مبدأ ديمقراطية المعرفة للجميع المنادى به في كل المجتمعات العصرية حديثاً. فمقدم استعمال اللغة العربية في المبادئ العلمية في بعض مجتمعات المغرب العربي على الخصوص لا يؤدي إلى ديمقراطية المعرفة العلمية بل إلى احتكارها من طرف النخبة الفرنسية أو المغربية لغوياً وثقافياً فقط. إن احتكار النخب للمعلومات انعدامية هو أحد أسباب التخلف الفكري والعلمي عند سواد فئات وطبقات المجتمعات العربية المعاصرة.

حادى عشر : حرية الفصحى لا تكاد تطرح

ليس من الواقعية أن ينتظر المرء وعياً شعبياً عاماً بقضية تدهور وضعية اللغة العربية الفصحى في الوطن العربي. وكيف يمكن ذلك والحال أن نسبة الأمية التقليدية بعضها (ناهيك بالأمية الجديدة) لا تزال سائدة في كثير من المجتمعات العربية؟ أما بالنسبة للمتعلمين، فمسألة تروى الفصحى لا تطرح بحماسة وجدبة من طرف أهليتهم اليوم. ولعل هذا الصمت يعود إلى بعض أو كل الأسباب التالية :

١ - الخلط في التصور (نتيجة لعامل تأثير التشابه) بين استعمال العامية والفصحى. وهو يشبه الخلط الذي أشربا إليه سابقاً بين مفهوم التعريب ومفهوم استعمال المصحى السليمة.

٢ - إن استعمال العامية في الحياة الاجتماعية كلسان تخاطب جماعي من جهة، واجهل الشائع بأوس اللسان العربي المصباح حتى بين نخبة المثقفين (من أساتذة وطلاب جامعات) من جهة أخرى، لا يشجع بأي حال من الأحوال على إثارة مسؤولية لقضية تدهور المصحى نحواً وصرفاً وتعبيراً وكتابة وقراءة وحديثاً في العالم العربي الحديث على العموم.

٣ - إن معرفة المصحى لا يضمن العيش الكريم كما هي الحال في العديد من مبدئين العمل في مجتمعات المغرب العربي. وهذا لا يعني أن ليس هناك من أشد ويلات هذه الأمة من لا يعتبر حالة الفصحى المتردية في المجتمعات العربية وحتى مؤسساتها الثقافية قضية لا يمكن الصمت عنها. لكن بداءات هذه الأقلية الواعية بأزمة المصحى في المشرق والمغرب العربيين لا ينبغي أن تنتظر منها أن تحدث تعبيراً ملموساً، ما لم تترجم هذه الاحتجاجات إلى تطبيقات فعلية على مستويات شعبية ومؤسسية. فالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مثلاً، لا يبدو أنها وعية مفهوم تدهور اللغة العربية الفصحى كما طرح في هذه الدراسة. فالمنظمة تعددت أسشطتها ومشاعغلها، لكن تجذير الفصحى السليمة في الوطن العربي بين المتعلمين ابتدء من مراحل تعليمهم الأولى لا يبدو أنه هم من هموم المنظمة فهذه الأخيرة قادرة

عل أن تؤثر عبر حملات التوعية في أزمة الفصحى في كل أنظمة التعليم بالعالم العربي. ولكن صمت المختصين والمهتمين بميادين الثقافة والتربية والعلوم عن قصة عرمة الفصحى السليمة في العالم العربي حتى في الجامعات العربية هو ظاهرة يحد ذاتها حرية بالدراسة^(٢١). وبالتالي فإن مفهوم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لـ «الأمن اللغوي» للوطن العربي يحتاج إلى أكثر من تساؤل. وعدد انصافا باتحاد الجامعات العربية في الرياض لمعرفة إذا كانت هناك دراسات أو إحصائيات عن مدى استعمال الفصحى في الجامعات العربية عبر الوطن العربي، اعترف المسؤولون الذين التفتوا بهم بأنهم يجهلون وجود مثل هذه الدراسة. وأن كل ما يعرفونه هو عقد ندوات ومؤتمرات تخص من قريب أو من بعيد قضية التعريب. وتوعى جميعها على العموم بإعطاء كل الإمكانيات لدفع حركة التعريب في كل الميادين^(٢٢). وعلى الرغم من العلاقة الظاهرة بين عمليتي تعريب المصطلحات والعبارات و«تفسيحها» بحراً وصرفاً وتعبيراً وحديثاً، فإنه بوجود العاميات العربية ذات الاستعمال الواسع أصبحت العلاقة بين التعريب والتفسيح علاقة غير طردية بالضرورة كما يتبادر إلى ذهن من ليس صحيحاً أنه كلما عربياً كلما تحسنت استعمالنا للفصحى السليمة. ونظراً لاستعمال العاميات العربية بنسبة عالية حتى في تدريس الفصحى نفسها فإن التعريب أصبح يعني أساساً تحسين وإثراء العاميات وليس تمكين الإنسان العربي المعرب بالضرورة من إلمام بالفصحى يجعله قادراً على استعمالها كتابة وقراءة وكلاماً بطريقة سهلة وسليمة.

ثاني عشر: الاتعكاسات الخطيرة لتدهور الفصحى

لقد حددنا في هذه الدراسة بعض المؤشرات لقياس تدهور مستوى الفصحى بين المتعلمين في الوطن العربي اليوم، وبالتالي الأخطار المحدقة بالأمن اللغوي للأمة العربية. فما هي، يا ترى، انعكاسات هذا الواقع اللغوي المتدنّي على موقف، مثلاً، الطلبة الجامعيين إزاء اللغة العربية الفصحى كلغة؟ ثم ما هي آثار هذا الموقف على المجتمعات العربية؟

إن الموقف العام الذي يصادفه الملاحظ لموقف الطالب والطالبة العربيين ذوي

(٢١) انظر حوار مع الدكتور خرمي مدير الإدارة الثقافية في اليونسكو العربي في الشرق الأوسط، ٤/ ١٩٨٣، ص ١٠. انظر أيضاً العدد الخاص لـ «المجلة العربية»، العدد ٢ (أيلول/سبتمبر ١٩٨٢) الذي تمّ ينطوي إلى قضية سلامة الفصحى في الجامعات العربية واقتصر الحديث على التعريب فقط.

(٢٢) انظر: سهى معج، «إشكالية التعريب في ضوء الإمكانيات اللغوية للعربية»، «المجلة العربية للعلوم الإنسانية»، السنة ٢٢، العدد ٨٥ (شباط ٢٠٠٤)، ص ٩١ - ١٢٢.

التكوير المتردي في اللسان العربي المصحح هو موقف الحب والكراهية معاً حيال المصحح. فمن ناحية يشعر الطالب العربي بعفوية بأن للعربية الفصحى في نفسه مكانة محترمة تستمد تجذرها من كونها الوعاء الرمزي للمعصيات القدسية والتراثية للانتماء العربي الإسلامي. لكن من ناحية ثانية، يلحظ المرء ملامح الموقف العدائي المتحسس أو الصارخ عند كثير من الطلبة إزاء الفصحى وبخاصة تلك التي تنحرف عن أسلوب الحرائد والمجالات الشعبية. ومثل هذا الموقف ليس بغريب فعلاً. فجدور الكراهية المستترة أو الناطقة ترجع بكل بساطة إلى مبدأ: «جاهل الشيء كارهه» وأما الشعور بالاحترام والحب للسان العربي المصحح فهو يعود باحتصار إلى مدى اقتران وعلاقة هذا الأخير خصوصاً بأسس ذاتية الإنسان العربي المسلم. ومن هنا فتدني المصحح بحد ذاته ليس قضية لغوية بحتة، كما يتبادر إلى الأذهان، وإنما تحس انعكاساته ذاتية الإنسان العربي نفسها طالما ظلّ هذا الأخير يعتبر اللغة العربية المصححة مذكرة تاريخه الماضي وبطاقة تعريفه في الحاضر وأداة تعبير على آماله المستقبلية. ويانتشار مثل هذا الموقف (الحب والكراهية) بين المتعلمين العرب يصبح للظواهر الآتية منطق ذو ثقل وأخطار على مستقبل هذه الأمة :

١ - تفشي العزوف العام عن الفراما بالمصحح بين المتعلمين في العالم العربي اليوم.

٢ - ندرة الابتكارات في الوطن العربي. ويرجع هذا بحسب آخر البحوث اللغوية إلى العلاقة الوثيقة بين معرفة اللغة الوطنية (القومية) والمقدرة الذهنية المعرفية (Cognitive Ability) على الإبداع والابتكار^(١٣).

٣ - إن تردّي الفصحى وسطوة العاميات المتعددة على مجرى الحياة في مجتمعات الوطن العربي بما فيها الجامعات العربية قد يؤديان إلى ضعف رابطة الانتماء العربي الكبير. فالفصحى - لا تزال كما كانت في أولى المنوحات الإسلامية - أكبر عامل موحد، بعد الإسلام، لأمة العرب.

ثالث عشر: جنود تدهور إتقان الفصحى

إن الأسباب التي يمكن أن تفسر لنا تدهور مستوى الفصحى عند المتعلمين العرب اليوم متعددة. ويمكن حصر ذكر أهمها في التالي :

١ - إن انتشار استعمال وسائل الإعلام للمسموعة والمرئية أثر سلباً كثيراً على

Robert Sternberg, *Wisdom, Intelligence, and Creativity* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2003), pp. 97-99.

مطالعة الكتاب عند الأجيال العربية بحيث لم يعد الكتاب خير جليس وأنيس للإنسان العربي المتعلم.

٢ - انتشار التعليم كفاً وبسرعة في العالم العربي أدى إلى ضعف مستواه الكيفي بما في ذلك مستوى لغة التعليم الرسمية (الفصحى).

٣ - انتشار تدهور مستوى لغة الصناد لكل من معلم الابتدائي وأستاذ المستوى الإعدادي والثانوي والجامعي في المدارس والجامعات العربية.

٤ - تعشي التأثيرات الثقافية غير العربية بما فيها اللغات الأجنبية واللهجات ومطلة الخليج هي أكثر المناطق العربية التي تعرضت إلى موجات اللغات واللهجات الأجنبية من طرف كثافة سكانية وافدة كبيرة مختلفة الجنسيات واللهجات واللغات والعادات.

٥ - ندرة الإنتاج العربي الممتاز الذي يشد القارئ العربي شذاً أفكاراً وأسلوباً وتعبيراً ومعرفة بأسرار الفصحى نحواً وصرفاً وبلاغة.

٦ - مشاعلة السياسية الشرق أوسطية جعلتنا نفضل أكثر على مطالعة الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية. وبالتالي تعودنا على لغة هذه المطبوعات، وفقدنا من جراء ذلك وجود الفرصة للتطبع بلغة المجلات القيمة والكتب ذات المستوى اللغوي والفكري الثري تعبيراً وتصوراً لقضايا الحياة المتعددة والمتجددة. ومع أهمية هذه الأسباب الممكنة جميعاً فإن المدرسة والجامعة العربيتين هما المسؤولتان الأوليان عن تردي الفصحى.

يبدأ الطفل العربي تعلم قواعد اللغة العربية الفصحى في المدرسة كنموذج لقواعد أي لغة أجنبية. بداية تعرفه وهو طفل ثم تمكنه وهو شاب أو كهل من اللسان العربي، لا يتمان أساساً إلا في دروب المدرسة والجامعة. وإذا غادر المدرسة أو الجامعة وهو حاوي الراد في لغة الصناد فإنه يكون قد حسر أحسن فرصة للتمكن والإلمام باللغة العربية الفصحى. وهكذا أدت ظاهرة التدهور في الفصحى في كل المراحل التعليمية إلى خلق حلقة مفرغة لا تكاد تعطي أي أمل للإصلاح وضميمة الفصحى في المدارس والجامعات والمؤسسات الثقافية العربية الحالية. فلا المتخرج من الثانوي ولا المتحصل على البكالوريوس ولا الماجستير ولا حتى الدكتوراه من الجامعات العربية هو قادر، كما رأينا، على استعمال الفصحى بطريقة سليمة تناسب خصوصاً مع ما يقتضيه مستوى الخريجين الجامعيين. ومن ثم فإن أي حل لتدنّي مستوى الفصحى يكاد يكون في الواقع مستحيلاً اليوم على المدى القريب والمتوسط في الوطن العربي، لأنه أينما أريد البدء بالإصلاح سواء كان ذلك على المستوى

الابتدائي أو الإعدادي أو الثانوي أو الجامعي، فإن توفر وجود هيئة التدريس الكافية والتمكنة في تعليم الفصحى السليمة على كل المستويات التعليمية أمر عسير تحقيقه في العالم العربي اليوم. هذا من جهة، ومن ناحية أخرى إن تدهور مستوى الفصحى عند غير معلمي وأساتذة الفصحى سوف لن يساعد التلاميذ والطلبة على المحافظة على ما كسبوه من معرفة ضئيلة للفصحى.

رابع عشر: كيف يمكن أن تتحسن الفصحى

وهكذا يبدو أن تحسين مستوى الفصحى عند المتعلم العربي قراءة وكتابة وحديثاً لا يمكن أن ينجز إلا في إطار شمولي يبدأ:

١ - في المرحلة الابتدائية من معلم الفصحى نفسه إلى معلم الرياضة البدنية مروراً بمعلمي المواد الأخرى كالطبيعيات والرياضيات، أي أن دور كل معلم ومرشد في النظام المدرسي الابتدائي ينبغي أن يكون معزراً لدى التلاميذ لدور معلم اللسان العربي المصحيح الذي ينتظر منه أن يفرس حب الفصحى في الشخصية القاعدية للطفل العربي ثم ترويضه فعلاً بمقدرة لغوية تمكنه من فهم واستعمال لغة الضاد في حدودها البسيطة لمستوى التلميذ العربي في المرحلة الابتدائية. ولتحسين مستوى فصحى المتعلمين في الوطن العربي إلى مستوى أفضل يجب أن يمتد المنظور الشمولي هذا إلى بقية مراحل التعليم حتى التخرج نهائياً من الجامعة. أي إن الاهتمام بإتقان اللغة الفصحى (وهي لغة الشعوب العربية الرسمية والقومية في آن واحد) يجب أن يصبح من أهم مشاغل المدارس والمعاهد والجامعات العربية. وبصورة أشمل ينبغي إدماج مبدأ الإلمام الضروري باللغة الوطنية (الفصحى) في السياسات الثقافية للمجتمعات العربية. أي إن «الأمن اللغوي» (التمكن من معرفة كافية للفصحى كتابة وقراءة وحديثاً) يجب أن يصبح جزءاً لا يتجزأ من «الأمن الثقافي» لكل مجتمعات الأمة العربية^(٢٤).

٢ - وبما يزيد في حيوية أي لغة وإثرائها هو مدى تفاعلها مع الحياة الاجتماعية. فأعطاء الفصحى مكانتها الاستعمالية الطوعية السليمة والشاملة (بصفتها لغة وطنية وقومية) في دروب المجتمع العربي المختلفة يصح مطلباً مشروعاً لا يقبل أن تسجل عن يمينه أي سلطة في المجتمع تؤمن بالعربية كلغة وطنية، وتؤم أيضاً بأن تحسين معرفة الفصحى بين المعلمين العرب ييسر عليهم عملية الفهم والاستيعاب

(٢٤) عبد الرحمن مودرع [وأحرون]، اللغة وبنية الفغات، سلسلة الأمة القطرية (الدوحة: الد. د.)،

الأساسيين لأي فكر خلاق. وأثبتت الدراسات في هذا المجال أن مقدرة الفرد على فهم أفضل تقترون اقتراناً وثيقاً باستعمال اللغة الوطنية. ولتعزيز موقف المعلمين العرب بخصوص «تطبيع» وضع الفصحى في المجتمعات العربية الطاعية فيها، الآن الاستعمالات العامة حتى في أكثر المؤسسات رمزاً للثقافة العليا (الجامعة)، ينبغي أن يصح هذه المجتمعات حوافز اجتماعية تجذب الأفراد والجامعات إلى تحسين معرفتهم بالفصحى. فجعل معرفة الفصحى معرفة سليمة كشرط أساسي في الحصول على كثير من الوظائف من جهة، وكأساس ضروري بالنسبة للترقيات من جهة أخرى، سوف يكون حافزاً غير هين للمتعلمين العرب على أن يحدقوا أكثر فأكثر لغة القرآن.

٣ - ولا يمكن أن تكتمل الشروط التي سوف تؤدي - إن توفرت - إلى تحسين وضعية الفصحى بين المتعلمين العرب من دون الإشارة إلى أهمية دور العائلة في طلاقة اللسان العربي الفصحى. فتعويد الأطفال منذ الصغر على اللغة الفصحى عن طريق حفظ القرآن والأناشيد والأغاني الفصحى، نشئة لغوية مهمة لها آثارها الإيجابية على مستقبل الطفل اللغوي في الفصحى. ففي عائلات مجتمعات المغرب العربي لا تستطیع الفصحى لحد الآن مزاحة العربية حتى في بعض الكلمات البسيطة التي يستعملها الأطفال في المحيط المدرسي. فهذه العائلات لا تزال، في تونس مثلاً، تستعمل إلى حد الآن كلمة «الكرتابل» (Le Carable) عوضاً عن المحفظة وكلمة «ستيلو» (Le Stylo) بدلاً من قلم حبر. ومنه فمساهمة العائلة سلباً أو إيجاباً في عملية تدهور الفصحى أو سلامتها لا يحتاج إلى إيضاح أكثر.

خامس عشر: وضعية الفصحى بين النشأوم والتفاؤل

على الرغم من أن اللهجات العامة العربية ومحاصة المصرية منها هي السائدة كوسيلة تدريس وعلى الخصوص بالجامعات المصرية والخليجية والجزائرية، فإنه لا يبدو أن هناك سياسات لهذه الجامعات تقاوم من ناحية، موجة طغيان العامية وتشجع من ناحية أخرى، انتشار استعمال اللغة العربية الفصحى في فاعات التدريس على الأقل. وسكوت مسؤولي الجامعات عن ذلك يفيد الرضا بالأمر الواقع أو عدم الوعي بالمصيبة من الأساس. وفي كلا الحالتين فإن مثل هذا الوضع لا يريد إلا من غربة وتدهور الفصحى السليمة في دروب الجامعة مع ما لذلك من انعكاسات خطيرة تنعدي بالتأکید، كما جاء في هذه الدراسة، الحدود اللغوية. ولا بد من الاعتناء هنا، في ضوء ما سبق، أن السبيل إلى تطبيع وضعية الفصحى بالهياكل الجامعية ليس بالأمر السهل اليوم بعد أن تردت حال اللسان العربي الفصحى حتى عند

حيره متعفي هذه الأمة كما رأينا. ويكاد المرء يقول إننا على قاب قوسين أو أدنى من تجاوز نقطة الخطر التي ليس بعدها من أمل في جعل الفصحى السليمة بدلاً من العاميات اللغة الطبيعية التي يقرأها ويكتبها ويتحدث بها الطالب والأستاذ الجامعان معوية وطلاقة كاملتين. ومع ضعف الأمل في إحداث مثل هذا الإصلاح المعوي لمصري فإن إمكانيات رآب الصدع لا تزال مع ذلك متوفرة للجامعات العربية حيث نطعم العاميات المحلية/الوطنية مكان لغة الصاد السليمة. فإحدى المحاولات التي يمكن أن نحس وتعرر من مكانة الفصحى السليمة عند كل من الطالب والأستاذ الجامعين هو قيام مسؤولي الجامعة بتنفيذ مثل الخطط التالية:

١ - حملات توعية بأهمية معرفة الفصحى السليمة قراءة وكتابة وحديثاً وبخاصة بالنسبة للطالب والأستاذ في المؤسسة الجامعية. ونحن نعرف من علم النفس الاجتماعي مدى أهمية نشر الوعي حول أي قضية من القضايا في تعبير مواقف وعادات وعقليات الأفراد والجماعات. ويحدث ذلك بنهياً الطالب والأستاذ نفسياً أكثر لما يتطلبه تغيير العادات اللغوية المنادي بها في هذه الدراسة.

٢ - أن تتخذ الجامعات قرارات تبليغ رسمياً إلى كل أعضاء هيئة التدريس المدرسين بالعربية حول ضرورة تحاشي استعمال العامية كوسيلة للتدريس.

٣ - أن تنص بنود التعاقد مع المدرسين بالعربية على لزوم استعمال الفصحى في التدريس.

٤ - تقديم مكافآت ومزية أو مالية أو إلتئين ممأ لمن يتمير من أعضاء هيئة التدريس في استعمال وإتقان اللسان العربي الفصحى وبخاصة في قاعات التدريس بالجامعة.

٥ - أن يشجع الطلاب والطالبات على استعمال الفصحى في المناقشات داخل قاعات المحاضرات. إن حظ مثل هذه الخطوة في الإتيان بشائج إيجابية لاستعمال اللسان العربي الفصحى بين الأساتذة وطلبتهم وانعكاسه في المؤسسة الجامعية، هو حظ لا يمكن الاستهانة به. فتهيئة المناخ النفسي بتوعية الطالب وأساتذه بأهمية استعمال الفصحى السليمة في سنّ القوانين المشروعة والمعرزة لهذا الاستعمال ثم مكافأة من يلزم بممارسة ذلك، كلها عوامل هامة لبداية الاجتهاد على الساحة الجامعية في تحسين وضعية الفصحى السليمة.

الفصل الثالث

اللسان العربي، الحاضر والافاق

عبد الحميد عبد الواحد(*)

تتضمن هذه الورقة جملة من قضايا اللسان العربي نتعلّق بواقعه ومستقبله في عصر أبرز سماته العولمة وتطوّر وسائل الاتصال. ولا يمكن لهذه القضايا أن تحلّ إلاّ بعد طرحها ومناقشتها وإبداء الرأي بشأنها بشأن حلولها المقترحة.

وهذه القضايا في اعتقادنا لا يمكن لها أن تحلّ في نطاق أعمال نظر فردي أو انتقادات أو اقتراحات فردية، وإنما لا بدّ أن تنضار الجهود لحلّها، وأن تتوافر لهذا الحل إرادة سياسية ونظرة علمية دقيقة موضوعية.

أولاً: حقيقة الوضع اللساني

إنّ اللسان (La Langue) من مفثور لساني ليس أمراً ممّا يقع عليه الإجماع في تحديده أو ضبط مفهومه. ولا يمتنا من اللسان كونه أداة تعبير أو أداة تواصل أو بيئة لسانية أو نظاماً علامتياً، كما لا يمتنا من شأنه بمعدّه الوظيفي أو الأبعاد الوحدانية والنفسية والاجتماعية المتعلقة به، وإنما يمتنا أساساً باعتباره واقعاً لسانياً ينتمي إلى مجموعة لسانية هي المجموعة اللسانية العربية التي تمتدّ على خريطة جغرافية شاسعة موزعة في الحلق التاريخي للشعوب العربية. واللسان العربي هو اللسان الرسمي لجميع الدول العربية، وهو اللسان الأمّ للطفل العربي وإن بكثير من التجوّر.

هذه حقيقة اللسان العربي في واقعه اليوم، وهو ليس بمعزل عن جملة من

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية - معاقس.

العصا بالاجتماعية والاقتصادية والسياسية سواء تعلقت بالداخل أو بالخارج

وضع اللسان العربي اليوم ليس بمعزل عن وضع البلاد العربية عموماً. وحالة البلاد العربية قد تكون في غنى عن الوصف إذا ما نظرنا إليها من عدة زوايا، ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى التحلف الذي تعيشه هذه البلاد، وهذا التحلف يظهر في جوانب حياتية عديدة. هذا إلى جانب حالة التبعية التي لا يمكن إنكارها سواء منها الاقتصادية أو السياسية، أو حتى الثقافية والمكرية أيضاً، وفصلاً عن هذا حالة النقل (Le Transfert) التي نعيشها: النقل التكنولوجي والمعرفي والعلمي والثقافي وغيرها. وبإيجاز إن وضع اللسان العربي في واقعنا اليوم هو وضع الإنسان العربي في عصر أبرز سماته العولمة وتطور التكنولوجيات الحديثة والاتصال والإعلام.

وإذا كان اللسان العربي هو المدخل إلى تحلفنا وعدم قدرتنا على مواكبة النمو والخروج من التحلف، فإن اللسان عند الشعوب المتقدمة هو الطريق إلى الهيمنة، وهو البوابة التي تدخل منها الأطماع ويسط التمرد على الشعوب الفقيرة. والتمرد والحال هذه ليس نفوذاً اقتصادياً أو سياسياً محسوب، وإنما ثقافياً وفكرياً بالأساس، فاللسان الأقوى هو لسان الأقوى، وهذه القوة هي التي تعمل على رواج هذا اللسان أو ذاك، والتحليل من شأن بقية الألسن.

وتبعاً لكل هذا، يمكن أن تبين القيمة التي يحتلها اللسان في حياة الإنسان عموماً، وفي حياة الشعوب والصراع القائم بينها ومسار النفوذ الاقتصادي والسياسي والثقافي خصوصاً.

إن الوضع الذي تعانيه البلاد الفقيرة التي كانت مستعمرة سابقاً إزاء الذول العنيفة، يجعل وضعها اللساني عموماً يعاني من حالات تفكك وتشتت، كما يسم هذا الوضع بقطيعة موجودة بين اللسان الرسمي واللسان الذي يتكلم به مجموع الناس، وبالتعمد اللساني وتعمد اللهجات تبعاً لامتداد الأقليات العرقية والطائفية والدينية، وتعمد سجلات الاستعمال والهوة القائمة بين لغة المدرسة أو الثقافة أو العلم، ولغة الحياة الاجتماعية. ومن هنا يبرز الصراع بين الألسن القومية والألسن الأحنفية، ومن هنا يظهر تحلف هذه الألسن المهيمن عليها ومحاولة جعلها غير قادرة على مواكبة العصر والمد الحضاري والتكنولوجي والعلمي إلخ... كما يمكن لهذه الألسن أن تعاني الكثير من التحلف في طرق تعليمها أو تدريسها، وفي قدرتها على نقل المعاني والمصطلحات ونقل المعارف العربية المتقدمة.

وتبعاً لكل هذا قد تكون مبالغين إذا قلنا إن اللسان يقع في قلب كل الفصا

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية والفنية، وهو صورة تعكس حقيقة الواقع الاجتماعي والتقسيم للأفراد أو لمجموعة لسانية ما، وتعكس السى الفكرية أو الذهنية لهؤلاء الأفراد، كما تعكس الحالات العصبية والمرضية ودرجة الوعي والخصائص الأيديولوجية والأخلاق الفنية والمعتقدات الدينية وغيرها.

إنّ اللسان العربي واللسان عموماً هو أداة للتعبير وأداة للتفكير، وهو أداة لمحاربة الجوع والمقر أو لتكريسهما، وهو أداة لمواجهة الآخر، لمواجهة العرب والهيمنة أو العولمة، ومواجهة مشاكل الثقل وتبعاته. واللسان مثلما هو أداة يعود وتسلط وهيمنة، هو أداة تواصل منفعي وربما استعماري، وهو أداة لنقل الأفكار والمفاهيم والأيديولوجيات والثقافات.

وليس غريباً أن يكون اللسان في عالمنا المعاصر اليوم نقطة الاستقطاب التي تتمحور حولها حلّ المشاكل التي نحيهاها. وليس غريباً أن يكون اللسان اليوم من أبرز وأهم القضايا المتصلة بالتقدم والتحلف والتواصل بجميع أنواعه، وهو الورقة المزبحة في سوق الشغل والمضاربة.

ولا سبيل إلى النظر نظرة صائبة دقيقة إلى مشاكلنا العربية اليوم باختيارنا دولاً متخلفة أو نامية تسعى إلى التقدم بمعزل عن النظر إلى اللسان وإلى كلّ المشكلات التي تنشأ عنه. وإنّ هذه المشكلات في مجملها هي ما يفرضه الواقع المعيش الذي نحياه، وهي نبذة من مشاكلنا اللسانية، ذلك أنّ هذه المشاكل اللسانية إذا ما تمّ ربطها بمشاكلنا الحياتية فلن تنتهي ولن نجد لها حلاً. وعليه إنّ وضعنا عموماً ليس بمعزل عن وضع اللسان العربي، بل إنّ هذا اللسان لهو المرآة الصادقة التي تعكس حقيقة وجودنا.

وتبعاً لكلّ هذا بإمكاننا أن نلخص مجمل هذه المشاكل المتولدة عن وضع اللسان العربي في مجموع النقاط التالية التي تبو لنا الأبرز والأؤكد للتطرح والنقاش.

ثانياً : المعرفة بحقيقة اللسان العربي

إنّ اللسان العربي ليس ظاهرة غريبة أو جديدة على فكرنا وحضارتنا. ويمر اللسان العربي من دون مهاترة ولا مبالغة، من أهمّ الألسن التي حظيت بالدراسة والتأنيب ولعلّ الكثير من المناهج المتداولة قليلاً على غايه من الأهمية إذا ما نظرنا إليها في ضوء علوم اللسان الحديثة. وقد يكون اللسان العربي من الألسنة القليلة عبر تاريخها الذي مال حظاً وافراً من التحليل. غير أنّ كلّ هذا لا يشجع لسان العربي أن يستفيد من علوم العصر ومن اللسانيات الحديثة على وجه الدقة.

إنَّ اللسانيات الحديثة يمكن اعتبارها من أهم وأوسع العلوم الإنسانية انتشاراً على الإطلاق، وليس ثمة علم آخر يضاهيها في استقطابها للكثير من المعارف الأخرى الإنسانية منها والصحيحة، وفي استقطاب هذه المعارف لها. ولا يحصى أن اللسانيات الحديثة شديدة الاتصال بالرياضيات والإحصاء والمنطق وعلم النفس وعدم الاجتماع والأنثروبولوجيا والإثنولوجيا والتاريخ والأدب والسياسة، بل هي شديدة الاتصال بوسائل الاتصال الحديثة والإعلامية. ولا أحد يستطيع أن يسكر في هذا المجال الأهمية البالغة التي تحملها اللسانيات والثورة المعرفية التي أضافتها بالنظر إلى اللسان في حد ذاته أو في ما يتصل به من قريب أو من بعيد.

إنَّ اللسانيات الحديثة، وإن كانت مشارب شتى ومدارس عدة، لها من القوة أن تعبّر عن الكثير من المفاهيم والحقائق التي هي أقرب إلى الثبات منها إلى التحول كالنظر إلى بنية اللسان في حد ذاته، والنظر إلى وظيفته التواصلية والمعرفية، والنظر إليه باعتباره ظاهرة شفوية أو مكتوبة، والنظر إليه باعتباره نظام علامات أو إشارات، والنظر إليه باعتباره حقيقة أو مجازاً.

إنَّ اللسان العربي بكل تحفاته وفي جميع تجلياته هو بحاجة ماسة اليوم إلى أن يكون خاضعاً لتحليل اللساني، وقد يثنى هذا التحليل اللساني الحديث مع بعض التحاليل القديمة أو لا يتفق. المهم إحصاء هذا اللسان للدراسة والوصف وفق مناهج جديدة قد تختلف كثيراً أو قليلاً عن المناهج التحوية القديمة، وذلك بتطبيق أدوات جديدة والقيام بإجراءات حديثة، وتبسيط حلة من المفاهيم التي لم تكن سائدة، والاطلاق من افتراضات أو فرضيات مبتكرة ابتكرها العلم الحديث، وهذا في الحقيقة ليس عيباً يجب أن نحترز منه، وإنما هو ضرورة علمية ومعرفية تضيء متطلبات العلم والموضوعية، بل إنَّ هذه المناهج الحديثة لعلها وحدها القادرة على أن تمكّنا من إعادة قراءة تراثنا اللساني قراءة جديدة تعيد له الاعتبار وتقوّي التقويم العلمي الصحيح، وتبرر ما هو خاف فيه وتعيد له إشراقه، من دون أن سلب في الفصل بين القديم والحديث، ومن دون المبالغة في الدعوة إلى التوفيق بين طرفي هذه الثنائية، ذلك أنَّ المنهج مهم في العلوم عموماً، وفي العلوم الإنسانية خصوصاً، وليس ثمة منهج لا يتخذ من علوم عصره أداة للموع العايات العلمنة المعترضة.

إنَّ اللسانيات الحديثة يجب أن يستفاد منها في كل المجالات المعرفية، وبالأساس في فهم اللسان وبنية والعلاقات القائمة بين مكوناته أو عناصره، ولا بد للدرس اللساني أن يكون مفيداً في جميع المستويات اللسانية، وأن لا يهتم بجانب على حساب جانب آخر، فالاهتمام بالجانب الصوتي والصوتي الوظيفي مهم، كما إنَّ الجانب

المصري والعربي التركيبي مهم أيضاً، هذا فضلاً عن الحواش التركيبية والمعجمة والدلالة بل التداولية والبلاغية. وكل هذا مما تنشأ عنه انعكاسات مهمة في الكثير من الحواش التي قد تتعرض لمسائل تطبيقية كالترجمة وإنشاء القواميس والمعالجة لآلية

ومن المسائل التي هي بحاجة إلى اللسانيات لحلها، وضع اللسان العربي في البلاد العربية في علاقته باللسان أخرى أو مستويات لسانية مختلفة، ومن ضمن وضع اللسان العربي اليوم علاقة الفصحى بالعامة، وعلاقة الفصحى أو العامية باللسان أو الألسن الأجنبية

ثالثاً: الثنائية اللسانية (La Diglossie)

إن الثنائية اللسانية هي ما يعبر عنها بالالتقاء الحاصل بين اللسان العربي الفصحى واللهجة أو اللهجات الدارجة. هذه الثنائية اللسانية تعرض نفسها على الواقع العربي بمحتلف مقوماته، ذلك منذ عتبات تاريخية طويلة، من دون أن يوجد لهذه الثنائية حل، إن كما حقاً بحاجة إلى حل. إن عيب الثنائية - إن صح التعبير في اعتبار ما يمكن قوله عيباً - هو الاختلاف في درجات الاستعمال للسان واختصاص اللسان أو اللهجة في الوظيفة الاجتماعية بدور يجعله بمنزلة من دور بقية الاستعمالات الأخرى. وليس خافياً اليوم في مجموعتنا اللسانية العربية تقاسم الوظائف التي يقوم بها اللسان الفصحى واللهجات المحلية، وكأن اللسان الفصحى من وظائفه أن يتخذ وسيلة رسمية للتعبير، وأن يكون لغة المناسبات والوظائف الرسمية والنشاطات الثقافية والخطب الأدبية والمحاضرات الأدبية والمكرمة وما شابهها، في الوقت الذي تشغل اللهجات المحلية بقية المهام اليومية التي يجباها المرء في المجتمع.

ومشكلة الثنائية لا تظهر في حقيقة الأمر، في توزيع المهام بين الفصحى والعامة، وإنما تظهر في الهوية العاصلة بين الاستعمالين وفي اعتبار اللهجة اندارجة هي اللسان الأم للطفل المصري أو المغربي أو الجزائري، وهي ما يميز لغة الطفل في اهتمامه من البيت أو الشارع إلى المدرسة، وأثر هذا الانتقال عليه في التحصيل اللغوي والمعرفي، وكأن الطفل العربي عندما يؤتم المدرسة يشرع في تعلم لسان حديد أو أجنبي يختلف عما كان قد اكتسبه سابقاً. صحيح أن الروابط الأسرية اللسانية التي تربط الفصحى بالعامة لا يمكن مقارنتها بما يحصل في التقاء لسانين مختلفين، إلا أن الواقع يفيد أن الكثير من الاختلافات الحاصلة بين الاستعمالين (أي الفصحى والعامة) يؤثر تأثيراً سلبياً بالعمى في الكثير من الحالات على قدرات الطفل في التعلم وفي النجاح وهي اكتساب اللغة المكتسبات التعليمية. إن السببين اللسانيين للفصحى

والعامي - بالرغم من القراءة الأسرية اللسانية التي تربط بينهما - هما على درجة عالية من التشابه والاختلاف في الوقت نفسه. وإلى اليوم لم تؤحد هذه الاختلافات والتشابهات في البلاد العربية بكثير من الحزم والجد، فبعبت العامة مهمشة ولا اعتداد بها، وهي مبعدة رسمياً وثقافياً، وما زال الوهم الشائع عند الكثير من الناس بل الكثير من المثقفين والكتاب أن الدارجة ما هي إلا صورة مخرفة للمفصّلة وأن لا مجال للاعتداد بها، ولا سبيل إلى دراستها أو مقارنتها بالمفصّلة. إلا أنها وبالرغم من هذا تظلّ تعيش المفصّلة وتركس إلى ظلّها وتنزل منزلة الدون، في الوقت الذي تحرق فيه كلّ العنات الاجتماعية، وكلّ الاستعمالات اللسانية باعتبارها طرفة تعبيرية، هاجزين عن رفضها وعاجزين عن الاعتراف بها.

إنّ المشكل في الثابتة في اعتقادنا يتمثل في القدرة على تصنيف الهوية القالمة بين الفصيح والعامي، أو بين الاستعمال الفصيح والاستعمال العامي. وتصييق هذه الهوية لا يمكن أن يكون إلا عبر التمدّرس ونشر الثقافة والعلوم، والتمدرس لا يمكن أن يكون ناحياً إلا بالأخذ بعين الاعتبار هذا التداخل الحاصل بين الفصيح والعامي، ومحاولة الإكثار من المنشآت والتقليل من الاختلافات. ولا يمكن لهذا الأمر أن يتم إلا بالاعتراف بالعامي والنظر إليه باعتباره استعمالاً جديراً بالاهتمام ومن دون مركبات أو شعور بالنقص، وإبلائه المكانة التي يستحقّها باعتباره لساناً منطوقاً يمثل أكبر الشرائح الاجتماعية في واقعنا العربي، إن لم نقل كلّ الشرائح، وباعتباره اللسان الأمّ في اكتساب اللغوي عند الناشئة العربية عموماً.

وما الاعتراف بالعامي في هذا المجال إلا باب للذخول إليه ودراسته الدراسة العلمية، بالقبض كما تدرّس ثقافة الإنسان وتاريخيته واجتماعيته. ودراسة العامية يجب أن يستفاد منها في هذا الشأن في تعليمية الألسن والمواد. وكلّ ذلك بالتشديد على الاستعمال الطبيعي للسان الفصيح، وجعل هذا اللسان اللسان السائد في سرات المدرسة التحضيرية أو المستويات المتأخرة من مرحلة رياض الأطفال، وجعل اللسان الفصيح لساناً طبعياً عند الطفل وعند المربي في قاعات التدريس.

إنّ اللسان الدارج لسان طبيعي ولا شك ولا سبيل إلى إنكار ذلك، إلا أن تأثيراته سلبية في اللسان الفصيح وتعلّم الأطفال لهذا اللسان. وتبرز هذه التأثيرات السلبية عادة في التحصيل اللغوي والتحصيل المعرفي. وإنّ حلّ معضلة الثابتة لا يكمن في اعتقادنا في التقليل من شأنها وإنما في محاولة السيطرة عليها والعمل على نشر العربية الفصّلة لتحلّ شيئاً فشيئاً في مواضع ظلّت العامية تحتلّها منذ قرون عديدة، ولا يكون ذلك إلا بداية من سنّ الطمولة، أي من الروضة والمدرسة

رابعاً: الازدواجية اللسانية (Le Bilinguisme)

إنّ أمر الازدواجية وإن بدا في الظاهر شبيهاً بأمر الثنائية يختلف عنه اختلافاً شديداً، وإن كان كلّ منهما «مضراً»، وإن اعتبرت الازدواجية أكثر ضرراً. إنّ الازدواجية في عرف اللسانيين هي التقاء لسنتين مختلفتين قد يكونان من أسرة لسانية واحدة، أو من أسرتين مختلفتين. وقد تكون الازدواجية أيضاً ظاهرة فردية أو جماعية. والازدواجية السائدة في بلداننا العربية هي ازدواجية جماعية مفروضة علينا فرضاً. ولعلّ تبعاتها الأولى تعود إلى أسباب تاريخية أو إن شئنا استعمارية. هذه الازدواجية لا تحمل إلينا استعمالاً لسانياً فحسب، وإنما تحمل إلينا فكراً مغايراً وثقافة مختلفة ورؤية للكون والأشياء لا تتفق في مجمل ظواهرها مع رؤيتنا نحن. إنّ الإنسان الأجنبي بالرغم مما فيه من إيجابيات لا تنكر، مشبع ومحمل بالكثير من الهيمنة وحب السيطرة والتسلط وهو لا يحمل في طياته الكثير من الانبهار بالغرب وبأصحابه، وإنما يحمل الكثير من الأفكار المسفة والأحكام القيمية على لسانا العربي وعلى ثقافتنا وحضارتنا وتاريخنا وواقعنا، يختلف تجلياته.

إنّ الاحتكاك بين الألسن في تاريخها الطويل ينتج منه صراع قد يمتدّ أو يمحى بحسب الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وبحسب طبيعة العلاقة التي تربط بين هذه الألسن. وإنّ هذا الاحتكاك قد يكون مهادناً في حالات كثيرة، وقد يبلغ حدّ التصادم في حالات أخرى. وفي حالات التصادم يشتدّ الصراع، وتكثُر صراخ يشهد الصراع اللساني خالاً ومعلوباً، وقد يطمس المالب كلّ مقومات المألوب، ما يجعل لسان الغالب يحمل محلّ لسان المألوب، وما يؤدي في النهاية إلى اضمحلال لسان المألوب وربما التلاشي والموت. إنّ فرض إرادة المعتدي على المعتدى عليه لا يكون في مستوى السلطة وحدها، وإنما يكون في المستوى اللساني أيضاً. وقد تكون الهيمنة المادية هي الطريق إلى الهيمنة اللسانية ومن ثمة الثقافة والعكرية، وقد يحصل العكس فتكون الهيمنة اللسانية هي البوابة العظمى على باقي مقدرات الشعوب. وفي كلّ الحالات إنّ الصراع اللساني والهيمنة السياسية خطران قد تترتب عليهما خرائط جغرافية وسياسية وبشرية لم تكن موجودة في السابق، أي قبل الصراع.

إزاء هذا الوضع اللساني المتسم بالازدواجية اللسانية، وبالنظر إلى المخاطر أو المصائر المحتملة التي يمكن أن تنشأ عن هذه الازدواجية، هل يجب أن تنكّر جملة ومصيلاً للازدواجية، وبالتالي للسان الأجنبي حتى نكون في مأمن من هذه المخاطر؟

إن أمننا اللساني الذي يجب أن نرعاها لا يمكن أن يتم بالرخص القطعي للازدواجية عاقبة، ولا بالرخص القطعي لكل لسان أجبي، وإنما يجب أن يتم في اعتقادنا بإيلاء اللسان العربي المكانة التي يستحقها، وذلك بالتشجيع على دراسته ودراسته إمكانياته وبتطويره وترويضه أو نشره السليم، وجعله لساناً قادراً على التعبير عن كل المتطلبات الحياتية، وبخاصة منها المعرفية والعلمية والتكنولوجية، وأن يكون لساناً فعالاً في نقل المعارف وترجمتها واستيعابها، وأن يكون لسان العلم والثقافة والأدب، وأن يكون لسان المدرسة والإعلام ومختلف الهيئات السياسية والثقافية، وأن يبلغ في كل هذا مستوى القدرة على الرواج والتأثير والبأثر والاستعداد والإفادة والأخذ والمطاء، وبكلمة أن يكون اللسان العربي لسان العلم والتكنولوجيا والاتصالات الحديثة، وأن تكون له مكانة أو موضع قدم من ضمن بقية الألسن المعترف بها في العالم، أي أن يكون لساناً رائداً قادراً على استيعاب كل المفاهيم الحديثة وكل التقنيات الحديثة، وأن يحقق بشأن هذه الأعراض إضافته النوعية. وهذا لا يتم ولا شك لمن كان فاقداً القدرة حاوي القوي، كما لا يتم لمن كان لسانه لساناً مهلهلاً ضعيفاً يعبر عن النقص والانهيار والتعبية.

إن اللسان الأجبي في طلب المعرفة والعلوم مفيد ولا شك، وهو صالح أن يكون أداة عمل ونافذة يعبر بها الطالب والعالم إلى ثقافات وحضارات أخرى، بشرط أن لا يكون ذلك على حساب اللسان القومي والمفكرات القومية وضعف اللسان وقوته مرهونان بقوة صاحب اللسان أو ضعفه.

إن هذا الوضع اللساني في البلاد العربية المتسم بالثباتية من جهة، وبالازدواجية من جهة ثانية، قد تكون له انعكاسات مهمة على حالات أخرى من حالات لسان العربي في وضعه الراهن. ومن أبرز وأهم هذه الحالات حالة التعريب ونقل العلوم والمعارف، وإيجاد المصطلحات الكفيلة بذلك.

خامساً: اللسان العربي والتعريب

إن مسألة التعريب مسألة قديمة جديدة، وهي مسألة شائكة قد تردد حدة أو تخف تبعاً للوضع اللساني في بلد عربي ما. ومسألة التعريب وإن كانت متفاوتة من بلد عربي إلى آخر مسألة تفرض نفسها على جميع المجالات المعرفية والاقتصادية والتكنولوجية وبالعذر الذي نهيم فيه الازدواجية أو اللسان الأحسي تطرح فيه قضية التعريب. وترداد هذه القضية تعقيداً بالقدر الذي يحل فيه اللسان الأجبي محل اللسان العربي أو يراجه.

لقد بدأت المطالبة بالتعريب تاريخياً منذ أيام الاستعمار المباشر الذي شهدته

الساحة العربية، سواء في المشرق أو في المغرب. وظل التعريب منذ ذلك الوقت مطلباً وطنياً ملتحاً يمس شخصية البلاد ومقوماتها.

وليس المقصود بالتعريب تعريب المعارف الواردة إلينا من الغرب، وإنما هو تعريب الهيئات والمؤسسات الخاصة والعامة، وتعريب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والتربوية، أي تعريب الإدارة والمدرسة والكلية، وتعريب الثقافة والعلوم والإعلام وتعريب الشارع. إن مسألة التعريب في البلدان العربية تسرر من حلال وضع غير طبيعي يتمثل في حلول اللسان الأجنبي مزاحماً للسان العربي، وذلك في المطبوعات الرسمية وفي وسائل الإعلام، وفي اللافتات وأسماء الشوارع والمدن والمؤسسات، وفي التعليم والخطاب اليومي لدى المتعلمين والعامة.

إن مسألة التعريب تشير إلى أن الوضع اللساني في الكثير من البلدان العربية وضع غير طبيعي يشبه وضع المعاق الذي يتحرك بعكازين اثنين ولا سبيل إلى أن يتحلل عن أي منهما. إن التعريب في هذه البلدان التي تعاني منه، يمثل عليها اليوم وضع استراتيجيات لتطبيقه في محاولة للتحلص من وصية الازدواجية التي تعيشها. إلا أن هذه الاستراتيجيات وإن نجحت في بعض البلدان العربية، فهي لم تنجح في الكثير من البلدان الأخرى. ولقد مزّت عقود على الاستقلال وما زالت بلدان عربية كثيرة تروح تحت وطأة المصائب بالتعريب والعجز عن تحقيقه كاملاً، بل إن بعضاً من هذه البلدان شهد تطوراً ثم انتكاسة في هذا الميدان، بل شهد ردة في ذلك. وليس أدل على هذا من وضع لتعليم في هذه البلدان، إذ شهد التعليم وما زال يشهد الكثير من الاضطراب وعدم الاستقرار في ما يتعلق بلغة التدريس وتعريب المواد والبرامج التعليمية، وكثيراً ما لوحظ تقلص هذه الظاهرة ورواجها تبعاً للرغبات الفردية أو الظروف السياسية المؤقتة.

ولعل ما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد، غياب الإرادة السياسية الحقيقية في إنجدار التعريب وفي مقابل هذا يظل الاستقلال السياسي الحقيقي وإيجاد خطة واضحة للتعريب والنموك بهذه الخطة، والحرص على إنجازها، هي الرهانات الحقيقية لتعريب البلاد ومؤسساتها، وما الوضع الذي تحياه هذه البلدان اليوم إلا عكس للوضع اللساني، وما حالة التعريب إلا انعكاس بدورها لهذا الوضع اللساني المشار إليه، فتعمل على تغيير هذا الوضع أي الوضع اللساني، حتى تتمكن من تغيير بقية الأوضاع التعليمية والاجتماعية والإدارية والإعلامية.

إن عملية التعريب مرهونة بما سبق ذكره، وهي مرهونة أيضاً بوسائل تقنية لا يد من ثوابها، وهي: حسن الترجمة أو القفلة عليها ومن أهم الصعوبات التي تعترض التعريب والترجمة المصطلح.

سادساً: وضع المصطلح العربي

إن عملية وضع المصطلحات للقدرة على الترجمة والتعريب ونقل المعارف والمعلوم وسيلة لا غنى عنها. والمصطلح هو لغة خاصة أي لغة أهل الاختصاص، وهو فرع من فروع اللسان المتداول بين أفراد المجموعة اللسانية الواحدة. والمصطلح هو أداة تعبير دقيقة لنقل المفاهيم أو التصورات العلمية والثقافية والتكنولوجية والمصطلح دليل لساني (Un Signe Linguistique) متفق بشأنه بين أهل الاختصاص الواحد أو أهل الصناعة الواحدة. وهو عبارة القدامى مفتاح العلوم، وهذا ما يدل على أهميته وضرورته للدخول إلى العلم المخصوص.

ودلالة الاصطلاح هي العلاقة الرابطة بين داله ومدلوله، وهو لا يختلف في هذه الحالة عن الدليل اللساني بوجه عام. بيد أن دلالة المصطلح أوضح من الدلالة العادية، وهي أوسع داخل مجال الاختصاص من دلالات الكلمات العادية التي يتحدد معناها تبعاً إلى السياق الذي ترد فيه.

إن العلاقة بين دال المصطلح ومدلوله هي علاقة نواحيج وترابط ما أن يخصص أحدها حتى يستحضر بالضرورة الآخر، وبطبيعة الحال لا يمكن لأحدهما أن يقوم مقام الآخر. ولأهمية المصطلح والقيمة الدلالية التي يكتسبها، قد تغدو لمعرفة الاصطلاحية هي المعرفة العلمية، إذ لا علم من دون مصطلح، ولا استحضر المصطلح من دون استحضر العلم والمفاهيم المتعلقة به.

ولا يخفى أن المصطلحات كثيرة وعديدة ومتنوعة، وهي تتوزع على عدة مجالات علمية ومعرفية، ويمكن لكل مجال من هذه المجالات أن يكون معجماً اصطلاحياً خاصاً به. والمعجم الاصطلاحى ما هو إلا معجم قطاعي يهل من المعجم العام لسان العربي، وهو صورة للمعجم الذهني (Le Lexique mental) الموجود لدى الأفراد الناطقين باللسان العربي بوجه عام. وثمة المعاجم القطاعية اليوم ضرورة ملحة لإمكانية نقل العلوم والتكنولوجيات الحديثة، وللمساعدة على إنجاز عملية التعليم، وتطوير العلمي والمعرفي المطلوب في البلاد العربية.

إن الضموية في وضع المصطلح - ما يجعل المصطلح معصلة - هي حقيقة وصحة على ما هو عليه اليوم في مختلف البلدان العربية. ولعل من أبرز ما يميز وضع المصطلح العلمي ما يمكن إجماله في النقاط التالية:

١ - فوضى المصطلح واضطرابه وتعقده من بلد إلى آخر، بل بين مختص واحد، وقد لا يبلغ عندما نشير إلى أن هذا الاضطراب قد نجده عند الباحث الواحد

٢ - نشئت المصطلح وعدم القدرة على توحيد الضعف في عقد الدوات المتعلقة به .

٣ - المحاولات الفردية الغالبة على وضع المصطلح، وغياب المؤسسات والهيكل القادرة على تقنين هذه العملية، ووضع استراتيجيات عامة وإرساء ما يسمى بسوك المعلومات .

٤ - عدم القدرة على التفاعل والتعاون بما فيه الكفاية بين المؤسسات القليلة القائمة بهذا الأمر، كالمجامع اللغوية، وعدم القدرة على الوصول بالمصطلح إلى ما يسمى بعلم المصطلح باعتباره علماً ناشئاً، وعدم الاهتمام بتدريس هذا العلم والتأليف فيه .

٥ - القصور في فهم دلالة المصطلح في مفهومه العلمي الدقيق، كما جاء في اللسان الدخيل أي في لسانه الأصلي، ثم اختلاف مصادر المصطلح الواحد أو مرجعيته .

إن إمكان الخروج من هذا الوضع المتردي للمصطلح العلمي في بلادنا العربية اليوم رهين لمحاولة تتجاوز العيوب التي أشرنا إليها، ورهين بصورة عامة لما يسمى بسد الثغرات الثقافية أو العلمية . وسد الثغرات لا يتم إلا بالأخذ بزمام العلوم والتكنولوجيا والفنون، وبلوغ درجة تُثقل هذه العلوم واستيعابها والإبداع فيها، وعدم الاكتفاء بالنقل واللهات وراء التناح المعرفي الوارد إلينا من الغرب . والشعك بأسباب التقدم وحدها، كفيل بتطوير الطاقة التعبيرية في اللسان العربي

إن معضلة المصطلح هل ما وصفناها أو قدمنا لها، ليست في الحقيقة بمعزل عن الأسباب التي ذكرناها، كما إنها ليست أيضاً بمعزل عن قضايا أخرى نظرية وتطبيقية تتعلق بالمعجم ووضع القواميس .

سابعاً : وضع المعجم العربي

من المعلوم أن كل لسان طبيعي يتحدد بنحوه من جهة وبمعجمه من جهة أخرى . والعلاقة بينهما علاقة طبيعية لا يمكن الفصل بين طرفيها . والمعجم باعتباره المحررون المفرداني للأفراد، يمثل قدرة التكلم المستمع في لسان ما . وهذه القدرة التعبيرية عند الأفراد لا بد أن تنشأ بينها وبين التصورات الذهنية المختلفة توارث . وقد يمثل هذا التوازن كلما حدثت هوة بين هذين الطرفين .

ونتمثل هذه الهوة في حدوث معاهيم جديدة لا نجد لها ما يقابلها من مصطلحات في لسان معين . ولا يخفى أن هذه الهوة كثيراً ما تحدث في البلاد

العربية، وذلك بالنظر إلى كثرة المفاهيم الواردة إلينا يومياً، بسبب المعلومات العلمية والتكنولوجية والفنية التي لا نفتأ تتزايد يوماً بعد يوم، ولا نجد لها المقادلات الملائمة نتيجة الرحم المعرفي الذي يغرونا من جهة، ونقص في الطاقه التعبيرية من جهة ثانية.

إن القدرة التعبيرية في البلاد العربية لا بد أن يعكسها اللسان المستعمل وهذا اللسان المستعمل لا بد له من مواكبة العصر وعالم المعرفة والعلوم المعاصرة والقاموس العربي باعتباره نموذجاً تطبيقياً للمعجم العربي، لا بد أن يستجيب لمتطلبات الإنسان العربي سواء كان صغيراً أو كبيراً، متعلماً أو غير متعلم. وكل هذا بحاجة تلبية حاجيات المستهلك والقدرة على تغطية المادة المعجمية لكل المتطلبات الحياتية.

إن القاموس (Le Dictionnaire) باعتباره صورة للمعجم العربي، لا بد أن يمثل هذا المعجم أفضل تمثيل، ولا بد له أن يشمل كل ما يحول وكل ما ينقل في المجالات المعرفية والعلمية والتكنولوجية والفنية. وكل هذا يملئ علينا إعادة النظر في طبيعة القواميس الشائعة بيننا، وذلك في ما يتعلق بالنقاط التالية :

١ - طبيعة المادة اللغوية المعتمدة

إذ لا بد للقاموس في هذه الحال أن يحتوي على كل ما يعتبر عن المتطلبات اللازمة في حياتنا المعاصرة وفي جميع المجالات، وبالتالي على هذه المادة أن تغطي ما يمكن أن نطلق عليه العربية المعاصرة، ومن ثم لا بد من تحديد هذه العربية بالاعتماد على مدونة أو مدونات قائمة على حقيقة اللسان باعتباره لساناً طبيعياً، كما لا بد من إعادة وضع قواميس حديثة تتخلص من الكثير من الوحدات المعجمية التي لم تعد صالحة وقل استعمالها أو أن فائدتها غدت هزيلة؛ كما لا بد لهذا القاموس أن يعكس كل المتطلبات الحياتية الجديدة، حتى يسد هذا القاموس الحديث الهوة التي سبق أن أشرنا إليها والمتعلقة بالقدرة التعبيرية من جهة، وتعطية التصورات والمفاهيم المستحدثة من جهة ثانية.

٢ - ترتيب المادة القاموسية

من المعلوم أن ترتيب القواميس ومنذ قرون بعيدة قائم على الترتيب المنطوق بالحروف الأبجدية، حتى وإن اختلفت هذه القواميس في الظاهر. وهذا - ولا شك - يستتبع عمراً في العثور على الوحدة المعجمية المطلوبة داخل القاموس، وبخاصة بالنسبة إلى الناشئة أو بالنسبة إلى ذوي المستوى التعليمي المحدود، إذ لا بد من معرفه مسبقة بالاشتقاق، أي اشتقاق الكلمات التي نريد البحث عنها، كما لا بد من معرفة

الكثير من النصاريف التي يحسن الكلمات المعلة وأصولها الافتراضية والتعيرات الطرقة عليها. إن ترتيب القواميس عندما ما زال يعاني من الاضطراب، وهو بحاجة ماسة إلى المراجعة والبحث.

٣ - طبيعة الشروح المقدمة

إن المادة المقدمة في القاموس هي بحاجة إلى شرح أو تفسير. وقد تكون هذه العدة الأساسية للقاموس. والتفسير كما هو معلوم يأخذ عدة أشكال مختلفة، كأن يفسر بالترادف أو بالمقابل أو بالقياس، كما يمكن أن يفسر بالصورة أو بالرسم، أو أن يفسر بالشاهد. والتفسير قد يكون بكلمة، أو بعبارة أو جملة أو أكثر من ذلك. هذه التفسير المختلفة موجودة في قواميس لا محالة، إلا أن الكثير منها مشابه للتفسير الموجودة في القواميس القديمة، وما زال الكثير من القواميس المعاصرة في هذا الصدد تستشهد بالأمثال القديمة والشعر القديم والآيات القرآنية والحديث النبوي. وقد يكون هذا بعيداً عن الكثير من التصورات المعاصرة والمفاهيم الحديثة. وكل هذا من شأنه أن يزيد الهوة اتساعاً بين اللسان باختياره طاقة تعبيرية، والتصورات العدمية والمعرفية التي تعمل على تقريبها أو نقلها.

إن معالجة وضع القاموس العربي اليوم، بحاجة إلى إلمام نظري بالمسائل المعجمية وبوقوع تطور الدرس اللساني الحديث، وهي بحاجة إلى الفصل بين الصناعة القاموسية (La Lexicographie) والمعجمية (La Lexicologie). وكل هذا بغاية أن يستجيب القاموس العربي المنشود إلى متطلبات العصر والمستجدات الوافدة إلينا، ولإفادة من شتى العلوم والمعارف والصناعات والفنون. إن وضع القاموس العربي في ضوء الوضع اللساني، كما قلنا له، ليس بمعزل عن قضايا نظرية وتطبيقية، كما ليس بمعزل عن مسائل وتقنيات حديثة لحل من أبرزها تكنولوجيات الاتصال والإعلام والترجمة الآلية والقواميس الإلكترونية.

ثامناً: اللسان العربي والإعلامية

إن تكنولوجيا الإعلامية والتقنية المطرد للحواسيب قد فتحت مجالاً واسعاً في استغلال الألسن الطبيعية والتعامل معها، من ذلك المعالجة الآلية والترجمة الآلية والقواميس الإلكترونية كما أسلفنا القول. ولا يخفى أن هذه التقنيات الحديثة تعاملت وبشكل أساسي مع الألسن الهندية الأوروبية، وعلى رأسها اللسان الإنكليزي واللسان الفرنسي، وذلك بحكم الهيمنة الاقتصادية والمعرفية والسياسية للدول الكبيرة التي تتخذ من هذه الألسن وسيلة تبليغ واتصال. كما إن اللسان العربي مثله

مثل بقية ألسن البلدان المتحلقة، هو عرضة لهيمنة اللسان الأجنبي الوافد إليها عبر هذه التكنولوجيات الحديثة والإعلاميات ووسائل الاتصال. وهو بحاجة والحالة هذه إلى نقل للمجالات المختلفة وتطوير أساليبها بالاعتماد على قدراته الذاتية.

إن الإعلاميه اليوم قادرة على استيعاب التحليل اللساني ومراعاة الانظام في الألسن الطبيعية. وهي قادرة على تفكيك البنية اللسانية والوقوف على أنظمتها وقوانينها. وكل هذا عميد في تحليل الخطاب وتأليفه، أو إعادة تأليفه وهذا من شأنه أن يجعل الحاسوب قادراً على التصحيح الذاتي وعلى إعطاء التراكيب السليمة، وإعطاء المترادفات، والتعرف على الوحدات المعجمية أو الكلمات، واستخراج العبارات وتراكيب وترجمة النصوص. كما إن الآلة قادرة على تخزين المعلومات وترتيبها وتصنيفها ومن هذه المعلومات الرصيد المعجمي أو المفردات المتمثلة في بعض القواميس مهما كبر حجمها، والنص في المادة القاموسية تبعاً لمتطلبات الأفراد أو الاستعمال. ويكون الحاسوب في هذه الحالات قادراً على انتقاء الوحدات المعجمية وتقديمها في لحظات وجيزة ومقارنة بعضها ببعض، وتقديم التفسير اللازمة، وتقديم جداول واحتمالات كثيرة معروضة للاختيار. كما يمكن له أن يقدم ترتيبات عديدة للمادة ومداخل كثيرة بحيث يصبح أداة طيعة للاستعمال لا تقارن بأي حال من الأحوال في سرعتها وجدواها بالطرق القديمة المعروفة وبطبيعة الوثيقة الورقية كما يمكن للحاسوب أن يقدم المساعدة وإن ارتكب الإنسان خطأ في تقديم كلمة أو معلومة، إذ له من القدرة أن يصحح أو أن يعالج ذلك تبعاً للبرمجيات أو القواعد التي يحتفظ بها. إن الحاسوب اليوم لا يهتم بالقدرة الفائقة على التخزين وحفظ الأرصدة المعرفية والمفرداتية فقط، وإنما له من القدرة على إيجاد القواميس الإلكترونية. وتعذ هذه القواميس ثروة في عالم المعرفة والتكنولوجيات الحديثة.

إن المعلوماتية اليوم التي تأسست بالأساس في البلدان المتقدمة صناعياً، واهتمت بالنقل بالأسن الهندية الأوروبية في المقام الأول، وأخصمت هذه الألسن دائماً للتحليل والتأليف لتعد، بحاجة إلى دراية من قبل العرب لتحليل لسانهم واتخاذ أداة للتحليل. إن تحليل اللسان العربي والوقوف على طبيعته أو بنيته ليس أمراً سهلاً، وذلك للاختلاف القائم بينه باعتباره لساناً سامياً، وبين الألسن الهندية الأوروبية المستمدة من أصول لاتينية ويونانية. هذا اللسان العربي قد يختلف قليلاً أو كثيراً عن بقية الألسن الهندية الأوروبية في تراكيبه وصيغته ومعجمه واشتقاقاته، بل في أصواته أيضاً. وعلينا نحن العرب إيجاد خصائص هذا اللسان لا من منظور لساني محض، ولكن من منظور معلوماتي أيضاً. ولعل أبرز خصائص هذا اللسان المتعلقة بالحواس الإعلامية ما يمكن إجماله في ما يلي:

١ - النظام الأبجدي

وهو نظام أقرب إلى الجانب الصوتي منه إلى الجانب الكتابي، ذلك أن الحرف العربي ما هو إلا صوت أو صوتم (Phonème)، وما الكتابية العادية إلا صورة للأصوات المنطوقة. غير أن ما يمكن اعتباره عسيراً في الأسجدية العربية أو في نظامها الصوتي أو الصوتي، هو الحركات أو الصوتيات باعتبارها أصواتاً وإن كانت محدودة، وهي لا تظهر في مستوى الخط أو الكتابة، وهي تقدم نظاماً عسيراً في التعامل مع الآلة، وذلك في ما يخص ضبط الكلمات والحمل والتوصص.

٢ - الظاهرة الإعرابية

إن الظاهرة الإعرابية وإن ميزت ثراء اللسان العربي وتراكيبه، بالنظر إلى مجال الحرية الواسع الذي تتمتع به الكلمات داخل التركيب سواء بالتقديم أو بالتأخير أو الحذف أو الإضمار، فإنها ظاهرة تعدّ عسيرة وهي بحاجة إلى حلول في مستوى المعالجة الآلية، ذلك أن الألسن الطبيعية التي تأسست عليها الإعلامية هي في الأساس ألسن غير إعرابية. وظاهرة الإعراب ظاهرة تركيبية وظيفية قائمة على امحلات الإعرابية، وهي ظاهرة دلالية بهذا المعنى لأنها تتضمن المعاني الأساسية في العربية أي الفاعلية والمفعولية والإضافة، أي حالات الرفع والنصب والجر. بيد أنها وفي الآن نفسه ظاهرة صوتية، لأن الإعراب والتوين يتحقق بأصوات سواء كانت حروفاً أو حركات، ولا بد للحاسوب أن يأخذ كل هذا بعين الاعتبار.

٣ - الطبيعة الاشتقاقية لسان العربي

باعتبار الاشتقاق قوة توليدية هائلة لا سجدتها في أغلب الألسن الهندية الأوروبية. والاشتقاق قائم بالأساس على الحروف الأصول. والحروف الأصول ثمن الحاسب الصوتي والدلالي، كما ثمن الجانب التصريفي المتعلق بتصريف الكلمات أسماء كانت أو أفعالاً، وهي ثمن أيضاً الجانب المعجمي هي ما يتعلق بترتيب المادة المعجمية في القاموس. كل هذه المسائل المتعلقة بطبيعة اللسان العربي باعتبارها خصائص لسانية تتميز في الكثير من حالاتها بالاعتراد والانتظام، تجعل اللسان العربي لساناً طسعيّاً، وإن اختلف عن الكثير من الألسن الأخرى، لساناً قابلاً نظرياً للمعالجة الآلية والتحليل الآلي، وذلك بالتأسيس لنظم خاصة للمساهمة في معالجة المنظومة العامة لهذا اللسان، وإن بدت هذه المنظومة مختلفة عن المنظومات السائدة المتعققة بالألسن الهندية الأوروبية. إن العيب في التحليل المعلوماتي بشأن العربية، بعلة يتمثل في اعتماده نظاماً غربية في محاولة لتطبيقها تطبيقاً آلياً على اللسان العربي، وهذا من شأنه أن يفرض خصائص هذه الألسن على اللسان العربي، وإهمال بعض

خصائص هذا اللسان لصالح خصائص أخرى مختلفة، من ذلك تحديد طبيعة منه الحملة والتراكيب والحديث عن مراتب الكلمات ومحلها، ومن ذلك الصيغ الصرفية وحقيقة الاشتقاق المائم على الحروف الأصول ونوليد الكلمات بعضها من بعض، والريادات الحاصلة في الكلمات، ومن ذلك أيضاً المعاني السحوية والمقولات السحوية والشبكات الدلالية الرابطة بين الكلمات.

إن نجاح اللسان العربي في علاقته بالإعلامية سواء باعتباره أداة للتحليل أو أداة قديمة للتحليل، رهين اليوم بمدى استيعاب التكنولوجيا الحديثة وعلى رأسها الإعلامية، والقدرة على تمثل واستيعاب هذه التكنولوجيا وعدم تطبيعها عن اللسان العربي تطبيقاً آلياً، وإنما لا بدّ من النظر إلى خصائص اللسان العربي باعتباره لساناً طبيعياً له ما يميزه عن الكثير من الألسن وله الكثير مما يربطه بالألسن الأخرى. وكل هذا لا بغاية فهم اللسان العربي وطبيعته فقط، وإنما بغاية المساهمة في تطوير التكنولوجيا المعلوماتية والأنظمة المعلوماتية والتحليل المعلوماتي أيضاً. ولا يتحقق كل هذا في اعتقادنا إلا بتوافق شرطين أساسيين: امتلاك ناصية المعلوماتية، وامتلاك ناصية التحليل اللساني.

هذا في النهاية أبرز وأهم ما يمكن أن نذكره في ما يتعلق بحقيقة اللسان العربي في وضعه الراهن، والتحديات التي يواجهها، والآفاق المستقبلية التي يصبو إليها. وضع لساني أبرز ما يميزه مخلصه، وتختلف مرهون بالتخلف الاقتصادي والمعرفي والتعليمي والتكنولوجي والاجتماعي أيضاً. تخلف يبعد تنوق إلى ما هو أفضل. وهذا التنوق لن يتحقق إلا بإرادة سياسية ووعي جمعي ومرددي مرتفع ورغبة ملحة في اللحاق مركب الدول المتقدمة من دون تبعية ولا تقليد، والمساهمة في الحضارات الكونية، والحفاظ على الهويات الثقافية واستقلال الأمم والشعوب.

المراجع

١ - العربية

كتيب

حورح مويان، المسائل النظرية في الترجمة، ترجمة لطفي زيتوني (بيروت: دار المسحح العربي، ١٩٩٤).

انطس الكوش، «إشكالات الفصحى والدارجة»؛ محمد السويسي، «اللغة العربية في مواكبة الفكر العلمي»؛ وشكري فيصل، «قضايا اللغة العربية المعاصرة»؛ في قضايا اللغة العربية المعاصرة (تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٠).

عبد الحميد عبد الواحد، «أثر اللهجة الدارجة في تعلّم العربية المعاصرة»؛ في منهجية تدريس اللغة الأم بالتعليم الأساسي (تونس: المعهد القومي لعلوم التربية، ١٩٩٥).

—، «من إشكالات نقل المصطلح اللساني»؛ في التنوع اللساني والممارسة الجارية، اللسانيات، العدد ١١ (تونس: مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، ٢٠٠٠).

علي بيب، العرب وعصر المعلومات، عالم المعرفة؛ ١٨٤ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٤).

عمود فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح (القاهرة: مكتبة غريب، [د.ت.])

منير ركري، «من قضايا الاتصال اللغوي»؛ ورقة قدمت إلى: واقع اللغات ومستقبلها في تونس: أعمال الملتقى المنعقد يومي ٣ و ٤ أفريل ١٩٩٨ بتونس (تونس: المعهد العالي للغات، مركز النشر الجامعي، ٢٠٠٠).

دوريات

ربيع زكي قاسم، «اللغة والإعلام: بحث في العلاقات التبادلية»؛ المستقبل العربي، السنة ٢٨، العدد ٣٢٤ (شباط/فبراير ٢٠٠٦).

عبد الحميد عبد الواحد، «التواصل اللساني ووسائل الاتصال الحديثة»؛ القلم (صفاقس)، العددان ١١ - ١٢ (٢٠٠٤ - ٢٠٠٥).

عبد، «قاموس الطفل والمستحدثات المعاصرة»؛ القلم، السنة ٤، العدد ٣ (٢٠٠٠).

—، «كتاب الطفل. لغة الطفل»؛ الحياة الثقافية (تونس)، العدد ٩٧ (أيلول/سبتمبر ١٩٩٨).

—، «بحر واللسانيات»؛ القلم، السنة ٤، العدد ٥ (٢٠٠٠).

٢ - الأجنبية

Book

Roman Jakobson, «Aspects linguistiques de la traduction,» dans: Roman Jakobson, *Essais de la linguistique générale* Traduction N. Ruwet (Paris: Editions de Minuit, 1973).

Periodicals

D. E. Kouloughli, «Grammaire de transfert dans le domaine arabe,» *L'Arabisant*, no. 14 (1980).

_____, «Pour une grammaire de transfert: Dialectes/arabe standard,» *Analyses. Théories*, nos. 2-3 (1979).

القسم الثاني

اللغة وثنائية الهيمنة والتطور

الفصل الرابع

نحن واللسانيات: بحث في إشكالات التقاضي

حافظ إسماعيلي علوي^(*)

تمهيد

لقد صدق حدس الأنثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي ستروس (Claude Levi Strauss) عندما أشار إلى أن اللسانيات، ستصبح جسراً حقيقياً أمام باقي العلوم الإنسانية بجميع فروعها (علم اجتماع، وتاريخ، وفلسفة، وأدب) بحكم توجهها العلمي الذي أصبح موجهة بمرمها المصير، وتسمى إليها جميع الاختصاصات في محاولة لتحسين مواقعها وتنتاجها. وهذا ما حصل بالفعل، في الغرب، حيث غدت اللسانيات رائدة العلوم الإنسانية بإطلاق، وهي تحقق لمعها طابع الشمول، والتفرد، والخصوصية حتى أصبح من «فصول القول لدى ذوي العلم والرجحان أن يتحدث المرء اليوم عن منزلة اللسانيات ووجاهة شأنها، فلو فعل لكان شأنه لديهم شأن من يسوء بالرياضيات الحديثة، بين أهل العلوم الدقيقة أو شأن من يستدح قيمة التحاليل المعنوية وكشوف الأشعة في حقل العلوم الطئية»^(١).

لقد أرمكت اللسانيات كل حسابات وافتراضات الراجحين لعلمة العلوم

(*) أستاذ الحق واللغات، كلية الآداب، جامعة ابن زهر أكادير - المغرب.

(١) عيد السلام للسدي، اللسانيات وأصها للمرقية، المكتبة الفلسفية (نوس). الدار التومسية للنشر،

١٩٨٦، ص ٧

لإنسانيه، بل وأعادت النظر في الكثير من المفاهيم المتداولة، ومن ذلك مفهوم العلم وشروط تجمعهم^(٢). وعلى طرف تقيض ملاحظ المتابع لخريطة البحث اللساني في المجال لتداولي العربي، أن اللسانيات لا تزال «ذلك المجهول الذي يشير فينا رعباً وشكاً ونوحساً وخوفاً، أكثر مما يشير فينا مرعة - ولو فضولية - لمعرفة موقفنا من واقع الثقافة، والعلم، والمعرفة في العالم»^(٣).

إن علم اللسانيات لم يحظ بعد بالأهمية التي حظي بها في الغرب؛ إذ على الرغم من «مرور نصف قرن، على معرفته، والعلم به، والبحث فيه، وتدريبه في

(٢) إن علمية اللسانيات أصبحت من السلعات، بالنظر إلى التداخل الكبير بين اللسانيات والعلوم الطبيعية. وهو تداخل يمكن أن يرجع بداياته إلى المراحل الأولى من القرن التاسع عشر مع «شلايشر»، ولا سيما بعد ظهور كتاب داروين أصل الأنواع سنة ١٨٥٩، فتشبع «شلايشر»، بصائد الداروينية فاده إلى اعتبار اللسانيات من العلوم الطبيعية، واعتبر اللغة جهازاً عضوياً لا يختلف عن الكائنات الحية، فهي «الندة» تنشأ وتترعرع ثم تكبر وتشيع وتموت. للمريد من الاطلاع على آراء شلايشر، انظر: هيلكا إيش، «النهضة البحث اللساني، توجه من الإنكليرية سعد عبد الحميد مصلوح ورواء كامل فايد (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، [١٩٩٦]»، ص ٥٧ - ٦٤. وقد تقوت العلاقة بين اللسانيات والعلوم الطبيعية أكثر في عصرنا الحديث، فقد اعتبر مونطاكيو (Montagu) الدراسة اللسانية جزءاً من الرياضيات وهذا ما عبر عنه طوماسون (Thomason) في تقديمه لمقالات مونطاكيو بقول: «كثير من اللسانيين لا يدركون مدى اختلاف تحليل مونطاكيو جوهرياً عن التصورات اللسانية الحالية [] فني رأي مونطاكيو أن التركيب والدلالة والدرجات هي اللغات الطبيعية جزء من الرياضيات لا من علم النفس». انظر: عبد الحميد الماسي القهري، «اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية»، ج ٢، ط ٣ (الدار البيضاء: دار نوبيل للنشر، ١٩٩٣)، ج ١، ص ٤٧. فاللغات البشرية تقوم على علاقات معقدة ومجردة، وعلى معايير تعاملية، ومن ثم فإن الهدف الأخير لهذه المعايير التفاعلية هو وصف الخواص والمميزات اللسانية للغات البشرية في إطار وأنظمة رياضية دقيقة (....) كلما اقترب العلماء في نظرياتهم من الدقة والموضوعية المتناهية كان من الممكن تفسير المهج الرياضي الذي يحمل النظرية أكثر صرامة، وهذا يعني أنه ينبغي علينا أن نفهم النظرية اللسانية من وجهة نظر تجريدية رياضية محنة. وقد ظهرت ملامح التأثير واضحة بين اللسانيات والعلوم الطبيعية بصفة خاصة في أعمال تشومسكي الذي هو صانع على أساس علمي محض، وهذا ما سمى إله فونبيرغ أيضاً فقد «دعا هذان العالمان إلى أنه ينبغي على علم اللسانيات أن يكون فرعاً من العلوم الطبيعية، وبالمخصوص فرعاً من علم البيولوجيا يدرس دراسة علمية تشريحية». انظر: ماري الوهر، قضايا أساسية في علم اللسان الحديث (دمشق: دار طلاس، ١٩٨٨)، ص ٣٦٨ - ٣٦٩.

وتجد هذه الدعوة عبارتها الصريحة في قول تشومسكي: «يجب ألا نستغرب من أنه لا يمكن تطوير مفهوم دال دلالة بوصفها موضوع بحث عقلي، إلا على أساس التجريد الضارب في العمق، وفنابع أسلوب غاليلي في البحث العمري». انظر: Noam Chomsky, *Règles et représentations* (In: n.f. Ed. Propositions, 1961), p. 19.

للمريد من التعصب حول الأسلوب العائلي في النظرية التوليدية، انظر: حافظ إسماعيل عوي، «لاستغرب العائلي في النظرية التوليدية - مقارنة إسيمولوجية بين غاليلي وتشومسكي»، «فكر وفقد»، العدد ٢٠ (٢٠٠٠). ونعبره للزيد عن علميه اللسانيات، انظر: Jean - Claude Milner, *Introduction à une science de la langue: des travaux* (Paris: Editions des seuil, 1989), et S. Aoun, «Fondements de la recherche linguistique: Perspectives épistémologiques. La Place de la science de la linguistique parmi les sciences empiriques», éd. par M. Mahmoûd, *Cahiers de FLEL*, no. 6 (1995).

(٣) منار عياشي، قضايا لسانية وحظورية، ط ١١ (دمشق: دار طلاس، ١٩٩١)، ص ١.

الجامعات العربية مازال علماً عربياً على جمهور المثقفين في الوطن العربي، ناهيك
بجمع عفير من القائمين على تعليم اللغة العربية في المدارس والمعاهد، ونلك - لا
شك - آفة من آفات انفصال الجامعات العربية عن مجتمعاتها^(٤).

إن الواقع الراهن للسانيات في ثقافتنا العربية آثار، ولا يزال يشير، أسئلة كثيرة
عن الأسباب الكامنة وراءه؛ في زمن أصبحت فيه اللسانيات رائدة العلوم الإنسانية،
وإليها يستند دور قيادتها. وهذا ما قاد مجموعة من الباحثين - لسانيين وغير لسانيين
بل القول بوجود أزمة في البحث اللساني العربي، «وتتمثل هذه الأزمة في مجالاته
النظرية، والمنهج، والموضوعات البحثية، والجوانب المؤسسية المتصلة بأقسام تدريس
اللسانيات، وبالأستاذ، وبتدريب الطلاب. كما نجد أن هذا العلم لا يزال هامشياً
مقارنة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى بالرغم من الاهتمام المطرد
للمتخصصين فيه، وبالرغم من الأهمية المركزية لموضوعه - اللغة في المجتمع»^(٥).

إن الأزمة شملت كل مجالات البحث اللساني وكل القطاعات المرتبطة به، وهذا
ما يعبر عنه أحد الباحثين بالقول: «إننا نشكو من أزمة لغوية حادة تلطمح جيبنا
الحضاري، أزمة على جميع الصعد نظيرياً وتعليمياً، نحواً ومهجماً، استخدماً وتوثيقاً،
إبداعاً ونقداً»^(٦). إنها أزمة تطول أعل المؤسسات في الأقطار العربية، أعني المؤسسة
الجامعية، والمسؤولين عنها؛ وهذا ما يحتم الإشكال أكثر ويهدد من حدته، ويجعلنا
نحس بنوع من التناقض الصارح بين واقع البحث اللساني العربي ونظيره في الغرب.

غير أن الإجماع على وجود أزمة في البحث اللساني العربي لا يوازيه تصور
واضح لطبيعتها ومسبباتها، ومن ثم اجترح حلول ماحمة لتجاوزها.

أولاً: اللسانيات العربية: من الأزمة إلى إشكالات التلقي

يرتبط مفهوم الأزمة في مجال البحث العلمي، وتحديدأً عند توماس كون^(٧)
بأمرين اثنين:

١ - بلوغ العلم حداً من التراكم.

(٤) حلمي خليل، دراسات في اللسانيات التطبيقية (د.م.أ. طر المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠)، ص ٩.
(٥) أحمد محمود مشاري، «أزمة اللسانيات في عالم العربي»، ورقة قدمت إلى «اللسانيات وتطويرها في
العالم العربي»، الرماط، نيسان/ أبريل ١٩٨٧، ص ٩.
(٦) نسل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات. رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، عالم المعرفة،
٢٦٥ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠١)، ص ٢٢٦.
(٧) نتحدث هنا عن الأزمة بالمعنى الذي سجله عند توماس كون دون أن يعني ذلك عدم وجود معايير
أخرى لهذا المفهوم.

٢ - سيادة أنموذج إرشادي^(٨).

يتصور توماس كون أن «العلم في فترة من الفترات يحقق ارتباطاً كلياً بين نظرياته المختلفة» بمعنى أن هذه النظريات تؤلف كلاً متماسكاً، هو ما يطلق عليه النموذج (Paradigm). والعلماء في هذه الفترة يسرون في أبحاثهم العلمية وفق هذا النموذج، ومعملون من خلاله، إلا أنه يحدث أثناء وجود هذا النموذج والنزاع العلماء به أن يأتي أحد العلماء ويقع يديه بطريقة أو بأخرى، على كشف علمي هام يخالف الآراء السائدة في النموذج العلمي المعمول به فعلاً، فتتغير نظريات العلماء المعمول بها في ظل النموذج السائد لتحل مكانها نظريات جديدة، ترتبت عن الكشف الجديد، ويبدأ العلم مسيرة أخرى وفق أفكار وآراء جديدة من خلال نموذج جديد يخالف تماماً للنموذج الذي آله العلماء فيما مضى^(٩).

إن نظريات العلم ونماذجها قائمة على التجاوز والإقصاء لا تثبت الصورة ظروفاً حتى يتراءى تفككها، فتبرر معطيات جديدة، وتحدث الأزمة. والعالم دائماً ينتظر هذه الأزمات ويطلب لها، بل يبحث عنها ويخلقها، لأنه لا يستمر إلا بها، ويل هذا بشير كون: «إن رجل العلم الذي يعيش في أزمة سوف يحاول في دأب ومشيرة تصور نظريات تأملية يمكن لها، إذا ما نجحت، أن تميط اللثام عن الطريق إلى أنموذج إرشادي جديد، وإذا ما فشلت أسقطها من حسابه في سهولة ويسر نسبياً لتفسح الطريق لغيرها»^(١٠).

وببغني ألا يفهم التجاوز هنا بالمعنى السلبي للكلمة، لأنه خصيصة علمية؛ إذ يفترض في كل معرفة علمية أن يتجدد بناؤها باستمرار، لأن التوصل إلى العلم معناه، روحانياً، التجدد والقبول بطمرة مباحة يفترض فيها أن تناقض ما مضى، وأن يتجدد بناؤها في كل لحظة؛ لأن استدلالاتها الإستمولوجية سيكون أمامها المجال الكافي لكي تتطور، على مستوى الأمور الخاصة، دون اهتمام بالمحافظة على النسق التاريخي، وهنا ما يشدد عليه غاستون باشلار^(١١).

(٨) كل الإشارات إلى مفهوم الأزمة استقتلها من كتاب توماس كون *The Structure of Scientific Revolutions*. وقد استلما بالترجيح العربيين التاليين: توماس كون، *بنية الثورات العلمية*، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، ١٦٨ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٢)، و*فلسفة العلوم*، تركيب الثورات العلمية، ترجمة ماهر عبد القادر محمد علي، *فلسفة العلوم* (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٨).

(٩) ماهر عبد القادر محمد علي، *فلسفة العلوم*، *للتكاملات المعرفية* (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٢)، ج ٢، ص ٧٦-٧٧.

(١٠) كون، *بنية الثورات العلمية*، ص ١٢٧.

(١١) Gaston Bachelard, *La Formation de l'esprit scientifique. Contribution à une psychanalyse de la connaissance objective*, 8^{ème} éd. (Paris: J. Vrin, 1972), préface.

إن مفهوم الأزمة في مجال العلم، إذاً، يبقى مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بحدوث تراكم
أولاً، وبسيادة النموذج الأكيمي ثانياً. وعطفاً على ما سبق، فإن الصيغة الثورية
لتطورية عند كون تحصح لمراحل محددة ومصبوطة:

١ - النموذج الناجح.

٢ - مرحلة الشذوذ التي تقتضي:

- التساؤل.

- عدم التأكد.

- الشك.

٣ - الأزمات.

٤ - سقوط النموذج الناجح لذلك النموذج.

٥ - النموذج الجديد.

وعليه فالأزمة تتنزل منزلة وسطى بين مراحل سابقة وأخرى لاحقة، وهذا
يقودنا إلى التساؤلات التالية:

هل بلغت اللسانيات العربية مرحلة الأزمة حقاً؟ وهل هي أزمة بالمعنى الذي
نحدثنا عنه آنفاً؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا تتساءل أيضاً بمعنى ما؟^(١٢) أين
يقف علم اللسانيات الحديث في الوطن العربي في ضوء البعد الفلسفي الذي اقترحه
توماس كون^(١٣)، وما هو النموذج الإرشادي السائد حالياً؟

إن الحديث عن أزمة يقتضي أن تكون اللسانيات العربية قد قطعت أشواطاً
بعيدة في كل المجالات، وبلغت حداً من التراكم، ثم عجزت عن بلوغ مرحلة
أخرى تعث المأزق الذي بلغته. والواقع أن اللسانيات في ثقافتنا ما زالت تبحث عن
نفسها وتلمس طريق الانطلاق، حتى وإن انطلقت هي كثير من الأحيان، فقد كان
ذلك في اتجاه غير مرغوب فيه^(١٤).

كما إن اللسانيات في ثقافتنا «كبدان بحث علمي»، لم تثبت أقدامها بعد، لقدرة
لكافي، ولا تزال تفصل بينها وبين المستوى الذي بلغته في جامعات العرب مسافات
كسرة، اللهم إلا ومضات تلمع بين الحين والحين، ترتفع إلى ذلك المستوى، ولكنها

(١٢) الوعر، قضايا أساسية في علم اللسان الحديث، ص ٢٨٧.

(١٣) عبد القادر الفاسي الفهري، «لسانيات الطواغر وبيات التعليق»، ورده قدمت إلى: البحث اللساني
واللغوي (نقطة) (الرباط: منشورات كلية الآداب، ١٩٨٤)، ص ٣١.

في الأعم تتاح جهد فردي خالص^(١٤). صحيح أننا لا نعلم وجود بعض المحاولات التي تشكل استثناء، لكن الحالات الاستثنائية لا يمكن إلا أن تثبت ما هو عام، ومن ثم فإن «هذا الضرب من الكتابات اللغوية المتميزة غالباً ما يضيع في وسط التراكم الموجود من الكتابات التي تفتقر، في معظم الحالات، إلى حد أدنى من مقومات العمل اللساني السليم»^(١٥).

إن النظرة السائدة هي انعدام بحث لساني عربي يضاهي نظيره في العرب، وهذا يعرّى إلى غياب تراكم فعلي، وحتى إن وجدنا من الباحثين من يقر بوجود هذا التراكم، فإنه يعتبره تراكماً سلبياً لا يختلف في شيء عن الفقر المعرفي؛ إذ «يشكل تراكم حتى الآن من التأليف في اللغة، وحولها القديم والحديث في مختلف اللغات الأكثر انتشاراً في عالمنا العربي، عقبة لا تقل حدتها عن صعاب الفقر المعرفي في نفس الميدان، إذ كلاهما يشكل عائقاً يحد من وتيرة نمو العلم في الاتجاه السليم، ويعرقل بناء معرفة تشكل حقاً موضوع الدراسة»^(١٦).

إن التراكم، إذاً، اصطلاح إستعمولي يفترض الاستمرارية في الزمن أكثر مما يفترض القطعية، إذ القطعية عنوان البداية لهابة نموذج إرشادي قائم وسائد، غير أن مفهوم التراكم في اللسانيات العربية يبقى بعيداً عن جوهره، فبدل أن يكون هاملاً أساساً في الدفع بالدراسات اللسانية وتقديمها، يتحول إلى عقبة كأداء تحد من كل تطور، ليصبح من هوائق البحث اللساني؛ وعلى هذا الأساس نتساءل: كيف يصبح التراكم عائقاً أمام تطور النظرية اللسانية؟

ليكون التراكم عائقاً، يكفي أن نجتمع فيه مواصفات من قبيل:

١ - أن يعتبر، عند بحث الظاهرة اللغوية، كل ما حلقه النظائر في اللغة من أعمال تعبّر عنها وتصفها بصرف النظر عن اللغة المدروسة، ولغة البحث، أو عصرهما، فلا يحمل من تلك الأعمال ما يكون في متناول اليد تحت أي علة أو حجة، لأنه بوسع أي فريق من اللسانيين تلفيق مبررات واختلاق أسباب من أجل إعادة تصورات خبرهم.

(١٤) مبروك سعيد عبد الوارث، في إصلاح المنهج العربي: دراسة نقدية (الكويت: دار العلم، ١٩٨٥)، ص ١٧٣.

(١٥) مصطفى خلمان، اللسانيات العربية الحديثة: دراسة عقبة في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، سلسلة رسائل وأطروحات؛ ٤ (الرباط: جامعة الحسن الثاني عين الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، [د.ش.])، ص ١١.

(١٦) محمد الأوراعي، الوسائط اللغوية (الرباط: دار الأمان، ٢٠٠١)، ج ١ أقوال اللسانيات الكلية، ص ٣١.

٢ - أن ينشأ من فحص البعض لتلك التأليف تعارض قوي بين عدد غير قليل من التصورات المختلفة التي كونها النظائر حول أي مسألة لغوية (. . .)

٣ - أن ينشأ حول موضوع الدراسة الواحد المتعين بفئاته أكثر من نظريتين متعايرتين، يصل اختلافهما إلى درجة التضاد، لأن تعدد النظريات والسماذج المتناسقة، وكثرة الآراء والتصورات المتزاخمة، مع وحدة موضوع البحث ووحدة هدف علمه، كاللغة والمساكنات بالتوالي، ليفوتان إمكان الاهتداء في أقصر وقت وبأقل جهد، إلى أنسب النظريتين الواقعتين على طرفي النقيض، حتى امتنع أن تقوم معهما نظرية ثالثة.

٤ - أن تفتعل الشهرة لنظرية لغوية في حقبة معينة، ويصطنع لها التعرف العلمي أو التقني على غيرها، بحيث يتجذب إليها عدد كبير من المهتمين بالمسألة اللغوية رغبة في تحقيق منفعة خاصة، ولا يكون التفاهم حولها لمبلغ مستوى علميتها، كما يزعم أصحابها ويذهب أعوانهم^(١٧).

أمام هذه الأسباب يصعب الحديث عن تراكم على مستوى الدراسات اللسانية في الثقافة العربية، وموازاة مع ذلك، نسجل غياباً للمودج الأكف، فبلى حدود اليوم نجد الواقع اللساني العربي واقعاً تيارياً، وليس واقعاً هادئاً متوحداً، إذ لا يجمع اللسانيون على نموذج واحد ووحيد، يمكن أن يعتبره نموذجاً إرشادياً، بتعبير توماس كون، بل نجد كما هائلاً من النظريات والسماذج، تدعي كلها امتلاك أعلى مستويات الكفاية، وحجية النظر. إن وضماً من هذا القبيل يمكن أن يكون مهيداً، ولكن شريطة أن يوظف بطريقة علمية تبين الاختلافات والصراعات المذهبية الضيقة التي تحد من فاعلية المعرفة.

تقودنا الملاحظات السابقة إلى وجود اختلاف بين الوضع الذي تعيشه اللسانيات في الثقافة العربية ومفهوم الأزمة في النظريات العلمية، وعليه، فإن الوضع الحالي للسانيات العربية يدفعنا إلى البحث عن تفسيرات جديدة لما تعيشه من نقوص، تلك التفسيرات هي ما وجدناه فملاً في ما نعتبره بـ «إشكالات التلقي»، وهي إشكالات سابقة على حدوث الأزمة كما يتحدث عنها؛ إذ ليس من المعقول أن تحدث عن أزمة علم ما ومآله، بالقفز عن مراحل تشكله الأولى وما ينتج منها من إشكالات، فالأزمة عادة ما تكون نتيجة لا سبباً، وحتى إن صح الحديث عن أزمة.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٣١. ومير إلى أننا عندما سوق حجج الباحث، فذلك لا يعني أننا نبيها في سياقها الذي يرومه، بل نسوقها في إطارها العام بعيداً عن كل مذهب أو تشيع ينظرية من النظريات، فنعد النظريات والمفاهيم بينها ليس عاين من عايناتنا هنا، بل الأقل.

فإن إدراك حقيقتها لا يمكن أن يكون إلا بجعلها أزمة انطلاق لا أزمة نمو^(١٨)، أي أن تصورها في سياق النهايات لا في سياق البدايات، وهذه هي الحلقة المفقودة في اللسانيات العربية.

ثانياً: اللسانيات في الثقافة العربية وإشكالات التلقي

يظهر لمتتبع واقع البحث اللساني في الثقافة العربية، أن أغلب الإشكالات المثارة لا تخرج، في عمومها، عن المحددات العامة التي واكبت مراحل التلقي وخصوصيات كل مرحلة على حدة، الأمر الذي شكل لدى المتلقي العربي رتبة على هيئة صراع نفسي حصارى، تعبر عن مظهر من مظاهر التلقي تلك، ونتيجة من نتائجها المباشرة.

وقد راد من تعميق الإشكالات المثارة النقائص الذي ظل يطبع البحث اللساني العربي في المراحل المتوالية، وهذا يفرض ضرورة التمييز في عوائق البحث اللساني في الثقافة العربية الحديثة بين نوعين اثنين من العوائق:

- عوائق موضوعية ذات أبعاد نفسية حصارية.

- عوائق ذاتية مرتبطة بطبيعة البحث اللساني في الثقافة العربية.

١ - العوائق للموضوعية: عوائق التلقي، عواملها النفسية الحصارية

يمكن أن نجمل أهم العوائق المطروحة على هذا المستوى في ما يلي:

أ - صورة الغرب في التخيل العربي

يرجع هذا الصنف من العوائق إلى سبب مباشر يكمن في الصورة التي ترسخت في تخيل المتلقي العربي عن الغرب، وما تولد عنها من ردود فعل متشنجة ركت حضور بعض الأعراف العلمية المترسخة في الثقافة العربية. وللكشف عن تجليات هذه الصورة، لا بد من التوقف أولاً عند مقصدية هذا العنوان، وتعميك الدوال المشككة لسببه:

(١) صورة. الصورة تعبير أو تعابير ذات دلالات معينة ومقصوده، برسم بواسطتها صفات فرد، أو شعب، أو مجموعة شعوب، حيث تترك انطباعاً سلبياً أو إيجابياً لدى القارئ أو متلقي هذه التعابير.

(١٨) هذه الملاحظة يمكن تعديلها إلى كل العلوم الإنسانية في الثقافة العربية بإطلاق النظر إلى الشكل

الذي تتناول به

(٢) الصورة المقولية (Stereotype): إنها التعبير اللفظي لاقتناع موجه إلى جماعة اجتماعية أو إلى فرد من أفرادها. ومن ناحية الشكل المنطقي تبدو حكماً تمنح طئفة من الأشخاص أو تمنح عنها صفات محدودة أو طرقاً سلوكية معينة، بطريقة مسطحة تعميمية غير مسوقة ومغلقة بقيم عاطفية^(١٩).

وقد تعني الصورة أيضاً:

(٣) الحكم المسبق (Préconception): موقف أو مواقف سلبية أو رافضة تتحد تجاه شخص أو جماعة من الأشخاص، حيث تحصل هذه الجماعة بسبب المواقف المقولية على صفات محددة أصلاً، يصعب جداً تصحيحها بسبب الحمود، والعداء، والشحنات الانفعالية.

(٤) الموقف: هو تعبير كلامي أو سلوكي فعلي يوحي برأي صاحبه، ويعكس تصرفاته تجاه شخص ما، أو مجموعة ما، أو وحدة معنوية (دولة، وطن). وكما يقول إيرل ديفيس (Earl Davis): إن الأحكام المسبقة، والصورة المقولية، والنشيبات، ليست إلا جوانب جرتية من مصطلح أساسي أكثر شمولاً هو الموقف، سواء أكانت هذه المواقف في حالة الإدراك، أو في حالة الانفعال، أو في حالة الترويع^(٢٠).

(٥) الغرب: كتب عبد الله العروي يقول: «منذ ثلاثة أرباع القرن يطرح لعرب على أنفسهم سؤالاً واحداً، يظل هو نفسه: «من هو الآخر، ومن أنا؟». في شباط/فبراير من عام ١٩٥٢، وضع سلامة موسى لأحد مقالاته هذا العنوان «لماذا هم أقوياء؟»، وال «هم» لم تكن بأية حاجة للتحديد. «إهم» «هم» الآخرون الذين هم دائماً إلى جانبنا، وهي دواتنا، حاضرون. التفكير هو، بادئ ذي بدء، التفكير بالآخر: هذه القضية الصحيحة أو الخاطئة بالنسبة إلى المرء، يستوثن من صحتها كل لحظة في حياتنا الاجتماعية، وبها بالضيظ ينبغي البدء.

من هو الآخر بالنسبة إلى العرب؟ إنه بعد أن سمي خلال زمن طويل مسيحية وأوروباً، يحمل اليوم اسماً غامضاً ودقيقاً في الوقت نفسه، وهو العرب^(٢١).

إن ما يقدمه إدراج نص العروي هنا هو تمثله العميق للعلاقة بين العرب

(١٩) عمر فرجة، «صورة العرب في الكتب الغربية اللبانية»، في «الغرب في المجتمعات العربية» ثلاثت وتعاملات، تدقيق اللغة العربية حسن مروة، باحثات، ج ٥ (بيروت: تجمع الباحثات اللبانيات، [١٩٩٨-١٩٩٩])، ص ٢٨٧.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٨٧-٢٨٨.

(٢١) عبد الله العروي، الأيديولوجية العربية المعاصرة، قدم له مكسيم رودنسون؛ نقله إلى العربية محمد عسائي، ط ٢ (بيروت: دار الخفجة، ١٩٧٩)، ص ٢٨-٢٩.

والعرب، هذه العلاقة التي طبعت فكر العربي، وأصبحت مكشوراً من مكشورات شخصيته، بل المكون الذي يجب أن نبدأ منه.

وإذا كان الآخر في ثقافتنا المعاصرة هو الغرب، فإن مفهوم «الآخر» اتخذ صوراً مختلفة عبر مراحل تاريخية متباينة، ويبدو أن «الصدمة الاستعمارية» هي التي جعلت الآخر في الثقافة العربية عرباً بعد أن كان متعدداً.

(٦) للتخيل - الخيال - يقصد بالتخيل عادة مجموعة من التصورات المشتركة لدى شعب ما أو فئة اجتماعية ما تجاه فئة أخرى أو شعب آخر، وهي تصورات تنقل بواسطة الثقافة. ويحدد محمد أركون التخيل بقوله:

١ - إنه ملكة استحضار شيء ما كنا قد رأيناه سابقاً.

٢ - إنه ملكة خلق صور لأشياء غير واقعية، أو لم تر أبدأ في السابق، أو ملكة التركيب، لصور معروفة سابقة، ولكن بطريقة جديدة.

٣ - إنه الملكة التي تمكننا من بلورة المفاهيم والتصورات والنظريات الجديدة، وإيجاد تجارب عملية في كل المناسبات.

٤ - إنه عبارة عن العقائد الخاطئة التي تنصورها النفس، ونجسدها في الخيال خارج كل رقابة أو سيطرة للعقل»^(٢٢).

مرور من هذه التحديدات الكثيف عن بعض التشكلات التي تحدد أفق انتظار المتلقي العربي (متلقي اللسانيات)، وعلاقتها بالمتلقي العام، وبأشكال الثقافة، حتى إذا ربطناها بمتلقي اللسانيات كانت الصورة أجمل وأعمق رؤية وتفسيراً. وتجدد الإشارة إلى أن استعمالنا لمفهوم «صورة» بصيغة المفرد، لا يعني به مطلقاً أن هذه الصورة واحدة مؤتملة، بل هي جمع بصيغة المفرد، وهي كذلك لأنها في الواقع مركبة ومتغيرة، ولأنها لا تكون هي في كل مناسبات التلقي.

وما ينبغي أن نؤكد أيضاً أن الكشف عن بعض تجليات هذه «الصورة» لا يعطس فكرة واضحة عن علاقتنا بالغرب فقط، بل يمكننا من استجلاء - أولاً وقبل كل شيء - بعض محددات بنية الفكر العربي؛ لأن الصورة تعبير عن أوضاع المجتمع التي ترسخها الثقافة السائدة؛ وهذا ما عبر عنه تودوروف (T. Todorov) بقوله: «من المهم (...) إدراك أن صورة الآخر تخيل إلى واقع من يسيها وتعبير عنه، أكثر مما يحل

(٢٢) محمد أركون، «الإسلام، عالم وسياسة»، ترجمه هاشم صالح، الفكر العربي المعاصر، السنة ١٦،

المجلد ٤٧ (خريف ١٩٨٧)، ص ١٧.

بلى واقع من نبت صورته^(٢٣). ويقول في موضع آخر: «إن معرفة الآخر مرسل هوئي الخاصة بي، والمعرفة بالآخر تحدد معرفتي بفتي، وكل إضافة في معرفة الآخر هي إضافة إلى معرفة الذات»^(٢٤)، وهذا ما يروم الوصول إليه.

إن صورة الغرب، إناء، على الرغم من تعقدتها وتركيبيتها واختلافها، ناتفة وتوحد لتشكيل «صورة واحدة في العقل العربي تتراوح بين اللاوعي الجماعي والتحليل الحصري أو الأنثروبولوجي، غير أن الجامع أو المنطلق هو الحرح العربي الذي لم يندمل»^(٢٥)، فكيف ساهمت هذه الصورة في التأثير في تلقي اللسانيات في الثقافة العربية؟

ب - صورة الغرب الفكري في التخيل العربي، وتأثيرها في تلقي اللسانيات

تأخذ صورة العرب الفكري في التخيل العربي كل أشكال التعريف التي حددناها آنفاً، حيث ترسخ فيه «أن الغرب غاز في طبيعته أو في تاريخه، وهذا الشعور يتأسس على أن العرب افتحم دار الإسلام التي كتب الله لها الفتح والنصر (...)، الشعور العربي المعاصر يرى في هذا حرباً كولونيالية استيطانية في دنيا العرب»^(٢٦)؛ فالعرب هو المفتصب والمستعمر، وناهب خيرات الأمة. ولم يكن بالإمكان الفصل بين قمع الغرب وأهدافه العسكرية، وبين ثقافته التي لا يمكن أن تكون إلا ثقافة غطرسة واعتداء وإنتاجه الفكري.

وهل هذا الأساس، فإن «العرب الحالي يبدو في أن واحد استعماراً اقتصادياً، وهيمنة سياسية، ومنهجاً فكرياً، وسلوكاً أخلاقياً. والثقمة العرب الذين ينتهجون سلوكه ويستعملون منطقهم يعتبرون متحالفين معه»^(٢٧). رد على ذلك أن هلاقتنا بالغرب قائمة على تبادل المواقع، ومن ثمة فكل أحد عه أو استعظام لإنتاجه الفكري هو حكم بالصباع على ثقافتنا واستمرار لحصارها، ومن هنا وجب الرقص المطلق

(٢٣) Tzvetan Todorov, *Nous et les autres: La Réflexion française sur la diversité humaine*, contact des idées (Paris: Seuil, 1989), p. 32.

(٢٤) Tzvetan Todorov, «La Connaissance d'autrui» dans: Tzvetan Todorov, *Les Morales de l'histoire* (Paris: Ed. Hachette, 1997), p. 48.

(٢٥) جورج حنجر (الطراي)، «صورة العرب في المجتمعات العربية»، في الغرب في المجتمعات العربية: مقالات ونقاشات، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٥٧.

(٢٧) عبد الله المروي، العرب والفكر التاريخي (بيروت: دار الحفظة، ١٩٧٢)، ص ٧.

لكل ما هو غربي لأن ذلك يعجل بانتهاته، ويصح المجال لتوحيث الثقافي ليكتمل في إطار تبادل الأدوار^(٢٨).

لقد شكلت هذه المعطيات أسباباً كافية للحد من أهمية كل متوحيث ثقافي عربي، مكروي أو مادي، ومقاومته مقاومة غريزية، وهذا النوع من المقاومة أعمق تأثيراً بسبب تهويك الغريزة على العقل بتعبير نيتشه (Nietzsche).

(١) اللسانيات علماً غربياً

اللسانيات علم انبثق عن الخوص المعرفي الغربي؛ إذ لا يمكننا - نحن العرب - معرفة هذا العلم الجديد إلا من خلال باقاة اللغات الأجنبية الإنكليزية أو الفرنسية، ذلك أنه للحق وللناريخ، وإنصافاً للعلم والعلماء، لا يمكننا إلا أن نعترف بأن اللسانيات الحديثة هي محض العقلية الغربية التي أنتجتها^(٢٩). وعلى هذا الأساس، فإن البحث اللساني لا يمت بصلة إلى اللغة والثقافة العربية واللغة العربية؛ لأنه بحث أوجده ظروف اللغات الأوروبية التي تختلف في انتماءاتها، وتكوينها، وبيئاتها، وشعوبها المتكلمة بها، وتاريخها، عن العربية وظروفها، اختلافاً كبيراً يجعلنا في موقف رافض لكل ما يبراد من الباحثين المعاصرين العرب أن يسلكوه، أو يتعاملوا به مع العربية^(٣٠).

لهذا، كانت اللسانيات معنية بشكل مباشر بهذا الصراع وبهذه المقاومة، فكان من الطبيعي أن تقاوم مقاومة أشرس. وقد اعتبرت شكلاً من أشكال الإمبريالية لعنانية، لأنها «تسمى جامدة إلى تشجيع كل صوت يضرب على وتر الانسلاخ من لغة العربية الواحدة والثقافة العربية الأصلية بشي الأشكال الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والعلمية (اللسانية)»^(٣١).

نحمر عن هذه النظرة الكثير من الكتابات العربية، سواء كانت لسانية أو غير لسانية. واللسانيات علم غير نافع، بالنظر إلى أهدافه الاستعمارية التي يتوحد معها ويخدم غاياتها؛ لأن «في نشأة الدراسة اللغوية هي «أوروبا» ما يدل على أن للاستعمار

(٢٨) هذا ما يعبر عنه الطاهر لبيب بقوله: «إذا كانت دورة الأنا في العمة تكون دورة الآخر في القاعدة، وإذا كانت دورة الأنا في القاعدة تكون دورة الآخر في العمة»، انظر الطاهر لبيب، «لا حرم في ثقافة معهودة»، في: العرب في المجتمعات العربية - تميلات وتفاعلات، ص ٢٦٢ - ٢٦٨.

(٢٩) الوعر، قضايا لسانية في علم السلوك الحديث، ص ٢١.

(٣٠) رشيد عبد الرحمن العبيتي، «الأسس المعاصرة والعربية»، الفخائر، السنة ١، العدد ١ (تسا،

٢٠٠٠)، ص ٣١.

(٣١) الوعر، المصدر نفسه، ص ٣٧٩.

وحملات التبشير المسيحية دوراً رئيساً ساعد على ظهورها، وانتشارها، وتطورها، للوصول إلى شعوب العالم التي يقصدونها ويرجون من ورائها السيطرة والعبود^(٣٢).

ويربط محمد محمد حسين بين الصوتيات، أحد فروع البحث اللساني، والاستشراق وأهدافه الاستعمارية بقوله: «اقتربت الدراسات اللغوية الحديثة على الطريقة العربية - والصوتية منها بنوع خاص - بالدعوة إلى العناية باللهجات العامية وآدابها، أو ما يسمونه «الأدب الشعبي»، والدعوة بشكلها هذا جديدة على الدراسات لعربية، لم يسمع للداع بها صوت قبل القرن الأخير، وقد نشأت أول ما نشأت باقتراح بعض المستشرقين من رجال الاستعمار»^(٣٣).

إن الحفاظ على اللغة العربية لا يمكن أن يكون إلا بإبعادها عن مساهج اللسانيين لمحدثين التي تتسم بالتناحر والتنافر، «إن العربية، مع ما وصل إلينا من دراسات في لسان العربي، وقوام هذه الدراسات، وإيفائها بما يحتاجه البحث المعاصر من معرفة، وفهم، وإدراك لما كانت عليه، وما آلت إليه الدراسة اللغوية الحديثة - ولا سيما الأوروبية - ينبغي لها أن تكون بمأى عن أن يفهمها الباحثون العرب في تلك المآرق والمجاهل التي لا تخرج منها إلا بتساخرات وتناقضات مذهبية ليست العربية بحاجة إليها، ولا تمت إليها بصلة؛ فكيف العربية وشخصيتها، وأصولها، وضوابطها، ونصوصها الأصلية وأثارها الواصلة إلينا، قد اكتسبت درجة الاكتفاء الدائم، وحملت معها عناصر بقائها ودبومتها واستمرار قوتها، وسر حيويتها وحركتها وإنعاشها، ببقاء كتاب الله العزيز، وبهذا التراث العظيم الواصل إلى أبنائها مدوناً ومحفوظاً ومدروساً، مكتوباً زاداً ثراً ومعياً لا ينضب، يستمد منه أبنائها ما هم بحاجة إليه من التقلية والتوعية والتثقيف»^(٣٤).

وقد وجدت مثل هذه الدعوات من يدعمها من اللسانيين، دون تمحيص أو تدقيق، يقول منذر عياشي «لقد وجد البحث اللغوي العربي نفسه تبعاً لعدد من الممارسات الاستشراقية التي أرادت فرض سيطرتها عليه، والانحراف به عن النهج العلمي، بغية التشكيك في الحدود التاريخية للإنتاج المعرفي هي المحاصرة العربية الإسلامية. كما وجد نفسه أيضاً تبعاً لعدد كبير من النظريات والمناهج والمدارس العربية وذلك لأنه لا يملك نظرية خاصة به، مستوحاة من المحاصرة التي يريد أن

(٣٢) عبد الصمد حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، ط ٢ [القاهرة]، مطبعة الجلاوي

(١٩٨٩)، ص ٧٠

(٣٣) محمد محمد حسين، مقالات في الأدب واللغة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦)، ص ٤٨

(٣٤) الصلبي، «الأكسية المعاصرة والعربية»، ص ٢٥

يسمى باسمها»^(٣٥)، وهذه واحدة من المشكلات التي أرقت البحث اللغوي في ثقافتنا، وحالت دون أخذه لموقعه الصحيح بحسب الباحث، ويشهد على هذا من خلال الربط بين الاستشراق والاستعمار من جهة، واللسانيات من جهة أخرى يقول: «أما العثات التبشيرية، فقد تجل دورها في الإلحاح على قطع صلة الشعوب المستعمرة بماضيها الحضاري. وأما حركة الاستشراق، فقد سعت حثيثاً لتحريف ونشويه تاريخ الفكر العربي والتشكيك فيه. كما إنها ركزت جهوداً جبارة للتقليل من أهمية اللغة العربية ودورها الحضاري حتى بدت في عيون بعض (المتفهمين) العرب لغة ميتة لا علاقة لها بالعصر الحاضر، ولا تقي بحاجة التطور العلمي»^(٣٦).

وإلى الطرح نفسه يعيل عبد السلام المسدي، عندما يربط بين أهداف الاستشراق والدراسات اللسانية ممثلة بدراسة اللهجات؛ يقول: «لا مهرب لنا من الإقرار موضوعياً بأن بعضهم [يقصد المستشرقين] قد عمل على اردهار علم اللهجات العربية بباعث، إما سياسي غايته استعمارية، وإما عقائدي يهدف إلى تقليص البعد الديني والوزن الروحي الذي للعربية عند أهلها، وإما مذهبي يرمي إلى نقص التركيب الهرمي في المجتمع انطلاقاً من ذلك بنيتة المعكبة»^(٣٧)؛ وهذا يعني أن العناية بدراسة اللهجات كان لأهداف ميتة، والحال أن هذا الاهتمام أملت طبيعة البحث التي كانت سائدة في تلك الفترة بالدرجة الأولى. ويربط عبد الله بوخلخال بين العناية باللهجات والأطماع الاستعمارية بقوله: «ولكن لما ظهرت ملامح أطماع الأوروبيين في استعمار العالم العربي، والبحث عن كل الوسائل والأساليب التي تسهل لهم التسلل بين الجماهير العربية، تبنت لهم ضرورة الاهتمام باللهجات العربية العامة وتعليمها، فأدخلوا تدريس العربية في مدارسهم وجامعاتهم، مستعينين في ذلك ببعض العرب الدير كانوا يحملون في بلادهم أو يزورونها من حين إلى آخر، والمستشرقين الذين كانت لهم معرفة دقيقة باللهجات العربية، وكان هدفهم تعليم القناصل والمبشرين والجناسيس الأوروبيين المرسلين إلى البلاد العربية»^(٣٨).

إن مثل هذه الدهوات ما زالت مستمرة إلى يومنا هذا؛ إذ نجد من يربط بين الاستشراق واللسانيات ربطاً ألياً، ويعتبر اللسانيات لباساً جديداً للاستعمار، وهذا ما يعبر عنه محمد حسين الأعرجي بقوله: «علينا أن نفرق بين مدرستين في

(٣٥) عياشي، قضايا لغوية وحضارية، ص ١٥.

(٣٦) الصفرغ، ص ٣٣.

(٣٧) المسدي، اللسانيات وأسسها اللغوية، ص ١٦.

(٣٨) عبد الله بوخلخال، «الدهوة إلى العامة» أصولها وأهدافها، «الأطوب» (الجزائر)، العدد ١

(١٩٩٤)، ص ١٦٥ - ١٦٦.

الاستشراق: مدرسة أوروبا الغربية، ومدرسة أوروبا الشرقية، فإذا نجد أن المدرسة العربية لا تخلو من أهداف استعمارية، بقيت عالقاً بها إلى اليوم، ولكن بلبوس آخر بسفي لسانيات، تركز على دراسة اللهجات المحلية، وبنوية تنتهي إلى قتل حاسة مذاق الجمال الأدبي حيناً آخر^(٣٩).

إن اهتمام اللسانيات بدراسة اللهجات ودراسة الأصوات، جر عليها تبعات كثيرة بالنظر إلى الدور السلبي الذي كرسه الاستعمار في اهتمامه بهذا النوع من الدراسة، ومن ثم بالنظر السائدة هي أن كل دراسة تهتم بهذه الجوانب هي دراسة استعمارية؛ وعلى هذا الأساس، فإن هذا النوع من الأراء يربط بشكل عموي وآلي بين الاستشراق والاستعمار من جهة، والبحث اللساني من جهة أخرى، من دون الالتباه إلى ما يقوم عليه هذا الربط من مغالطات.

كما رفضت اللسانيات بذرائع أخرى، منها أنها منهج بحثي خاص بلغات أخرى؛ ولذلك، من العسر والتعذر أن يطبق هذا المنهج الذي وضع مناسباً للغة - أو لغات ذوات سمات خاصة - على لغة امتلكت في دوائها قوة خلودها وبقائها راسخة على خصائصها^(٤٠). وأي تطبيق من هذا القبيل يشكل انصرافاً عن البحث اللغوي العربي الأصيل، وهذا رأي العبيدي الذي يقول «ولعلني لا أبالغ إذا قلت: أن ثمة غلواً محموداً ينفذ به نفر من المغررين بالبحث الألسني الأوروبي في هذا القرن، يهدف إلى الانصراف عن البحث العربي الأصيل إلى الألسنية الحديثة، ولا سيما المعنيين بالعربية، ممن تعلموا شيئاً عند العربيين، أو اطلعوا على ما جاءت به الترجمات من كتب البحث اللساني في فرنسا وغيرها من أقطار أوروبا بعد سوسير (١٩١٣م)، وهو بحث مفهم على العربية، بعيد عن أنماطها وخصائصها، وإدخال أهلها في ميدان غير مناسب لها، وغير متلائم مع طبيعتها، في الوقت الذي كانت الدراسات العربية الأصيلة قد أتت أكلها وخدمت الحرف العربي خدمة لا مثيل لها، وأبرزت خصائص هذه اللغة إبرازاً متكاملأ، لا يحتاج معه أينالؤها إلى مزيد من المداخلات والتعقيدات التي يتسم بها البحث الأوروبي الحديث»^(٤١).

(٢) اللسانيات رمزاً للحدثة

إذا كانت اللسانيات معرفة غربية، فإنها علاوة على ذلك تدخل في دائرة

(٣٩) محمد حسين الأعرجي، «أهداف الاستشراق ما لها وما عليها»، مجلة المشرق (سوريا)، المجلد ٩، العدد ٣١ (٢٠٠١)، ص ١٧. (التشديد من عتقا).

(٤٠) العبيدي، «الألسنية المعاصرة والعربية»، ص ٢٢.

(٤١) المصدر نفسه.

المعارف الحديثة؛ ولهذا لم تسلم من دائرة الصراع بين الغداعة والحدائق، أو ما عبر عنه بالأصالة والمعاصرة؛ قضية الفكر العربي الأولى والأساسية على حد تعبير محمد عابد الجابري^(٤٢). وترجع جذور هذا الصراع - كما هو معروف - إلى بداية عصر النهضة؛ وقد كانت الدراسات اللغوية معنية بشكل أكبر بهذا الصراع لاعتبارات كثيرة ترتبط بالدين، واللغة، والقومية، فكان من الطبيعي أن يتحرط المعربون في هذه الدائرة كل من موقعه الخاص.

إن البيان العربي كله مؤسس على سحر الكلمة ووقعها، وإذا كان الأمر كذلك، فلا نستغرب إذا وجدنا الموقف الحضاري بارزاً في كل قضايا اللغة، فقد اعتبر الكثير من اللسانيين العرب الدراسة اللسانية أساساً للبرهنة على صحة التراث ونفوذه وقوته، وهذا ما نمر عنه الكتابات اللسانية العربية التي حاولت الربط بين اللسانيات والتراث اللغوي العربي دبطاً ألياً (لسانيات التراث)^(٤٣)، فلم تخرج بذلك في مجملها عن دعوات مماثلة أطلرت الفكر العربي في كليته.

على طرف نقيض، نجد من اللسانيين من يرفض الرجوع إلى الماضي، فالمعرفة اللسانية معرفة حديثة، شأنها في ذلك شأن كل العلوم الإنسانية، لذلك، يجب أن نجردها من أي تاريخية ممكنة، لأن ذلك مما يسيء إلى الفهم، ويبعدنا عن الانخراط في معجزات العصر، فالطريق الأمثل لتمادي الاستلاب التراثي، هو الخضوع للوعي التاريخي الذي سيفتح أعيننا على الواقع لأول مرة، ويمكننا من أن ننظر إلى اللغة والتراث وتاريخنا الخاص على أنها مواد متصلة عنا، لا نستطيع أن نتصل بها إلا عن طريق التحليل والتركيب العقلي.

لقد انخرط اللسانيون العرب في قضايا الفكر العربي بشكل مباشر، لا يختلف في شيء عن باقي أشكال الفكر الأخرى، وبذلك ظلت القضايا المرتبطة بأسئلة النهضة هي نفسها موضوع نقاش بين اللسانيين؛ إذ على الرغم من مرور سنوات

(٤٢) محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٢)، ص ٣٤.

(٤٣) أبحث هذا الصنف من الكتابات اللسانية التراث اللغوي العربي القديم في شموليته موضوعاً لدراساته المتوعدة. أما المنهج الذي يصدر عنه أصحاب هذه الكتابات فهو ما يعرف عادة بمناهج القراءة أو إعادة المعرفة. ومن حايات لسانيات التراث وأهدافها قراءة التصورات اللغوية القديمة وتأويلها وفق ما وصل إليه البحث اللساني الحديث والتوفيق بين نتائج الفكر اللغوي القديم والتطبيقات اللسانية الحديثة، وبالتالي إحياءها في حلة جديدة تبين قيمتها التاريخية والحضارية. انظر: غلمان، اللسانيات العربية الحديثة: دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، ص ٩٢. وقد حاولنا الكشف عن أهم تجليات هذا الاتجاه في دراسة معونه بعنوان «اللسانيات والتراث اللغوي العربي» (قد الإصدار).

عديده على الأسئلة المثارة، فإن استخلاص جواب نهائي يعجل بحل الإشكال المطروح ظل بعيد المنال، وبخاصه في ظل المتغيرات المتلاحقة التي غطت مؤخراً في العولمة وما تطرحه من قضايا فكرية وثقافية، «وتتحكم في رقاب هذا الموضوع أسئلة عديدة من قبيل: بأي وضع لغوي نستقبل ما يسمى بعصر العولمة؟ وبأي وعي لساني يلج هذا العصر؟ أهو وضع (ووعي) لغوي متأخر أم متقدم؟ وهل يسمح أو لا يسمح بالتحديث؟ وما دور اللغة (ات) في التحديث؟ وبأية لغة (ات) منحز هذا التحديث؟ وكيف حال اللغة (ات) التي يراد لها أن تحدثنا؟ وهل عمل كل ذلك التراكم اللساني العربي (...) على بدء لبنات التحديث»^(٤٤).

لا شك في أن هذه الأسئلة تفسر الإجابة عن سؤال إشكالي واحد أي لسانيات عربية لعصر العولمة؟ غير أن تلك الأسئلة لا يمكن أن نخفي عنا حقيقة أساسية وهي إعادة صياغتها للأسئلة التي طرحت إبان عصر النهضة، وهذا يعني أن الذي تغير هو سياق السؤال لا غير.

يعلم من ذلك أن الأسئلة التي طرحت سابقاً هي نفسها ستعاود الظهور بقشيب جديد، يخضع لتغيرات القول لا الجوهره، فمن أي وضع لساني ستحدث في عصر العولمة، وماذا أعددا لذلك؟

الأكيد أننا سنجنر أسئلة الماصي، وسنركن إلى إطلاق الأحكام الجغرافية، وسنربط العولمة بانتشار الثقافة الأوروبية، وبالإستيطان، والاستعمار، والمحاكاة الثقافية^(٤٥)؛ وهذا غير جديد على ثقافتنا، ما دامت هذه الأطروحات قد ترسخت في متحيلنا، ونقشت بحجر يصعب محوه.

ما هي المنزلة التي سينزلها اهتمام اللسانيين العرب بالثقافة أو الحديثة؟ وما هي الطريقة التي سيفكرون بها في ذلك؟ وما هي أبرز تجليات هذا التفكير؟

نقد ولدت العوامل السابقة إحساساً عند المنلقي العربي بضرورة الاعتماد على المعطيات الحاصرية التي ترسخت عبر التاريخ، وهو إحساس سيجد له في ذاكرته لمردية والجماعية ترسبات تدعّمه، فكانت أولى الاهتمامات، تلك التي همت الحداثة الساني العربي مثلاً في مكانة اللغة العربية ومنزلة النحو العربي.

(٤٤) مبارك حنون، «اللسانيات والعولمة»، فكر ونقد، العدد ٢٤ (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٩)،

ص ١١٢

(٤٥) المصدر نفسه، ص ١٤٤

● مكانة اللغة العربية

ارتباطاً بالأسباب النفسية والحضارية، نشير إلى «المهابة والتفديس اللذين يباشر العربي ولا سيما اللغوي - بهما لغته والتراث البياني الذي شأ حولها، فمن المسلم به أن علوم البيان تشكل في الفكر العربي الأساس المتين الذي وازى العترة الأساسية لعلوم العرب، فقد اغتدى البيان من كل معارف العرب وأحصاها؛ ولذلك، تأسس حيال علوم العربية من الاعتداد ما لا يعادله إلا تقديس العربية ذاتها»^(٤٦). في هذا السياق يقول المسدي: «ومن هذا الواقع الحضاري المعرني نشأت لدى العربي رؤية من القداسة تجاه لغته النوعية وتجاه علمته اللغة ذاتها، كما نشأ ميّاج من المحطورات ترسخت بموجبه عقدة الاستغناء»^(٤٧)، فأين تظهر هذه القداسة؟ وكيف أثرت سلباً في تلقي اللسانيات؟

إذا كانت اللغة وسيلتنا لإدراك العالم، فإن المعادلة تنقلب هنا ليصبح إدراكنا للعالم هو ما يتحكم بشكل أو بآخر في قضايا لغتنا ونظرتنا إليها، ويحدد أفق انتظاراتنا، فاللغة العربية ترتبط بكيان المتلقي العربي ارتباطاً لا يضاهاه، هذا الارتباط تابع من اعتبارات دينية، وحضارية، ونفسية.

إن اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم المحجزة الربانية الخالدة التي شرف الله بها أمة العرب، وكرمها لما أنزل آحر كتاب سماوي - وهو كتاب ناسخ للكتب السماوية السابقة - بلسانها^(٤٨).

إن التشريف الذي حظيت به اللغة العربية، باعتبارها لغة القرآن الكريم، جعل قدسيّتها من قدسية القرآن ومكانتها من مكانته، فكان من الطبيعي أن يربط العرب بين اللسان العربي والأعمال الإيمانية، كما هو الحال عند الإمام الشافعي الذي

(٤٦) حسن السوفاني، «أثر فرغيناند دي سوسير في البحث اللغوي العربي»، ص ٣٠.

(٤٧) عبد السلام المسدي، «الفكر العربي والأكنية»، ورقة قدمت إلى «اللسانيات واللغة العربية (سورة)» (نوس: الجامعة التونسية، ١٩٨٧)، ص ١٢.

(٤٨) انظر القرآن الكريم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة يوسف، الآية ٢]؛ ﴿وَكُنْذِرْ أَوَّلْنَاهُ حَكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة الرعد، الآية ٣٧]؛ ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَاهُ لُغَةَ الْبَشَرِ لِسَانَ الَّذِي يُلْحِثُونَ إِلَيْهِ أَحَجْمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مَعِي﴾ [سورة النحل، الآية ١٠٢]؛ ﴿يُرْسَلُ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [سورة الشعراء، الآيات ١٩٣ - ١٩٥]؛ ﴿وَكُنْذِرْ أَوَّلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة طه، الآية ١١٣]؛ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا خَيْرٌ ذِي حُجُوجٍ﴾ [سورة الزمر، الآية ٢٨]؛ ﴿كَتَابٌ فَصَحَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة فصلت، الآية ٣]؛ ﴿وَكُنْذِرْ أَوَّلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر، الآية ٢]؛ ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ لِقَوْمٍ عَلِمُوا وَيُشْرَى لِلْمُعْتَصِمِينَ﴾ [سورة الأحقاف، الآية ١٢].

يقول «عل كل مسلم أن تتعلم لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمم به من التسييح والتشهد وغير ذلك»^(٤٩). ويشير ابن فارس إلى ضرورة تعلم اللغة العربية لارتباط ذلك بتعلم القرآن والسنة بقوله: «إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا، سبب حتى لا عسى بأحد منهم عنه، وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله عربي، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله... وما في سنة رسوله... من كل كلمة عربية أو نظم عجيب، لم يجد باللغة بدا»^(٥٠).

وهذا يفرض بالضرورة الحفاظ على هذه اللغة والاعتناء بها، لأن حب العربية من حب القرآن، وحبها من حب الله «إن من أحب الله أحب رسوله المصطفى، ومن أحب الرسول أحب العرب، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العرب والعجم، ومن أحب العربية عني بها وثابر عليها وصرف عليها همه»^(٥١). وتستمد اللغة العربية المناهضة التي حظيت بها من مجموعة مقومات، فهي:

أ - لغة القرآن الكريم: تكمل الله سبحانه باللغة العربية وبرعايتها وحفظها، فكان في حفظ القرآن حفظ للغة العربية، وكل من «يؤمن بأن القرآن حقيقة خالدة، يجبر على أن يؤمن بأن لغة القرآن - وهي العربية الفصحى - هي أيضاً حقيقة خالدة، لأن خلودها مرتبط بخلوده، وبقاءها ببقائه»^(٥٢). يشهد على ذلك كون العربية هي اللغة «الوحيدة بين المجموعة السامية التي ثبتت على مر العصور، في حين لم تثبت تلك اللغات»^(٥٣) التي عاصرتها أو تكونت بعدها.

ب - رمز العروبة والإسلام: إن تعلم اللغة العربية أمر واجب على كل مسلم، «لا عروبة ولا إسلام لمن لا يحسن اللغة العربية ويقرها من أبناء العرب، وإذا

(٤٩) محمد بن إدريس الشافعي (الإمام)، الرسالة، بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر (بيروت: المكتبة العلمية، [د.ت.ل.])، ص ٥٠.

(٥٠) أبو الحسين أحمد بن زكريا بن فارس، الصحاح في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها (بيروت: [د.ت.ل.])، ١٩٦٤، ص ٦٤.

(٥١) أبو منصور عبد الملك بن محمد التميمي، فقه اللغة وسنن العربية - معجم تراقي في المعاني (بيروت: دار مكتبة الحياة، [د.ت.ل.])، ص ٢.

(٥٢) عبد العلي الوديعري، اللغة والدين والهوية (الدار البيضاء: مطبعة الجناح الجديدة، ٢٠٠٠)، ص ٣٠.

(٥٣) إبراهيم السمرقاني، اللغة والحضارة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٧)، ص ١٤٩.

حيث اللغة العربية حيا معها الاعتزاز بالشخصية العربية، والتعلق بكتب التراث، وعلى رأسها القرآن والحديث وسير الأبطال والصالحين^(٥٤). وهذا الارتباط بين «العروبة والإسلام من أروع ما تفتفت عنه عبقرية الإسلام، وهو وجه من وجوه إعجازه»^(٥٥).

ج - لغة الحضارة والقومية: إن حضارة العرب في كليتها مبنية على الكلمة وسحرها وبيانها، أو لتعل بالكلمة الواحدة إنها حضارة لغو، لغو لا قدح فيه، فلم كانت العربية شاملة لكل ميادين الحياة أخذت اللغة أيضاً هذا الطابع الشمولي، وهي ميرة أخرى لا تعدلها فيها لغات أخرى، وإلى هذا يذهب صاحب كتاب دفاعاً عن العربية، حيث يقول: «أما الحضارة العربية - الإسلامية التي تحملها وتحريها اللغة العربية، فإنها عنيت بنواحي الحياة كلها، فإنها عنيت بأسمى معاني الإنسانية، فهي أولاً حضارة روحية وأخلاقية. ثم إنها حضارة تشريع، ثم إنها حضارة فلسفة وفكر متفتح، ثم إنها حضارة علمية درست الطبيعة والإنسان دراسة تجريبية، ثم إنها حضارة أداب وصور جميلة، ثم إنها حضارة صناعة وتجارة، فاللغة العربية تحمل ثروة من الثقافة الإنسانية لا تنضب»^(٥٦).

إن الارتباط مكن بين لغة العرب وحضارتهم، وكل منهما مبني على الآخر، وعليه فإن «الحضارة لا تتأني لأحد إلا عن طريق اللغة. الحضارة في نوع من التعريف الموجز، هي لغة، وعن طريق اللغة يكون التفكير كله، ويكون التفاهم كله، ويكون التواصل كله، ويكون التفاعل بين العقول والأفكار، اللغة هي أضخم عملية حضارية، تنشئ الحضارة وتتمثلها وتعبّر عنها، وهي ذات رصيد حضاري لا حدود له، ولهذا، فإن نمو لغتنا وازدهارها وقيامها بدورها الفكري هو معلم من معالم حياتنا الحاضرة، وطريق أساسي من طرق بناء المستقبل»^(٥٧).

للاعتبارات السابقة تكون الوحدة اللغوية للأمة هي المسيل لوحدها السياسية، واقتصادية، والاجتماعية. وهي أساس غيرها الحضاري، «فليست تتم الوحدة السياسية، وتستقيم النظم الاجتماعية في شعب من الشعوب إلا على أساس الوحدة

(٥٤) حميد، مقالات في الأدب واللغة، ص ١٣

(٥٥) شكري فيصل، قضايا اللغة العربية - بحث في الإطار العام للموضوع، «اللسان العربي» (الرباط)، العدد ٢٦ (١٩٨٦)، ص ١٦.

(٥٦) فاضل الجمالي، دفاعاً عن العربية، تقديم الشاذلي الفليبي (تونس - مؤسسات عبد الكريم من عبدالله للشر والتوزيع، ١٩٩٦)، ص ٢٣

(٥٧) فيصل، المصدر نفسه، ص ١٧.

للمعوية التي تصح للشعب بمثابة رباط محوري يجذب أقرانه بعضهم إلى بعض، ويوثق الصلة بينهم فيفكرون في عقل واحد، ويشتركون في مشاعر وأحاسيس موحدة، وينعاونون على ما فيه خيرهم، وما يكفل لهم الأمن والاستقرار والرحمة^(٥٨)، فكانت اللغة بكل ذلك «أس الأساس في كل قومية»^(٥٩).

ما عتبار ما سبق، «يتبين لنا أن العربية، مع ما وصل إلينا من دراسات في اللسان العربي، وقوامه هذه الدراسات، وإيقاتها بما يحتاجه البحث المعاصر من معرفة، وفهم، وإدراك لما كانت عليه، وما آلت إليه الدراما اللغوية الحديثة - ولا سيما الأوروبية - ينبغي لها أن تكون بمثابة عن أن يقحمها الباحثون العرب في تلك المآرق والمجاهل التي لا تخرج منها إلا بتناحرات وتناقضات مذهبية ليست العربية بحاجة إليها، ولا تمت بصلة إليها، فكيان العربية وشخصيتها، وأصولها، وخرائطها، ونصوصها الأصلية وأثارها الواصلة إليها، قد اكتسبت درجة الاكتفاء الذاتي، وحملت معها عناصر بقائها وديمومتها واستمرار قوتها، وسر حيويتها وحركتها وإثرائها، ببقاء كتاب الله العزيز، وبهذا التراث العظيم الواصل إلى أبنائها مدوناً ومحمولاً ومدرّساً، مكتوباً راداً ثراً ومعيناً لا يهبط، يستمد منه أبنائها ما هم بحاجة إليه من التغذية والتروية والتثقيف»^(٦٠).

هل هذا الأساس، تكون المكانة التي تحظى بها العربية ذات أسباب نفسية ترتبط بالخطوة التي نالتها من القرآن الكريم. كما إن هذا الاهتمام له جذوره في التراث العربي، ومن ثمة يمكننا أن نفهم أن آراء بعض المحدثين هي استمرار لآراء القدماء ونفسك بها.

إن غايتنا من النصوص التي مضاهها أعلاه هي الربط بين الأسباب ومبانيها، فلا شك أن ما تصدح به تلك النصوص يعطينا فكرة واضحة عن علاقة العربي بلغة، وهي علاقة تشمل كل جوانب الحياة، فكان من الطبيعي أن ينظر العربي إلى لغته نظرة خاصة، ويبحث لها عن كل أشكال التميز، وأن يفتقد عليها أهل الأوصاف وأجلها، فهي «لغة ذات عبقرية»^(٦١)، وهي «سيدة لغات العالم القديم»^(٦٢)، بل هي «أبرز ملامح ثقافتنا العربية، وهي أكثر اللغات الإنسانية ارتباطاً

(٥٨) إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعلمية (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠)، ص ٧

(٥٩) المصدر نفسه، ص ٨

(٦٠) العبدلي، «الأسس المعاصرة والعربية»، ص ٢٥.

(٦١) قاسم راني، اللغة والحضارة، ص ١٤٩.

(٦٢) المصدر نفسه، ص ١٤٩

بالهوية، وهي اللغة الإنسانية الوحيدة التي صمدت سبعة عشر (١٧) قرناً سجلاً أميناً لحضارة أمتها^(٦٣)، فهل من المعقول أن يفرط العرب في لغتهم «الرابط الذي بقي لهم بعد أن خسروا أكثر المعارك»^(٦٤). وهل من الموضوعي أن نغارن ونساري بين اللغة العربية ولغات أخرى في ضوء مستجدات البحث اللساني؟ وهل تصح المقارنة في ضوء التفاوت الحاصل بين لغة العرب ولغات غيرهم؟... هذه الأسئلة وغيرها كثير تلخص جوانب من إشكالات تلقي اللسانيات في الثقافة العربية؛ وهي الإشكالات التي ظلت المحدد الأول لأفق انتظار التلقي العربي في علاقتها باللسانيات.

● منزلة النحو العربي

يحتل التراث النحوي العربي مكانة متميزة في الثقافة العربية، لحججه الهائل، وكثرة العلماء الذين أقبلوا على دراسته والتأليف فيه، ثم لحصوره الدائم في ذاكرة الجماعة وتوجيهه لكثير من اختياراتنا وسلوكياتنا، مهما تنوعت أشكال هذا الحضور والتوجيه^(٦٥)، فقد نبت هذا النحو «هند العرب كما نبت الشجرة في أرضها»^(٦٦)، كما إنه «أبقى العلوم العربية عروبة»^(٦٧)، ويكفي هذا النحو فخراً أن ينعت كتاب سيبويه، وهو أول كتاب نحوي بـ «قرآن النحو»^(٦٨)، ففي هذا الوصف إشارة واضحة إلى القداسة والاحترام اللذين يحظى بهما النحو في ثقافة العرب.

وقد زاد من مناعة النحو وقوة حضوره في ثقافة العرب ارتباطه المكين باللغة العربية وبقيضاها، لذا، كانت أهمية النحو من أهمية اللغة، وقداسة من قداستها. تشير إلى هذه اللحمة القوية تلك الروايات الكثيرة التي تربط نشأة النحو العربي بصون القرآن الكريم من اللحن، بعد اختلاط العرب بالأعاجم وفساد الألسنة.

لقد كانت نشأة النحو، لأجل هذا الغرض الديني الذي يروم الحفاظ على الكتاب المنزل، المعجزة الخالدة، وهذا تحديداً ما جعل من الدراسات النحوية

(٦٣) علي، الثقافة العربية وحصر المعلومات. رؤية لتقبل الخطاب الثقافي العربي، ص ٢٢٩

(٦٤) فيصل، فضائل اللغة العربية. بحث في الإطارات العام للموضوع، ص ١٨.

(٦٥) عز الدين مجدوب، لتوالي النحوي العربي: قراءة لسانية جديدة (تونس - دار محمد علي الخامس، ١٩٩٨)، ص ١١.

(٦٦) عبد المجيد، النحو العربي والدرس الحديث. بحث في النهج، ط ٩ (بيروت - دار النهضة العربية، ١٩٨٦).

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٩.

(٦٨) المصدر نفسه.

والنعوية عموماً أثقل مظهر عقلائي عربي، ودفع علي حرب إلى وصل الحضارة العربية في كتبها بالدراسات اللغوية، مبيناً أنه: «إذا كانت الحضارة العربية قد انطلقت من سمي «الأعجوبة اليونانية» التي قفزت بالفكر من المستوى الخرافي إلى المستوى العقلي، فإن الأعجوبة اللغوية هي التي صنعت الحضارة العربية»^(٦٩).

إن المكيدة التي يحظى بها التراث النحوي في الحضارة العربية لا تنعش على الدهشة بالنظر إلى حصورها الفوي في ذاكرتنا الجماعية فحسب، بل بالنظر أيضاً لمقاومتها القوية لكثير من التيارات الجارفة، وهي مقاومة لم تبدعها الثقافة العربية في مجالات أخرى عديدة، فقد اصطدم العرب بالغرب ومنتجاته الفكرية في مجالات شتى مادية وبطرية، ولكن ما يلاحظ هو أن العرب استسلموا أمام الغرب بعد أن «انهزموا أمام علمه المادي، فسوا طبيعيات ابن سينا وغيره، وانهزموا أمام علم اجتماعه، فأصبح ابن خلدون وغيره في دمة الدين التاريخي، وانهزموا أمام علم نفسه، فسوا علم النفس لابن باجة، ولكن جرءاً كبيراً منهم لم ينهزم أمام علم اللغة الغربي»^(٧٠).

إن أسباب هذا الصمود ليست طبيعية، ولا شك، لأنها لو كانت كذلك لتلاشت بسرعة، ولكان الانهزام كما حصل في مجالات أخرى عديدة، إن هذه المقاومة لا يمكن أن تفسر إلا بالعوامل الآتية:

١ - ضخامة التراث اللغوي العربي، وارتباطه في ذهن باللغة العربية؛
فالتخلي عنه فخل عن العربية (...)

٢ - سوء تقويم الواقع الغربي (...)

٣ - الحساسيات القومية التي يظهر مفعولها في الموضوع اللغوي ويختفي مع الموضوعات الأخرى^(٧١).

إن هذه الأسباب ترتبط بما أسلفنا الحديث عنه في الفقرات التي خصصتها للمحديث عن أهمية اللغة العربية، كما نجد تفسيرها في الأهمية التي حظي بها النحو أيضاً، غير أن أسباباً أخرى لهذه المناعة التي حظي بها النحو العربي تبقى واردة، ومن ذلك ما يرتبط بالجانب النفسي على الخصوص. لقد كان لظهور النبوة في

(٦٩) علي حرب، «الحقيقة والجزء»، نظرية لغوية في العقل والدولة، «دراسات عربية»، العدد ٦ (نيسان/أبريل ١٩٨٦)، ص ٤١.

(٧٠) لطيفة حليم، «الاتجاه البراكمتي»، عالم الفكر، السنة ١٧، العدد ١ (نيسان/أبريل - حزيران/يونيو ١٩٨٦)، ص ٢٤٣.

(٧١) المصدر نفسه، ص ٢٤٣.

المجتمع العربي آثار سيبكو - موسيولوجية بتعبير الأستاذ أحمد العلوي^(٧٢)، ومن تلك الآثار ما يفسر مناعة النحو في الثقافة العربية، والنهضة الإسلامية قبل إلى تقسيم الاختصاصات بين الأمم، وعلى هذا الأساس ربطت الفلسفة بفروعها بالمجتمع اليوناني، والحكمة والحساب بالهند، والشعر والآداب بالعربية، فلما ظهر النحو وعلوم الدين كان من المفروض ربطهما بأمة العرب، وإلى هذا يشير أحمد العلوي بقوله: «ليست العربية في صورتها النحوية أو المعجمية نظاماً محدلاً له مثل عند الأمم الأخرى، ولكنه علم عربي بصنف بجانب العلوم الأخرى التي تشترك في إقامتها الشعوب والأجناس (...). إن الشعب العربي، في ذهن المجتمع الإسلامي، قد حل معه علمين، هو الحقيق بأن يؤخذ عنه هما علم الدين وعلم العربية، وهما علمان يضافان إلى العلوم الأخرى التي عرفتها الإنسانية من قبل^(٧٣)، لقد كانت هذه الأسباب كافية لجعل الوجود اللغوي والوجود القرآني حقيقتين متوازيتين قائمتين في صميم المجتمع الإسلامي، بحسب العلوي دائماً.

كان من الطبيعي إذاً، أن تفرض هذه الأسباب مجتمعة نفسها وحضورها من الذهنية العربية، وأن تحضر بهذا الشكل أو ذلك، كلما تعلق الأمر بدراسة تنحو منحى الدراسات النحوية، كما هو الحال بالنسبة إلى اللسانيات. لقد كان لكل ذلك بالغ التأثير في توجيه عملية التلقي.

إن اللسانيات هي نتاج غربي محض، فلم يكن من المستغرب، ولا من المقبول أن يسلم العربي أموره اللغوية إلى اللسانيات، بعدما ظل تراثه اللغوي صامداً قائماً لفرون عديدة، حتى بلغ درجة البضح والاكتمال، فقد «نصح النحو العربي حتى احترق»، وكل تعريض في هذا الإرث الزاخر يعد طمساً لمقوماته الحضارية وتفريطاً في نصيبه من تركة العلوم، بعد تقسيم الاختصاصات بين الأمم.

٢ - العوائق الذاتية: اللسانيات واللسانيون وتكريس الوضع القائم

نقصد بالعوائق الذاتية مختلف الأشكال المرتبطة بتلقي اللسانيات في الثقافة العربية في علاقتها باللسانيات واللسانيين، وهدفنا من ذلك الاستدلال على أن

(٧٢) يقول أحمد العلوي: «نحن اليوم ندرس ظاهرة السوء وظهورها في المحاز يشيء من الموصوع والهدوء، ومنعظم، مع ذلك، الانقلاب الذي أحدثته في قطاع من العالم من الناحية التاريخية - الاجتماعية، ونكسا ساسي الآثار البسيكو - موسيولوجية التي تكون قد تركتها في المجتمع البشري»، مجموع المسلمين وعبرهم عن استنظا بطل الدولة الإسلامية. انظر أحمد العلوي، «فلس منهج البحث في اللغويات العربية»، مجلة كلية الأظاب والعلوم الإنسانية (جامعة محمد بن عبد الله، قاس)، العدد ١ (١٩٧٩)، ص ٣٦.

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٣٨.

الوضع الراهن للسانيات في الثقافة العربية اليوم لا يرتبط بالإشكالات المطروحة على صعيد الفكر فحسب، بل يتعدى ذلك إلى اللسانيات نفسها. ويمكن أن نعبر - على مستوى العوائق الذاتية - بين نوعين من العوائق: بعضها يتصل باللسانيات، وبعضها الآخر يرتبط باللسانيين.

أ - اللسانيات وعوائق التلقي^(٧٤)

يمكن أن نجعل أهم العوائق التي تطرحها اللسانيات العربية، وتساهم من خلالها في تكريس الوضع القائم في ما يأتي.

(١) غياب اهتمام واضح بقضايا المجتمع

كما يعاب على العلوم الإنسانية عامة في الثقافة العربية، علاقتها المضطربة بالمجتمع العربي، مما وسعها بوضع غير مطمئن من حيث المصادقية ومن حيث المردودية التنموية، وهذا ما طبع مسيرتها بعلامح الضعف على مستوى الإبداع، والإنتاج، وعدم الفعالية في الحصة والتراكم. ويبدو أن اللسانيات لم تشذ عن هذا الواقع، على الرغم من المكانة التي تحظى بها، مقارنة بباقي العلوم الإنسانية الأخرى.

من هنا، لا يمكن أن نفصل بين راهن اللسانيات في الثقافة العربية وإشكالات التلقي الناجمة عنها؛ فهناك منطق يجمعها، حتى وإن ظهرت لها أبعاد مختلفة.

تبدو اللسانيات عاجزة عن المساهمة في حل المشكلات اللغوية ذات الارتباط الوثيق بموضوعها، فالمجتمعات العربية، كما هو معروف، غنية بتنوعها الثقافي وتعددتها اللغوي، مما قاد إلى مجموعة من المشكلات اللغوية المتداخلة على مستويات مختلفة منها: المستوى التعليمي، والاجتماعي، والثقافي، والسياسي،... الخ. والملاحظ أن اللسانيات ظلت غير آبهة بهذه المشكلات، وكأنها لا تمت بصلة إلى مجالات اهتمامها، وهذا ما قد يفسر بعجز اللسانيات عن الانخراط في القضايا العمة للمجتمع، وعدم امتلاك الأليات والأدوات الكفيلة بإيجاد مخرج للكثير من المشاكل المطروحة؛ وكل ادعاء من هذا القبيل يبقى مفتقداً للحجج تبسده على المستوى العملي، ومن هنا لا نجد المشكلات اللغوية «الاهتمام اللازم من علم اللسانيات كما هو ممارس من العالم العربي، هذه المشكلات تتصل بمجالات الحياة العامة في الفنون (...)، وفي الطب (...)، والصناعة (...)، والإدارة (...).

(٧٤) اعتمدنا في استخلاص هذه المعطيات على أحمد محمود عشاري، «أزمة اللسانيات في العالم

العربي»، ورقة قدمت إلى اللسانيات واللغة العربية، ص ١٢.

والإعلام (...)،... الخ. وهذه مشكلات قد لا نجد لها وعياً مباشراً بها، ولكن هذا لا يعني أنها غير موجودة، أو أنه لا أثر لها، أو أنه لا ضرورة لإثارها في عياب الوعي الشعبي بها كمشكلات، بل مهم غامراً أن يتدخل اللسانيون وأن يعملوا المعرفة اللسانية التخطيطية لدراسة هذه المشكلات، وتفسيرها، ولتقدم بحلول عملية لها^(٧٥).

(٢) هامشية اللسانيات ومحدوديتها في القضايا والتحديات التي تواجه الأمة

تبني القضايا والتحديات التي تواجه الأمة العربية الإسلامية أقل وطناً، إذا ما قورنت بتحديات أكبر فتصل بقضايا الوحدة والتجربة، على المستويين القومي والقطري، وبمسائل الاحتلال الإسرائيلي، ونقل التكنولوجيا، وكذلك بقضايا الشرعية وحقوق الإنسان، وتنطوي كل واحدة من هذه القضايا على بعد لغوي يكون حصيصة لازمة لها، أو ناتجاً سلبياً منها، أو عاملاً جوهرياً في فهمها وتفسيرها، بل وفي تغييرها.

وبما تفرض هذه الإشكالات حضورها يوماً عن يوم، تسجل اللسانيات هيباً يكاد يكون شبه كامل عن هذه القضايا. ولا تمثل الجوانب اللغوية في هذه القضايا موضوعات بحثية قارة في جدول الأبحاث اللسانية. ولا تتوافر في هذا العلم أصولية معرفية لإدراك وتفسير تعقيدات البعد اللغوي في تداخله مع تلك القضايا^(٧٦).

إذا كان الوضع اللغوي هو أول ما يجب أن يطرح بصفته إشكالية للبحث، فإنه يظل هامشاً، بل لا يناقش هل الإطلاق، وكأن وافقنا وحدة متجانسة لغوياً. ويمكن أن يفسر غياب الاهتمام اللازم بالقضايا الكبرى للمجتمع بالحساسيات التي تثيرها بعض القضايا المطروحة؛ كما هو الحال بالنسبة إلى تدريس اللهجات، هذا الموضوع الذي ظل دائماً «غائباً» في أجندة البحث اللساني في العالم العربي، ولكن لا نراي مشروعية وجوده محدودة. وليست محدودية هذه المشروعية بسبب التصورات حول الاستعمار والمستشرقين وتآمرهم ضد العاصمي فحسب، ولكن لأن الدراسات اللهجية اقتصررت في أغلبها على البنية اللغوية: الأصوات، النحو والمعجم، وأهملت سبياً الجوانب الاجتماعية^(٧٧). وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه آنفاً عندما ألمحنا إلى تأثير العديد من اللسانيين بالوعي «الشمي» السائد.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٧٦) المصدر نفسه، ص ١٤.

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٣) عبء اللسانيات عن حل مشاكلها الخاصة

إذا كانت اللسانيات العربية عاجزة عن إيجاد حلول ممكنة للكثير من إشكالات ومصايا المجتمع، فإنها تبدو عاجزة أيضاً عن حل الكثير من الإشكالات المرتبطة بموضوعها، ومن ذلك إشكالية المصطلح اللساني، وإشكالية تعريف المعاهم اللسانية، وهما إشكالتان غير منفصلتين من جهة النظر، حتى وإن بدا لنا ذلك، فما هي أهم الإشكالات المثارة على هذا المستوى؟

(أ) إشكالية المصطلح اللساني في الثقافة العربية

تبقى قضية المصطلح من القضايا التي أولتها اللسانيات أهمية خاصة، باسطر إلى أهميتها في تيسير العلوم وبناء صرحها، وخلق نوع من التقارب بين العلماء، وتوفير الجهد على الباحثين، وتقليص مجالات الاختلاف بينهم. وكل نجاح للعلم يتوقف في جانب منه على تحديد وضبط جهازه المصطلحي؛ لأن «مفاتيح العلوم مصطلحاتها، ومصطلحات العلوم تمارها القصوى، فهي تجمع حقائقها المعرفية وعنوان ما يتميز به كل واحد مما سواه. وليس من مسلك يتوصل به الإنسان إلى منطق العلم غير القاطنة الاصطلاحية، حتى كأنها تقوم من كل علم مقام جهاز من الدوال ليست مدلولاته ولا محور العلم ذاته ومضامين قدره من يقين المعارف وحقائق الأقوال»^(٧٨).

وبالنظر إلى الرصيد الفعلي للسانيات العربية في مجال الدراسة المصطلحية، نجد أنه ما زال يشكو من عقبات حقيقية؛ لغياب رصيد اصطلاحية مشترك يوحد اللسانيين ويؤلف بينهم، فرصيد المصطلحي في مجال اللسانيات هو ضرب من الأهواء النابعة من الميول والانتكاس الشخصي الذي لا يتقيد بمسجعية علمية دقيقة.

إن اللساني الذي يضطلع بمسؤولية تطوير ومواكبة وتوليد اللغة - هي جميع الحفول المعرفية - يبقى عاجزاً عن البدء بالمجال الأقرب إليه والمعني به بشكل مباشر، وهذا يولد شعوراً بالإحباط وإحساساً بالخيبة.

(ب) إشكالية التعريب

ليست قضية التعريب قضية حديثة، كما قد يعتقد البعض، بل هي واحدة من القضايا والمباحث المتشعبة التي ظلت تلهم بعنتها الثقيل على الثقافة العربية. وقد ظهرت ملامح تشكلها منذ بداية القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من ذلك، وما لا يحدها إلى حدود اليوم إجماعاً حول دواعي التعريب ودوافعه، فهذه القضية المرتبطة

(٧٨) عبد السلام المسلي، قاموس اللسانيات (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤)، ص ١١.

بجوهر اللغة وفلسفتها عند فريق، وهي مرتبطة بوفاء مسيرة العصر ونقيضه عند فريق. ثم، هي دواع وطيفية، أقلها طبيعة العمل الخاص، عند نفر قليل منهم^(٧٩)

إلى جانب الاختلاف الحاصل على صعيد الرؤية، تسجل اختلافات أخرى لا تقل أهمية، وهي ذات ارتباط بالجانب المنهجي. وقبل أن نمضي في الكشف عن أهم تجليات إشكالات السلفي المطروحة على هذا المستوى (المنهجي)، مشير بدءاً إلى أن العوائق للثارة، بخصوص قضية التعريب، تبقى مرتبطة في جوانب كثيرة منها بالعامل النفسي والبنية الفكرية.

بالنظر إلى هذه الصعوبات، ظلت القضايا الكبرى المطروحة على مستوى التعريب بعيدة عن كل الحلول الممكنة، على الرغم من الجهود المبذولة، وحتى لا ندخل في مناهات التفاصيل سنقصر الحديث على القضايا الأكثر ارتباطاً بالإنسانيات.

يتخذ مصطلح التعريب في الثقافة العربية دلالات كثيرة منها:

أ - هو عند العرب اقتراب، وعمل على إصهار المقرب ليصبح من صميم النظام العربي.

ب - في معناه اللساني الاجتماعي (Sociolinguistique) قد يعني إدخال اللغة العربية محل لغة أخرى غير العربية (وهذا يدخل في إطار التخطيط اللغوي وخطط التدخل).

ج - تهيئة اللغة، وتسميتها، وتطويرها، لتصبح بنظائرها قادرة على أن تقوم بالوظائف التعبيرية التي تقوم بها لغات أخرى.

د - نقل النصوص أو المصطلحات من لغة غير عربية إلى اللغة العربية، وهذا ضرب من الترجمة. ويدخل في هذا الباب أيضاً تعريب الأدوات التقنية كالبرامج الحاسوبية مثلاً، لتصبح قابلة لاستقبال العربية أو تحليلها.

هـ - إدخال اللغة العربية في قطاع تهيمن فيه اللغة الأجنبية، دون أن يكون للتعريب حظ في هذا المحيط، فيجعل العربية حاضرة إلى جانب لغات أخرى، لا شك في أنه يدخل ضمن تحسين مكانتها وتطوير نشرها^(٨٠).

(٧٩) رياض قاسم، اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي، ج ٢ (بيروت: مؤسسة نوفل، ١٩٨٢)، ج ٢، ص ١٥٢ - ١٥٦.

(٨٠) عبد العاد القاسمي المهري، القارئة والتخطيط في البحث اللساني العربي (الدار البيضاء: دار بوقال للنشر، ١٩٩٨)، الكتاب الأول، ص ١٥٨.

هذه التحديدات نعطينا فكرة واضحة عن المقصود بالتعريب من الوجهة اللسانية، كما حدد الأهداف المتوخاة منه، وهي ما يمكن أن تلخصه استناداً إلى رأي العاسي الفهري في: «تطويع وضع اللغة الداخلي، وإعادة النظر في وضع اللغة المحيطي أو الخارجي»^(٨١).

غير أن تحديد الأهداف وتوجيهها لم يواز في الشفافة العربية باتفاق بين اللسانيين، بالنظر إلى تباين الاقتراحات الكفيلة بتحقيق تلك الأهداف، وهذا ما نسب في نوع من الخلط والاضطراب.

ب - اللسانيون العرب وتكريس الوضع القائم

إلى جانب العوائق السالفة الذكر، يساهم العديد من اللسانيين العرب في تكريس تأخر ركب البحث اللساني العربي وتعميق إشكالاته؛ ويشد ذلك في:

(١) الموقف السلبي من واقع اللسانيات

تكشف الملاحظات التي سبقنا سابقاً عن الواقع المتردي للبحث اللساني في الثقافة العربية. لكن وعلى الرغم من ذلك، نجد أن العديد من اللسانيين لا يأبهون لهذا الوضع، وكأن الأمر لا يعنيهم في شيء.

إن وضعاً من هذا القبيل أساء إلى اللسانيات وإلى اللسانيين أنفسهم، ما فسح المجال لتداول الكثير من المعالطات في الساحة اللسانية العربية. والأكيد أن اللسانيين العرب «لو امتثلوا لوصايا العلم الكلي، لبان لهم أن من أشد ما يقترون بوظائفهم تعقب الطرق التي تقدم بها معارفهم إلى من يعرفها من الناس ومن لا يعرفها»^(٨٢). وهذا ما لا نجد وعياً به.

(٢) التراث والحدثة اللسانية^(٨٣)

لم يستطع الكثير من اللسانيين النخلص من وهم الصراع بين القدماء والحدثة، وهو صراع نمسي بالدرجة الأولى، إلى هذا يومئ؛ ماؤن الوهر بقوله: «إن أساس لصراع بين الأصالة اللغوية والمعاصرة اللسانية ليس صراعاً بين الأعمال الدعوية لبرالية التي وضعها العرب القدماء، وبين الأعمال اللسانية المعاصرة التي وضعها

(٨١) المصدر نفسه، ص ١٥٩.

(٨٢) المدي، اللسانيات ولها المعرفة، ص ١٨.

(٨٣) عرض الدكتور مصطفى غلمان جوانب من هذا الإشكال في كتابه: اللسانيات العربية الحديثة، وتقريب إلى المعطيات التي ساهمها معطيات أخرى لها لارتباط وثيق بالموضوع.

علماء اللسانيات المحدثون في الغرب. إن الصراع في جوهره يكمن بين الباحثين العرب أنفسهم، (كامتداد للأزمة النفسية الفردية التي يعاني منها إنساننا العربي) بين الباحثين الذين يشدهم التاريخ القديم إلى أقصى مسافات اليمين، وبين الباحثين الذين يشدهم التاريخ الحديث والمعاصر إلى أقصى مسافات اليسار، وبهذا فإن المعادلة الثقافية ستكون عرضة للاهتزاز والتفكك، وستحقق معاناة إقامة التوازن بين الأصالة والمعاصرة^(٨٤)، وهذا يغتو الصراع بين القديم والحديث من الإشكالات التي توارق البحث اللساني العربي، شأنه في ذلك شأن الثقافة العربية برمتها. وعلى هذا الأساس، فإن أحد أشكال المشكلة العلمية لللسانيات في الوطن العربي هو التجزئة عن محور القديم التراثي والحديث، وليست المشكلة في وجود التجزئة في ذاتها، ولكن في مصاحبتها ونواتجها المؤسسية من صراعات بين اللسانيين ليست كلها علمية، ومن إهدار للطاقات. وإذا يكون للقديم كما للحديث موضوعاته البحثية المصنفة، وطريقاته، ومناهجه، فقد ظهرت محاولات للتوليف والدمج. ولكن هذه المحاولات قليلة، وتكتنف تعريضها صعوبات ومعوقات تعصل بالتبث المؤسسي للسانيين^(٨٥).

إن الصراع بين التراث والحداثة يلقي بثقله على توحيد اللسانيين وتقليص المسافات بينهم، ويشهد على ذلك تجدد اللقاءات والندوات العلمية، وفي ذلك خير تعبير عن عمق امتداده، إذ يلاحظ المرء أنه في كل مؤتمر أو دورة لسانية كثيراً ما تدور الأحاديث والمناقشات حول التراث اللغوي العربي المتمثل بالأعمال التي وضعها الصوتيون والنحاة والبلاغيون العرب القدماء، وحول اللسانيات الحديثة كعلم قائم برأسه والمتمثل بالأعمال اللسانية التي وضعها وطورها الصوتيون والنحاة والدالليون الغربيون في الولايات المتحدة أو في أوروبا^(٨٦)، وهذا ينم عن مجدر الصراع واستفحاله.

(٣) عدم تكامل البحوث اللسانية العربية

مهما يحاول اللساني مبر أغوار الظاهرة اللغوية، فإنه لن يتوصل إلا إلى حقيقتين: ما هو جزئي؟ نظراً إلى التشعب الكبير لقضايا اللغة، وهذا يقتضي توحيد الجهود وتقسيم الاختصاصات بين الباحثين للتغلب على العقبات المثارة، ولما في عمل اللسانيين العربيين أسوة حسنة؛ فالمعروف أن تشومسكي مثلاً، استطاع تطوير نماذجه التوليدية اعتماداً على آراء منتقديه ومعاونيه، كما أسس في الوقت ذاته إلى

(٨٤) الوعر، قضايا لسانية في علم اللسان الحديث، ص ٣٥٤ - ٣٥٥.

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٣٥٩ وما بعدها.

(٨٦) المصدر نفسه، ص ٣٥٢ - ٣٥٣.

أطروحات علماء من تخصصات أخرى محاكمة أو غير محاكمة، ما أكسب السحر
التوليدي قدرة فائقة على تطوير نماذجه واستمرار تجديدها.

وعلى طرف يقضي، نجد الصراع على أشده بين اللسانيين العرب، وهو صراع
استعد في كثير من الأحيان عن حدود اللياقة وتجاوز اللسانيات إلى التلاسن^(٨٧). وقد
ترتب على هذا عروف اللسانيين عن كتابات بعضهم، وحتى إن حصل نوع من
الإقبال أحياناً، فإنه لا يكون إلا بنوايا مبيتة تهدف إلى النيل من الكاتب ومن قدرته
العلمية والمعرفية لا غير. وقد لا يحصل ذلك بين اتجاهات لسانية مختلفة، بل كثيراً ما
يجده داخل الاتجاه اللساني الواحد.

(٤) المعجز من مواكبة مستجدات البحث اللساني

يرتبط هذا الإشكال بـ «المستوى المعرفي لكثير من اللسانيين العرب الذين لا
يواكبون ما بطراً على الدرس اللساني من تطورات نظرية هامة. انضح ذلك مثلاً في
الندوة التي عقدتها منظمة اليونسكو بالرباط سنة ١٩٨٧ حول «تطور اللسانيات في
البلدان العربية»، حيث إن كثيراً من اللسانيين العرب المشاركين في هذه الندوة لم
يتمكنوا من متابعة بعض البحوث اللسانية، ولا سيما بحوث المغاربة. وللإشارة، فإن
المشاركين في هذه الندوة يعدون من صفوة اللغويين العرب المحدثين وأكثرهم
تأليفاً^(٨٨). وقد عبر أحمد المتوكل عن هذه المسألة بوضوح بقوله: «شعرت من خلال
العرض الذي ألقته حول ما أنجزته في إطار النحو الوظيفي أن الجسر اللساني بين
ربين إخواننا العرب لم يوجد بعد، وكان ذلك واضحاً من خلال الأسئلة التي أقيمت
علي بعدما انتهت العرض»^(٨٩).

وتعبر بعض الكتابات اللسانية عن هذا المعجز الواضح عن مسايرة مستجدات
البحث اللساني، كما هو الحال في بعض المؤلفات اللسانية التمهيدية^(٩٠). والكثير من
مؤلفي هذا النمط من الكتابة يرددون الكثير من مبادئ الدرس اللساني التي تهوررت
مد زمن بعيد.

(٨٧) من العبارات التي تعبر عن هذا. لسانيات الاشرقيات إلى التلاسن. وقد نحاشينا ذكر التواضع
والموصوف صراً لكل أشكال الصراع.

(٨٨) علماء، اللسانيات العربية الحديثة - دراسة عقلية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، ص ٢٠

(٨٩) انظر حوار مع أحمد المتوكل في: «البحر الثقافي»، العدد ٧ (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٧)، علا
عن المصدر نفسه، ص ٤١.

(٩٠) عالما هذا الإشكال في دراسة مسعدة تحت عنوان «حفيظ إسماعيلي علوي، «اللسانيات في
الثقافة العربية وإشكالات التلقي» (اللسانيات التمهيدية نموذجاً)، فكر وفقد، العدد ٥٨ (٢٠٠٤).

ثالثاً: تلقي اللسانيات في الثقافة العربية: محاولة للتقويم

حاولنا في الفقرات السابقة، تتبع مختلف الإشكالات التي نعوق تداعي اللسانيات في الثقافة العربية، وأبرزنا أهم تجليات ذلك، كما حاولنا الكشف عن أبرز أشكال العلاقة بين الفكر العربي وتلقي اللسانيات. إن الخلاصة التي يمكن أن نستهي إليها من كل ذلك هي أن أشكال التلقي التي وقفنا على أهم تجلياتها قائمة في كثير من جوانبها على سوء الفهم والمغالطة. ويمكن أن نبرز أهم أشكال المغالطة تلك في الجوانب الآتية:

١ - نحن والأخر: من أجل مراجعة الذات

كشفنا سابقاً عن صورة الغرب في التخيل العربي، تصورياً للعرب بصفته استشرقياً واستعمارياً وحدائنة فكرية، وهي مستويات من النظر غير معصلة في تخيل العربي؛ لأن كل مقارنة لتصورات الآخر في ثقافتنا مبنية على الامتدادات الحضارية ومستتبعاتها النمسية؛ ذلك أن صورة الغرب ماثلة في أذهاننا بهذه الترسيم التي تستند له حصيلة المساوي التراكمة بناءً على أحكام مسقة.

إن تحديث الثقافة العربية لا يمكن أن يكون إلا في ظل حوار بناء، بعيداً عن كل أشكال الصراع مع النفس التي تأخذ صورة صراع مع الغرب. إننا نشاءل هنا: هل تتعارض اللسانيات مع التراث اللغوي العربي؟ وهل العرب واحد متوحد، ومن ثم نقول إن اللسانيات تستمد أهدافها وتوجهاتها من مخططاته، وهل كانت المعرفة اللسانية في مراحل تشكلها الأولى قائمة على خدمة المصالح الغربية (الاستعمارية) كما يعتقد؟

يمند علي أومليل الافتراض الأول بقوله: «كثيراً ما تطرح مسألة التراث طرْحاً يفرم على العاطفية والمغالطة، وكأن المسألة تؤول إلى هذا السؤال: هل تريدون أيب الناس أن تكونوا بغير جنور، لا هوية لكم، ضائعين في العرب الذي لن يتواسى بعد أن هب خيراتكم واستبجكم اقتصادياً وسياسياً، عن أن يمحو كل شخصية لكم ثقافية وناريخية؟ طبعاً، إذا طرح السؤال هكذا قلن يكون الجواب سوى كلا! وحتى الذين ليسوا تراثيين على نحو مطلق سيحييون نفس الجواب، إذ من هو هذا الذي يرغب في أن يعقد هويته عن سبق إصرار؟»^(٩١).

(٩١) علي أومليل، في التراث والتجديد (بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠)، ص ١٥.

كما إن ربط اللسانيات بالغرب والاستعمار ينم عن موقف خاطئ؛ لأن اللسانيات، شأنها شأن كل العلوم، علم إنساني، ومن الصعب أن نقول إن العرب هو من أوجد هذا العلم بشكل مطلق، لأن ترسخ العلم مبني على تراكمات، وعليه فإن البحث اللساني، على غرار ما هو متحصل اليوم لا يمكن أن يكون من دون تلك التراكمات. «صحيح أن اللسانيات هي نظرية غربية، ولكن متطعمها الفلسفي وهدفها السعي الراجح لا ينتميان إلى الغرب، وإنما هما ملك حضارة الإنسان المعاصر الخارج عن نطاق الجنس والهوية والعرق. إن الاختلاف الواحد بين الأمم يكمن في كيفية استخدام «نتائج» علم من العلوم وتوظيفها في ناحية معينة. وهكذا، فإن اختلاف الاستخدامات لنتائج العلم تتيح اختلافات الأيديولوجيات في العالم. أم قضية استخدام الوسائل والأساليب والتقنيات العلمية والتوصل إلى هدف أو غاية علمية معينة، فإنها مسألة مشتركة بين جميع الحضارات الحديثة»^(٩٢)، وهو الاعتبار الذي يجب مراعاته في كل عمليات الثقافة.

٢ - نظرة غير موضوعية إلى اللغة العربية

إن عوائق التلقي السابقة يحركها حاجس أساس يتمثل في الخوف على اللغة العربية وعلى السمو العربي من اللسانيات، ومن التغيرات التي قد تطرأ عليهما، وما قد يسجم عن ذلك من صناد للسان العربي، فلا شيء نأخذ باللسانيات وفي تراثنا ما يكفي لوصف اللغة العربية ودراساتها؟ وهل من المعقول أن نترك تراثنا الزاخر ونستبدله بهذه الدراسات الحديثة المهددة؟

ليس هناك داع لذلك ما دامت «اللغة العربية - بحمد الله - غنية بهذه الدراسات عريقة فيها، وقياسها على الدراسات اللغوية في أوروبا التي لا يريد عمرها على ثلاثة قرون والتي ليس لها مثيل هذا التراث العريق الممن في العراقة طويلاً وعرضاً خطأ صادق لا يكون إلا من جهل أو سوء قصد»^(٩٣). مفاد هذا القول ارتباط بشأه الدراسات اللغوية في أوروبا بلغات لا ترقى إلى مستوى اللغة العربية ومكانتها، وهذا أمر لا يستقيم ما دامت القواعد المستخلصة في مجال اللسانيات صالحة لوصف اللغات الأوروبية، وعليه، فإنه من غير المقبول أن نطبقها على اللغة العربية؛ لأنها تختلف في طبيعتها وفي ظروفها التاريخية والاجتماعية اختلافاً أساسياً عن هذه

(٩٢) مارن الوعر، دراسات لسانية تطبيقية (دمشق، دار طلاس، ١٩٨٩)، ص ٣٩.

(٩٣) حبر، مقالات في الأدب واللغة، ص ٤٨.

اللغات، وكل تطبيق من هذا القبيل هو بدع شاذ قليل الحدوى، بل هو إفساد مصر وقلب للأوصاف، لأنه لا يصدر عن حاجة في واقع الأمر تدعو إليه، ولأنه يحاول أن يعرض قواعد نابعة من خارج اللغة العربية على طبيعتها اللغوية بدل أن يبسط من واقعها اللغوي وطبيعتها المستقرة^(٩٤).

وتتحد المسألة بعداً أخطر عندما يتم الجمع بين تطبيق اللسانيات على اللغة العربية ومخالفة سنن الله في الكون؛ ولأن اللسانيات من مخططات الصهيونية «الدعوى التي ينادي بها دعاة التطوير على معطى الدراسات اللغوية الحديثة ضد العربيين باطلة (...)» لأنها تتجاهل سنة الله حين خلق الناس شعوباً وقبائل، وكان من آياته وسننه فيهم اختلاف ألسنتهم. وطبيعي حين تختلف الألسنة أن تختلف قواعدها، لأن القواعد التي تنظم كل لغة - بل كل مجتمع - تسبج من واقعها، وتلائم طبيعتها ونظامها. ومحاولة توحيد القواعد والنظم في اللغات أو في الجماعات البشرية على وجه العموم - من حيث يعلم الداعون بها أو لا يعلمون - فرع من محاولات متعددة تتجه كلها إلى هدف واحد هو طمس الفوارق المميرة بين الأجناس والجماعات البشرية، دينية كانت هذه الفوارق أو فنية جهالية أو لغوية، بما تسعى إليه الصهيونية العالمية، حتى تحل الروابط التي تقوم عليها المجتمعات البشرية المختلفة، فلا يبقى حل وحده الأرض مجتمع متماسك غير المجتمع الإسرائيلي^(٩٥).

إن أمر ما يطلب هو البحث عن وجوه التشابه والتوافق بين العربية ومبادئ اللسانيات، وكل محاولة من هذا القبيل محكوم عليها بالفشل من البداية، لأنها لا تقوم إلا إلى لغة غريبة، «كلمة رجع الدارس المهتم بالبحث اللغوي من أحد النحويين، العربي والعربي إلى الآخر، تقوى إحساسه الأولي بكون لغة الوصف المستعملة في كلا النحويين غير متطابقة، فما يجوزه نحو سيويه قد يفسده نحو تشومسكي مثلاً، وبالعكس. وأغلب ما يقدمه تشومسكي من القواعد والمبادئ التي يصفها بنحو بالكلية ليس له من العربية مثال إلا بإدخال ذلك التركيب عليها. وإدخال القول في الموضوع، فإن توظيف نحو تشومسكي من أجل إنتاج عبارات من العربية أو وضعها سيخلق لغة غريبة عن عربية سيويه وما وصف^(٩٦)».

(٩٤) المصدر نفسه، ص ٤٨.

(٩٥) المصدر نفسه، ص ٤٣ - ٤٤.

(٩٦) الأوراعي، الوسائط اللغوية، ج ١، قول اللسانيات الكلية، ص ٩.

معنى هذا الكلام أن اللسانيات التوليدية بشكل خاص واللسانيات بشكل عام لا تصلحان للغة العربية، وأي وصف أو تطبيق من هذا القبيل هو نشوبه وتحريف للعربية، فهل هذه الأحكام المسبقة صحيحة؟ وهل هناك ما يسوغها في نظر أصحابها؟

لا أحد يمكن أن يجادل في المكانة التي تحظى بها اللغة العربية في ثقافتنا، وهي مكانة تستمد مشروعيتها من اعتبارات دينية، وقومية، وحضارية، ونفسية. ومن هذا المنطلق كان التحفظ على اللسانيات، شأنها في ذلك شأن كل واحد جديد أحوفاً من تعريب اللغة في حال إحضار دراستها لأساليب لم يكن القدماء من أصحابها^(٩٧).

إن اعتقاداً من هذا القبيل اعتقاد مغلوط؛ لعدم تمثله الصحيح لمبادئ التراث التي اعتمدها بعض المحدثين مطلقاً وسدأ نظرياً لتبرير ادعاءاتهم بشأن قدسية اللغة العربية وأفضليتها على باقي اللغات الأخرى؛ فالآيات القرآنية التي يتم الاستناد إليها والتي تؤكد عربية القرآن، لم تنسأ أي واحدة منها إلى أفصلية اللغة العربية على اللغات الأخرى، كيف يمكن أن يكون ذلك والقرآن الكريم يعبر اختلاف الألسنة من آيات الله. لقوله تعالى: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾^(٩٨).

إن التقديس الذي يعطى للغة العربية يسم من فهم مغلوط للكثير من أقوال علماء العربية، وتجاهل بعضها أحياناً، فالكثير من نصوص التراث تشير إلى عدم تفضيل لغة على أخرى، وهذا ما أشار إليه ابن حزم بقوله: «وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات، وهذا لا معنى له لأن وجوه الفصل معروفة، وإنما هي بعمل أو اختصاص، ولا عمل للغة، ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة، وقد قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ و﴿فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون﴾^(٩٩)، فأخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلا ليعلمهم ذلك قومه صلى الله عليه وسلم لا غير ذلك. وقد علط في ذلك جالينوس فقال عن لغة اليونانيين إنها أفضل اللغات، لأن مآثر اللغات إنما هي تشبه نباح الكلاب، أو صفير الصقاع. وهذا جهل شديد، لأن كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهي

(٩٧) عبد الفتاح الريس، قضايا لغوية في ضوء الأكاديمية (بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ١٩٨٧)،

ص ٥.

(٩٨) القرآن الكريم، «سورة الروم»، الآية ٢٢.

(٩٩) المصدر نفسه: «سورة إبراهيم»، الآية ٤، و«سورة النحل»، الآية ٥٨ على التوالي.

عنده في الصواب الذي ذكر جالينوس ولا فرق. وقال قوم: العربية أفضل اللغات لأنه بها كلام الله تعالى، وهذا لا معنى له، لأن الله قد أخبرنا أنه لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه^(١٠٠). كما نستنتج أن التعامل مع النصوص التي تتحدث عن عميز اللغة العربية وأصليها لم تفهم حق فهمها، فالكثير من النصوص التي تتحدث عن هذا النوع من التمييز إنما تنبئ تفوق العربية على بعض اللهجات، وهذا التمييز ظل عائداً على أفهام النقص؛ فمما يجب التشديد عليه أن العرب القدماء لم يميزوا تحييراً وضحاً بين اللغة واللهجة، «وكثيراً ما عبروا باللهجة عن اللغة واللسان»^(١٠١).

إلى جانب عدم القدرة على التمييز بدقة بين عبارات بعض القدماء، يظهر بعض الاضطراب في فهم مقاصد اللسانيات؛ فمن المعروف أن من أعمق مؤاحداث اللسانيات على الدراسات اللغوية التقليدية تحيورها ومفاصلتها بين اللغات.

إن البحث اللساني الحديث، لا يقيم فرقاً بين هذه اللغة وتلك، وكل م يؤدي إلى التواصل فهو لغة، بغض النظر عن القيم الحضارية والتاريخية لهذا اللسان أو ذاك. ومن هذا المنطلق لا يصح النظر إلى اللغة العربية باعتبارها لغة متميزة عن باقي اللغات الأخرى؛ لأن كل اللغات متساوية في «ليست العربية»، كما يدعي بعض اللغويين العرب، لغة متميزة تنفرد بخصائص لا توجد في لغات أخرى، ومن ثمة لا يمكن وصفها بالاعتماد على النظريات «العربية» التي بنيت لوصف لغات أوروبية، بل العربية لغة كسائر اللغات البشرية، فاللغة العربية بصفتها «لغة» تنتمي إلى مجموعة اللغات الطيمية وتشترك معها في عدد من الخصائص (الصوتية والتركيبية والدلالية)، وتضبطها قيود ومبادئ تضبط غيرها من اللغات، وبصفتها «عربية» تختص بمجموعة من الخصائص التي لا توجد في كل اللغات، وإنما توجد في بعض اللغات. وكونها «عربية» لا يعني أنها تنفرد بخصائص لا توجد في أية لغة من اللغات، بل لا نكاد نجد ظاهرة في اللغة العربية إلا ونجد لها مثيلاً في لغة أو لغات أخرى، هندو - أوروبية كانت أو غير هندو - أوروبية^(١٠٢).

وليس الاحتجاج بارتباط العربية بالمقدس بمثوِّج في هذا السياق؛ لأن «العربية

(١٠٠) أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ٨ ج (القاهرة: مطبعة لإمام، [د. ت. د.])، ج ١، ص ٣٢.

(١٠١) نادية رمضان الحجار، قضايا في الدرس اللغوي (القاهرة: الدار المصرية للنشر والتوزيع، ١٩٩٩)، ص ١٢٧ - ١٢٨.

(١٠٢) الفهري، اللسانيات واللغة العربية. نماذج تركيبية ودلالية، ج ١، ص ٥٦.

لغة القرآن والإسلام، فهذا حق لا مرء فيه، غير أن علاقة العربية بالقرآن والإسلام لا يعني عنها أنها لغة مثل أية لغة أخرى، إذا ما احتكما إلى المعايير اللغوية الخالصة، لا إلى المعايير الدينية أو الحضارية، لأن اللغات الإنسانية، طبقاً للمعايير اللغوية لا تتعاضل^(١٠٣).

لا يريد أن نكر هنا التشريف الذي حظيت به اللغة العربية، غير أن التمييز ورجب بين «دراسة اللغة بوصفها نموذجاً معيناً» (. . .) ودراسة اللغة من حيث هي معطى بشري وظاهرة كونية، وهو منطلق البحث الأساسي في ما يسمى باللسانيات النظرية أو العامة^(١٠٤). إن مثل هذه التمييزات نعتبرها ضرورية لتعادي كل ما يؤدي إلى فهم مغلوط.

٣ - في علاقة النحو باللسانيات

ينجم عن الخلط المفاهيمي بين بعض المفاهيم التراثية والمفاهيم اللسانية علاقات وهمية تبعد المفهوم عن المقصود وتحرفه عن مواضعه، فكل مقارنة من هذا القبيل تتم في إغفال شبه تام للحصوصية الإستمبولوجية للمفاهيم ولأبعادها الخاصة، ومن ذلك ما نلاحظه من خلط بين النحو واللسانيات.

تنطلق أغلب الأبحاث التي تناصر السلطة النحوية في الثقافة العربية، من اعتبار أساسي، وهو أن كل انفتاح على الدرس اللساني هو حكم بالضياع على النحو العربي^(١٠٥)، للتعارض القائم بين مبادئ النحو ومبادئ اللسانيات. والواقع أن النحو واللسانيات ليسا ضدّين بالمعنى المبدئي للتضاد، كيف والنحو نفسه منذ تقديم مفهوم مردوج، إذ هو يعني في الوقت نفسه جملة النواحي الخفية المحركة للظاهرة اللغوية، كما يعني عملية تفسير الإنسان لنظام اللغة بمعطيات المطلق من العلل والأسباب والقرائن، ويتجلّى هذا الفرق المفهومي في الصياغة المزدوجة تماماً لقولك: نحو العربية أو نحو الفرنسية. فأنت تعني نظامها، أو لقولك النحو العربي أو النحو الفرنسي فالمقصود هنا عملية استخراج النظام الداخلي في تلك اللغة^(١٠٦).

إن اللسانيات يمكن أن تساهم في تطوير قضايا النحو وتحديثها، ومن ثمة لا

(١٠٣) خليل، دراسات في اللسانيات التطبيقية، ص ١٠.

(١٠٤) السدي، اللسانيات وأسسها المنهجية، ص ١٢.

(١٠٥) يمكن الرجوع إلى الفقرات السابقة حيث أثبتنا بعض النصوص التي تعبر عن هذا الموقف.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ١٥.

تعارض بين اللسانيات والنحو، ومن الأمور التي يمكن أن تقدمها اللسانيات للنحو:

١- المبادئ العامة التي تقوم عليها النيات الذهنية للغات الطبيعية؛ أي الآليات المعرفية والإدراكية للغة (...).

٢- الأرضية المنهجية لبناء الأنحاء، وتبرير اختيارها من حيث صياغتها وأشكالها وعلاقتها باللغات انطلاقاً من الشروط الداخلية والخارجية اللازمة في الأنحاء، مثل التعميم، والبساطة، والوضوح (...).

٣- اللسانيات تساعد في الكشف عن حقيقة البنيات النحوية بشكل أعم وأوضح وأبسط، وبالتالي يمكن للنحو إعادة صياغة القواعد المعيارية صياغة تتحقق فيها درجات عالية من التعميم، والشمول، والبساطة، والدقة، والوضوح.

٤- فهم أعمق للغة ذاتها مما يمكن من إعادة النظر في كثير من الأفكار الموروثة، مثل تركيب اللغة... (١٠٧).

إن ما تم التخصيص عليه سابقاً من خلال حديثنا عن العوائق الموضوعية ينطلق من اعتبار اللسانيات علماً دخلياً على الثقافة العربية، ومن ثم بدء الترويج لجملة من الأحكام المسبقة الرافضة والمعلوطة في مجملها والمتعلقة بطبيعة البحث اللساني وأهدافه (١٠٨)، فهل تسيء اللسانيات فعلاً إلى النحو العربي؟

يكشف القول بتعارض النحو واللسانيات غموض وتسرّع لأنه يتغافل عن أهمية تحديد المفاهيم وضبطها، ومن ذلك مفهوم النحو واللسانيات، كما إنه يربط بشكل مباشر بين المفاهيم النحوية القديمة والمفاهيم اللسانية الحديثة؛ والحال أن لكل مفهوم خصوصياته الإستمولوجية وأبعاده الخاصة به. إن المفهوم ليس معطى ولكنه بناء نظري، إنه جزء من شبكة تصورية عامة. وبذلك نلمس وجود فرق جوهري بين هوية النحو وهوية اللسانيات لاختلاف مناهجهما؛ غير أن هذا الاختلاف لا يعني التعاون والتكامل بينهما (١٠٩).

لقد حاولنا من خلال ما سبق أن نكشف عن أهم خصوصيات علاقة اللسانيات

(١٠٧) مصطفى علان، النحو العربي واللسانيات أية علاقة؟، فكر ونقد، العدد ٧٢ (٢٠٠٥)، ص ٩، والفكرة عرض مفصل للأوجه التي يمكن أن تقوم بين اللسانيات والنحو على أساس تكامل.
(١٠٨) المصدر نفسه.
(١٠٩) المصدر نفسه، ص ٣.

بالشعاع العربية، وأن نيين سياق تلقيها لهذا العلم الوافد (= اللسانيات)، وأن نرصد في الوقت نفسه أشكال الممانعة الخاتلة دون تطوره ونضجه. وقد تبدي لنا أن أهم الإشكالات المطروحة، قائمة في معظمها على وعي مخلوط بالكثير من مبادئ وأهداف اللسانيات.

إن البحث اللساني في ثقافتنا لا يمكن أن يتطور إذا لم يتخلص من الأحكام المسبقة التي تطبع جل مناحي الفكر العربي، وبالتالي فإن الإشكالات المطروحة، ليست إشكالات لسانية فحسب، بل هي إشكالات محدّات وروى فكرية تحتاج إلى إعادة التشكيل بطريقة صحيحة تساهل وتواكب تقدم الحضارة الإنسانية في مناحيها المتعددة .

الفصل الخامس

اللغة والإعلام

بحث في العلاقات التبادلية^(*)

رياض زكي قاسم^(**)

أولاً: في المصطلح والإشكالية

١ - في المصطلح

أ - إذا كان الفهم الحق للغة يكمن في وظيفتها الاتصالية، فإن ما يستتبع ذلك القبول بتعريف أوّلي يوضح هذه الوظيفة، والقبول إنها وسيلة للتفاهم بين الفرد ومحيطه، لأنه يرى أي شيء أو قضية من خلال هذا المحيط الذي هو من صنع البشر. لذا يمكن أن نطلق على هذا المحيط المكوّن من رموز وسواها: الوسط الصناعي، أو الأداة الصناعية التي تساعد على التفكير، وبالتالي تكون هذه الأداة هي متناول الفرد الاجتماعي لتسجيل الأفكار والرجوع إليها.

وبشيء من التوضيح في هذه الوظيفة ملاحظ أن اللغة تقوم، أساساً، بنقل المعلومات، بطريقة ما؛ أي أنها رسالة بين مُرسل ومُستقبل. والرسالة أو المُرسلة، إنما

(*) في الأصل ورقة قدمت إلى الندوة المشتركة التي أقامها منتدى الفكر العربي (منازل) وجمع اللغة العربية الأردني بعنوان «اللغة العربية والإعلام وكتاب النص» يوم الثلاثاء في ١٣/٩/٢٠٠٥. ونشرت هذه الدراسة في المستقبل العربي، السنة ٢٨، العدد ٣٢٤ (شباط/فبراير ٢٠٠٦)، ص ٣٥ - ٥٤.

(**) أستاذ اللغويات، الجامعة اللبنانية.

نقل صوتياً من خلال الهواء أو السلكي أو اللاسلكي، وإما كتابةً بوساطة علامات مكتوبة (= كلمات أو ترميز ...)؛ فاللغة، وفق هذا، صورة من صور الاتصال.

ثم إن كلمة «الاتصال» تستلزم توفر عنصري «التفكير» و«التفاهم» بين المتكلم والسامع، أو بين المرسل والمتلقي. وهذا التداخل بين التفكير والتفاهم يعترض الاعاق على «الأداة» أو «العلامة». ويضيف اتجاه في علمي الاجتماع والنفس مجموعة عناصر أخرى لاستكمال حدود العلاقة، فيدخل علماء هذا الاتجاه الدوافع إلى «الاتصال»، وإلى التفاهم، وإلى التفكير. ويشيرون بعناية إلى الأغراض التي يتجه إليها «الإنسان»، ويسمى إلى تحقيقها عن طريق التفاهم والاتصال والتفكير؛ فالإنسان في رأيهم - يفكر قبل أن يتفاهم مع غيره. وهو يفكر في أثناء اتصاله، وفي أثناء تفاهمه. وهو يفكر بعد تفاهمه مع الغير. وهو بالتالي، لا يفكر في الفراغ، وإنما يفكر بعلامات أو رموز. وهو لا بد له من أن يتفق مع غيره على أنواع العلاقات والرموز حتى يتحقق التفاهم، ويتم الاتصال.

فالسامع، يستطيع باللغة، أو بوساطتها، أن يتابع تطور سلسلة من الأفكار في ذهن المتكلم، ويصدق لا تبقى للسامع أفكار منفردة، أو إشارات منفردة، لأفكار يكون منها لنفسه صورة مبهمّة، عامضة، لما يجول في ذهن المتكلم. ولتحقق ذلك ينبغي أن تُعطى العلامة قيمة معيّنة، وتُربط بمدلول معيّن. وينبغي أن يتفق الناس على هذه القيمة، وعلى ذلك المدلول. ويسمى أن تُربط العلامة ومدلولها بحبرة الإنسان، وبحبرة غيره من الناس. وبفضل ذلك تمكّن الإنسان من فرض نمط تفاعلي مع الآخرين، بشكل ساهم في تكوين المحيط، أو المجتمع البشري، الذي هو في جوهره وجود اتصالي^(١).

ب - ثم نجد الإشارة إلى الحدود العاصلة بين اللغة بمفهومها المطلق، واللغة المعيّنة التي نعني بها في موضوع بحثنا اللغة العربية. فالذي يميّزها، اللغة المعيّنة باعتبارها جزءاً من الوعي الجمعي، أو العقل الجمعي. وهذا العقل إنما يوصف به الكائن الاجتماعي، وبالتالي فإن هذا الكائن الاجتماعي ملخص للمجتمع. وهذه اللغة المعيّنة ضرورة لعهم الكلام، كما أن الكلام ضروري لفهمها، وهي مجموعة من العلامات المحترمة في العقل الجمعي، ولا تنطق لأنها ليست فردية، فهذه الصورة أشبه بالقاموس الذي توحد فيه الكلمات صامتة، غير منطوقة، صالحة للناطق والاستعمال، وإنما تُستخرج منه فرادى، بحسب الحاجة إليها، أو بحسب الاختيار.

(١) رياض دكي قاسم، تقنيات التعبير العربي (بيروت، دار المعرفة، ٢٠٠١)، ص ٧١ - ٧٢.

ج - وهذه اللغة المعينة مكتوبة، مستجلة، أو مفهومة، صالحة للتطبيق الكلامي. لكن الكلام هو هذا التطبيق الصوتي والمجهود العضلي الحركي الذي تنتج منه أصوات لغوية معينة.

وشيء من تحديد العارق؛ فإن اللغة المعينة توجد في المجتمع الناطق، أما الكلام فهو وظيفة الفرد الناطق. واللغة المعينة حقيقة اجتماعية، أما الكلام فهو عمل فردي وإذا كانت اللغة اجتماعية، فالكلام يصلح عن فرد ينتمي إلى مجتمع. وإذا كانت اللغة المعينة نظاماً، فالكلام أداء نشاطي لهذا النظام. وإذا كانت اللغة جهازاً من الحروف والكلمات والصيغ والعلاقات، في مجتمع ما، وتعلمها الفرد اكتساباً، فالكلام هو التعميد الفردي والاستخدام الشخصي لهذا الجهاز. ثم إن اللغة المعينة هي الموصوفة في الكتب الصرفية والنحوية والأسلوبية، أما الكلام فهو المنطوق، وهو المكتوب؛ فالكلام عمل، واللغة حدود هذا العمل. والكلام سلوك، واللغة معايير هذا السلوك. ثم، إن اللغة المعينة تفهم بالتأمل في الكلام، أما الكلام فيُحَسَّن بالسمع نطقاً، والبصر كتابةً؛ فالذي نقول بحسبه، ويكتب بحسبه، هو اللغة. وما نقوله، أو يكتبه هو كلام^(٢).

٢ - في الإشكالية

أ - تُنمذ اللغة المعينة (= العربية) باعتبارها نظاماً وحقيقة اجتماعية، ومن حيث وظيفتها الاتصالية عبر وسائط الإعلام إلى جوانب الحياة كلها، لتغدو نشاطاً اجتماعياً يُسهم في تأسيس التشارك الاجتماعي، مما يؤهلها، للإفصاح، بامتياز، عن العلاقات الشخصية، والقيم الثقافية والاجتماعية، إضافة إلى كونها الناقل الرئيسي لذلك النهر المتدفق من المعلومات الواردة، في كل لحظة، إلى المتلقي، من وكالات الأنباء المحلية والعالمية، ومحطات البث الإذاعي والمرئي، المرززة بسبل الانتشار المختلفة، من الكابلات والأقمار الصناعية، والصحون اللاقطة . .

ب - وبالمقابل، فإن الاتصال بالجمهور المتلقي، عبر وسائط الإعلام المختلفة، ولا سيما الصحفية والإذاعة والتلفزيون، حطاً خطوات ناجحة، وبسب متدونة، بنقل لغة الكلام إلى ملايين الناس، مما عزز انتشار العربية في البيت والشارع وللمدرسة وسائر المؤسسات، وجعلها لغة حية، متداولة في الحياة اليومية.

ويمكن القول إن وسائط الإعلام هذه قد شكلت وسيطاً وناقلاً وحاملاً للعربية، وشكلاً متغياً مظهرًا حيوياً من مظاهر التمدن التي دفعت بمكر الأمة إلى الرقي، ودفعت باللغة إلى النهوض نهوضاً تمثل في رقي الأساليب التعسرية، وفي

(٢) تلام حسام، نتائج البحث في اللغة (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٥)، ص ٣٢ و٣٥.

تعدد فنون القول فيها، وفي إدخال مفردات مولدة عن طريق الاشتقاق والافتباس، والوضع، والتعريب، للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة. وقد انعكس هذا التقدم في الاتصال والتواصل بالجمهور، وهذا الانتشار والتداول، بشكل إيجابي، على ظاهرة العلاقة المتبادلة بين اللغة والإعلام، في نقاط عدة، كان من أبرزها.

- تقليص المسافة بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة.

- ارتفاع ملحوظ للإمكانيات التعبيرية، أو الشروعات اللغوية المرتبطة بالوسائل الإعلامية.

ح - لكن ذلك الانتشار والتداول ما زال يفرز جملة أسئلة، تتناول العلاقة بين اللغة العربية والإعلام، وتكون إشكالية، يمكن ترجمتها بالأسئلة السبعة التالية:

س ١ : هل أنتجت اللغة المعينة (= العربية) على صعيد المفردات (اللغوية والإصطلاحية) كما ينبغي بمتطلبات ذلك الانتشار والتوسع والتداول الجماهيري؟

س ٢ : هل أنتجت اللغة العربية، على صعيد تنوع الأساليب، وطواعية استخدام الدلالات، ومرونة صوغ التراكيب الجمالية، كما يلبي متطلبات التوزيع الجغرافي للتغطية الإعلامية، على مساحة الوطن العربي، المتعدد اللهجات، المتشعب الثقافات، المختلف الأذواق والمشارب؟

س ٣ : هل قدرت اللغة العربية على الرضاء بمتطلبات فنون وسائط الإعلام، وما لكل واسطة من لغة مهنية خاصة، مميزة، فتجعل لذلك معاجم مهنية لكل من المسرح، والإذاعة، والصحيفة، والتلفزيون، والحاسوب، والإنترنت...؟

س ٤ : هل تم إيصال المعلومة الإعلامية للمتلقي (= المرسل إليه) البسيطة التركيب، المحددة المفهوم، الواضحة الدلالة، الموثقة المصدر؟

س ٥ : هل اقترن إيصال المرسلات الإعلامية (الخبر، أو التحليل الإخباري، أو المعلومة العلمية...) للمتلقي بالأسلوب التعبيري المحايد، الموضوعي المنقسم بالتقريفة، واستخلاص النتائج؟

س ٦ : هل تم إيصال المرسلات الثقافية للمتلقي بما تتطلبه من وصوح الهدف، وصدق التوجه، وعنى المحتوى، وقدرة التعبير بصلو - عن الهوية الوطنية من حيث أبعادها المحلية القومية والدينية؟

س ٧ : هل استطاعت وسائط الإعلام نقل الوعي باللغة العربية من مستوى لينة إلى مستوى العامة؟

ملك هي الأسئلة التي تكوّن إشكالية العلاقة بين اللغة والإعلام، وسحاول في ما يلي الإجابة عنها، من خلال دراسة واقع مكونات العمليات الاتصالية، ودراسة واقع اللغة والنص الإعلامي، ومن خلال مجموعة اقتراحات تشكل رؤية لتعبئة الوظائف المشتركة بين اللغة والظاهرة الإعلامية.

ثانياً: اللغة والإعلام في ضوء واقع مكونات العمليات الاتصالية

يتطلب فهم العلاقة الوظيفية بين اللغة والإعلام استجلاء واقع مكونات العمليات الاتصالية في حاضرتنا العربية. والشائع في علم الإعلام، في هذا الخصوص، أن ذلك يتحدد من خلال:

١ - منتج المادة الاتصالية.

٢ - مضمون هذه المادة.

٣ - لُبن توجهه؟

٤ - بآية وسيلة اتصالية يتم إرسال هذا المضمون؟

٥ - ما هي التأثيرات التي يُحدثها هذا المضمون في الجمهور المتلقي؟^(٣)

١ - يعتمد التكوّن الأول (منتج المادة الاتصالية) مقولة اتخاذ الإعلام الحديث محوراً لمنظومة المجتمع الحديث. انطلاقاً من هذه المقولة عمدت الشركات الإعلامية العملاقة، أو الشركات عبر القومية إلى احتكار السوق المستهلك^(٤)، فهناك «أربع وكالات أباء عالمية معروفة باسم الأربع الكبار»^(٥) نذكر ٨٠ في المئة من قبض المعلومات^(٦).

أما المنتج العربي، فإنه يواجه عصر التكنلوجيات الإعلامية، مشتتاً، عارفاً عن المشاركة في الموارد، يحايي ضمور الإنتاج وشخّ الإبداع، حتى كاد - وهو المرسل

(٣) عواطف عبد الرحمن، قضايا التنمية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث، سلسلة عالم المعرفة: ٧٨ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٤)، ص ٩٢، وعبد العزيز شرف، اللغة العربية والفكر الفلسفي (بيروت: دار الجيل، ١٩٩١)، ص ٩٨.

(٤) يذكر د. عواطف عبد الرحمن أن الشركات عبر القومية (حوالي ٢٠ ألف شركة عبر قومية تسيطر على نحو ٨٠ ألف شركة تابعة) توجد مقارها الرئيسية في كل من الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وجمهورية ألمانيا الاتحادية وسويسرا والمملكة المتحدة وفرنسا، وأن الأغلبية الساحقة من الشركات الأحسن التابعة لهذه الدول توجد في دول العالم الثالث. انظر: عبد الرحمن، المصدر نفسه، ص ٩٢ - ٩٣.

(٥) وهي الوكالات الأمريكية إم إس سي بي إس ونيويورك تايمز ورويتير وديويتير البيروطنية وأجنس فرانس برس الفرنسية. انظر: المصدر نفسه، ص ٩٣.

(٦) بيل الراعي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، عالم المعرفة: ٢٦٥ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، د.ت)، ص ٣٥٤.

مطبيعته - أن يصبح نفسه مستقبلاً للإعلام المستورد ليعيد بثه إلى جماهيره، وأوشكت وكالات الأنباء لدينا أن تصبح وكالات للوكالات الأربع الكبرى، حتى في ما يخص أخباراً محلية^(٧)، وإن نسبة عالية من البرامج التلفزيونية لمعظم دول العالم الثالث يتم استيرادها من الولايات المتحدة وفرنسا والمملكة المتحدة^(٨).

وخلال العقد الأخير ظهرت ركائز بنية العولمة ونظامها عبر الاندماجات، فقد استطاعت الشركات الكبيرة أن تمتلك الشبكات الرئيسية التقليدية بالكامل^(٩)

ولم تتوقف حركة الاندماج على المؤسسات الكبرى، فقد اندمجت عام ١٩٩٩ مؤسسة «فياكوم» (Viacom) مع شبكة «سي. بي. إس.» (C.B.S.) في صفقة بلغت ٣٦ بليون دولار. وبذلك تمكنت من خلق عناصر متكاملة لإنتاج مضامين جديدة وتوزيعها، مما مكّنها من إيجاد سوق واسعة وغنية. وشملت الاندماجات، أيضاً دزني وتايم وارنر، و«أمريكا على الخط» (America on Line) التي أصبحت اللاهب الرئيسي على شبكة الانترنت سرفيس، والتي هيمنت على شبكات الأخبار والتلفزيون السلكي (الكابلي)^(١٠).

وعلى صعيد الخريطة العالمية في مجال الإعلان حظيت وكالات الإعلان الأمريكية للأسواق العالمية بما يوازي ٦١ في المئة، بينما لا يزيد نصيب أوروبا الغربية على ٢٥ في المئة، أما آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط فهي تشكل ١٣ في المئة من السوق الإعلانية العالمية^(١١)، وهي ترسل أكثر من ٢٤ مليون كلمة في اليوم الواحد، وتنتج تسعة أعمار مجموع المواد الإخبارية في العالم^(١٢).

٢ - يسجل المكون الثاني، أي مضمون المادة الاتصالية أعلى أنواع الاحتكار وأشدّها خطراً على المتلقي. ويشمل هذا المحتوى حقلاً واسماً من المعلومات، سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية، أو ما يمكن إدراجه في بُعدين أساسيين: أولهما

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٤٦.

(٨) عبد الرحمن، قضايا التنمية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث، ص ٩٣.

(٩) فالشبكة ABC تمتلكها ديزني كاتينال سيتي (Catalina Cities)، والشبكة CBS تمتلكها وستنكهاموس، والشبكة CNN تمتلكها جرال إلكتريك. أما عملاقاً عطلت الكابل التلفزيونية - تايم وارنر (Warner)، وبيورن (Turner) فقد وحدا قروماً. انظر: أحمد ثابت (وآخرون)، العولمة وثقافتها على الوطن العربي، سلسلة كتب المستقبل العربي ٢٤ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣)، ص ١٩٤ - ١٩٥.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٩٤ - ١٩٥.

(١١) عبد الرحمن، قضايا التنمية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث، ص ٩٧.

(١٢) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو)، الخطة الشاملة للاتصال العربية، ط ٢ (تونس

المنظمة، ١٩٩٦)، ص ٢٥٥.

يتعلق بالاتجاهات والقيم وأنماط السلوك، وثانيهما يتعلق بأنماط التنظيم والإنتاج والاستهلاك.

ونكمن خطورة المضمون، أو المرسل، عبر وسائط الإعلام، من مصدر منتج عربي، إلى دول العالم الثالث في مقصد هذا المضمون وموقعه وظروف تكيّفه. فالمضمون هو نصّ لغوي في الأساس، ولا يتم إنتاجه إلا بتوفر عناصر تكوينه، أي الحدث والموقف والمرسل، وإنتاج النصّ هنا لمعناه، بمعنى أن المرسل تستج دلالته في التركيب الداخلي لأجزائها. هذا التركيب الذي يتضح فيه التعليق المتراتب للأجزاء على الكل. وعلى هذا، لا نكون الدلالة في المرسل متأنية في وحدات ثابتة مثل الكلمة أو الجملة، وإنما عن طريق البحث في النصّ والخطاب بأكمله. فقد نأكد أن المعنى الكلي للنصّ، والمعنومات التي يتضمنها، أكبر من مجرد مجموع المعاني الجزئية للمجمل التي تكوّنه. بقول آخر، إن الدلالة الكلية للمرسل تنجم عنها باعتبارها بنية لغوية كبرى شاملة.

فالنصّ (أو المرسل) ينتج معناه إذا بحركة جدلية لا تتمثل في الانتقال من الجزء إلى الكل، وإنما على وجه الخصوص بالتكثيف الدلالي للأجزاء في ضوء البنية الكلية الشاملة للمضمون.

وتزداد الخطورة في النصّ أو المضمون التوجيهي الذي يرافق الخبر ويحمله، أو ما يبث في المضامين الفكرية، والصوحى الثقافية، أو تلك النصوص التي تحمل التحريف عند امتصاص خطاب الآخر وأدائه بطريقة غير حرفية؛ مما يتطلب من المنتج أو المرسل، هنا، إعادة صياغة الكلام بإيجازه أو باقتطاع بعض أجزائه، مما يعني أنه قد اختار استخدام لغته هو، وإعادة صياغة خطاب غيره، مما يتيح الفرصة لتمثيل موقفه الخاص عبر الشفرة (Code) اللغوية التي يستخدمها على مستوى التعبير الذي ينمّ عنها أكثر مما يدل على المحتوى المقول^(١٣).

هذا، وتنعكس اللغة الانكليزية في مجال احتكار المضمون أو المادة الاتصالية على ٦٥ في المئة من برامج الإذاعة، و٧٠ في المئة من الأفلام، و٩٠ في المئة من الوثائق المحرّرة في الإنترنت، و٨٥ في المئة من المكالمات الهاتفية الدولية^(١٤).

٣. ينصّص المحدّد الثالث الجمهور المتلقّي (أو المرسل إليه) للرسائل الإعلامية ونسوبيو - ثقافه.

(١٣) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وحلم النص، عالم المعرفة؛ ١٦٤ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٢)، ص ١٠١-١٠٢.

(١٤) الراعي، ثقافة العربية وعصر المعلومات، ص ٢٧٢.

والمفهوم السائد في الإعلام العربي، في هذا الخصوص، أن المتلقي العربي يستقبل ما يوجهه إليه المرسل، بمعزل عن التفاعل معه، أو التواصل. وبقية التواصل بمعناه الواسع الذي يتجاوز إيلاخ الرسائل إلى مهام التعليم والتعلم والترفيه واسترجاع المعلومات والتحاوور والتسامر من خلال حلقات النقاش وعقد المؤتمرات عن بعد؛ أقول ببقية ذلك كله، يبقى المتلقي العربي رهن توجهات المزميل وسياسه الإعلامية

لذا، فإن الضرورة تحتم إجراء تعديلات جوهرية على صعيد محورية المتلقي، سواء من حيث انتاج السلع الإعلامية المتميزة القادرة على المنافسة، أو من حيث التنظيم، أو أسلوب الإدارة والتسجيل، وإلا بقي المتلقي العربي أمام أحادية الخيار، أي اقتناء السلعة الثقافية من الخارج. وكما نستورد البضائع الأجنبية ذات الجودة العالية سيرداد استيرادنا لمنتجات الإعلام ليعاد توزيعها بعد تعريبها ودبلجتها^(١٥).

٤ - يختص هذا المحند بالقنوات التي يتم عبرها إرسال المصاميم الإعلامية على تنوعها، تلك التي تسهم في تشكيل الأنماط الاستهلاكية. وهنا يلعب التلفزيون والإذاعة دوراً رئيسياً، وتليهما الصحف والمجلات والشرارات المهنية والكتب والأسطوانات وشرائط الفيديو ووكالات الأنباء.

٥ - يتعلق هذا المحند بالتأثيرات التي تحدثها الرسائل الاجتماعية والثقافية لدى الجماهير المتلقية من شعوب العالم الثالث، ومنها العربية، عبر الإعلانات وسواها من المواد الإعلامية والاتصالية، سواء تلك المنشورة في الصحف أو المذاعة والمعروضة في كل من الإذاعة والتلفزيون. ولعل التأثير الأساسي يتمثل في مدى استيعاب الشعوب المتلقية الاستثمارات الاجتماعية والثقافية المرتبطة بالدول والشركات الرأسمالية المنتجة للمحتوى الإعلامي، والتي تؤدي إلى حدوث تغيير في الاتجاهات الاجتماعية والثقافية لمواطني العالم الثالث إزاء الصورة الاجتماعية والثقافية للدول الرأسمالية المتقدمة.

والخدير ذكره هنا أن تأثيرات الإعلام المسموع - المرئي بلغت حداً فاعلاً في تكريس ثقافة الصورة. وهذا الطغيان للصورة في التلفزيون والإعلان والفيديو ومجلات الأزياء والديكور والرسومات والمعارض أضعف العديد من المفاهيم الثقافية والقيمة المرتبطة بما هو رمزي أو مجرد في المجتمع.

ويظهر عدد من الباحثين الآثار الخترية على الإنسان على الصورة، من ذلك مثلاً أن هناك علاقة بين كثرة مشاهدة التلفزيون وضعف الأداء المدرسي، كما أن هناك علامة بين رؤية مشاهد العنف في التلفزيون وقابلية ممارسة العنف في الواقع،

(١٥) المصدر نفسه، ص ٣٦٨.

وبخاصة لدى فئات الأطفال والمراهقين الذين يحملون هذه الاستعدادات. «وؤكد الدراسات الحديثة ما للإعلان من تأثير في المثلقي، فهو ينتمي القسم المادية، ويعمل على إغواء المستهلكين بأن سعادتهم تكمن في هذه المستهلكات»^(١٦).

وفي دراسة عن الإعلان في قنوات البث الفضائي تضمنت في جانب منها تحليلاً كمياً لمصممي الإعلان لعينة من الإعلانات التي تبث في ثلاث قنوات عربية، وهي دبي، والسمودية، وإم. بي. سي. (MBC)، بين أن ٩٠ في المئة من الإعلانات المعروضة تروّج لمنتجات غير وطنية. «وفي جانب آخر من الدراسة نعلمها تبين أن الإعلانات التي تروّج لمنتجات غير الوطنية تركزت على سلع استهلاكية وكمالية»^(١٧).

(١٦) عبد الرحمن عري (وآخرون)، العرب والإعلام الفضائي، سلسلة كتب المستقبل العربي، ٣٤ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤)، ص ٢٣

(١٧) في دراسة أجريت على عينة شملت مائة معرفة من المجتمع الجامعي لجامعة الشارقة، شارك فيها أساتذة وطلاب وطالبات، طلب مقدم الورقة إليهم الإجابة عن سؤال واحد ألا وهو ذكر عشرة إعلانات بما يشاء أو يدع عبر وسائل الإعلام المختلفة، اعتماداً على ذاكرتهم، وجاء مجموع إجاباتهم ٨٣٠ إجابة للإعلان، بسبب ٨٣ في المئة من مجموع الإجابات المتوقعة والبالغ عددها ١٠٠٠ إجابة، حيث لم تتمكن بعض مفردات العينة من تذكر العدد المطلوب من الإعلانات.

وجاءت البيانات موزعة كما في الجدول رقم (١)

الجدول رقم (١)
الإجابات عن حالات التذكر

نوع الإعلان	عدد حالات التذكر
١ - مأكولات ومشروبات	٣٢٤
٢ - منظمات	١٤٤
٣ - عطور ومواد تجميل	١١٨
٤ - سيارات	١٠٤
٥ - خدمات	٦٤
٦ - ملابس	٢٤
٧ - ساعات ومجوهرات	٢٠
٨ - برعم أطفال	١٨
٩ - مرافق	١٢
١٠ - أدوات وأجهزة تقنية	٧
المجموع	٨٣٠

وبالمرحلة التحليلية للبيانات في الجدول رقم (١)، وبلغ مجموع قائمة الإعلانات التي تم تذكرها ونقسمها إلى أربع فئات مستخلص الجدول رقم (٢)

ثالثاً: اللغة والنص الإعلامي

١ - لغة النص المقروء: الصحيفة، الإعلان

أ - على الرغم من التحدي العصري الذي تواجهه الصحافة بفعل تأثير الإعلام المرئي - المسموع، وانتشاره في الناس، فإن الصحيفة (اليومية) ما زالت تُعدّ من أهم ظواهر الحياة الثقافية الحديثة، وما زالت تمتلك الحق في انتزاع اهتمامنا وفصولنا

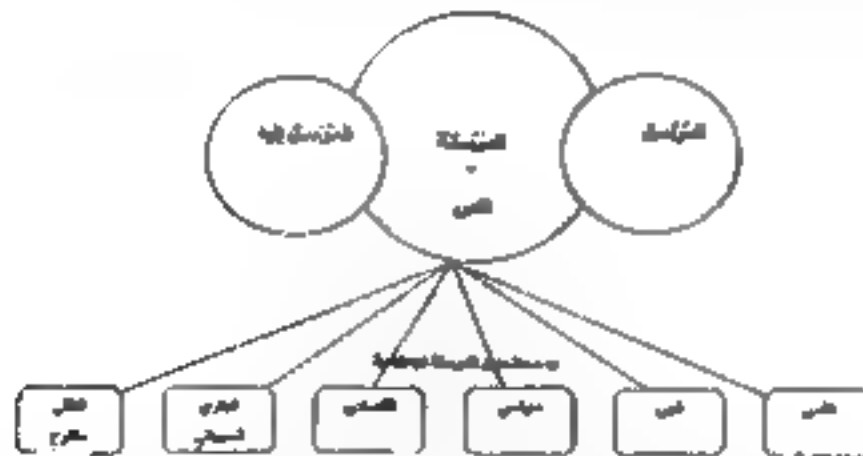
الجدول رقم (٢)

تحليل البيانات عن الإجابات السابقة

نوع الاتصال	عدد حالات الذكر	النسبة المئوية
سلع استهلاكية	٦٢٨	٧٥,٦
سلع مجهزة (سيارات، ساعات، مجوهرات، هواتف)	١٣٦	١٦,٤
خدمات	٦٤	٧,٧
أنشطة ثقافية وفنون	٢	٠,٣
المجموع	٨٣٠	١٠٠

انظر: ثبت [وآخرون]، الموهبة وتطبيقاتها على الوطن العربي، ص ١٧٧ - ١٧٨.
وقد اعتمدنا الرسم الهيكلي (الشكال ١ - ٣) لبيان الربط الذي يجمع العناصر الداخلية منظومة إعلام بأنماط الاتصال، وبوسائط الاتصال الإعلامية.

الشكل رقم (١) - عناصر منظومة إعلام



الشكل رقم (٢) - أنماط الاتصال



الشكل رقم (٣) - وسائط الاتصال الإعلامية



الثقافي. فالصحيفة إلى جانب وظيفتها التقليدية في نقل الخبر بالكلمة والصورة، وتحليل الخبر، والتعليق عليه، تجعل من عنصر الرأي والتفسير والتوجيه والتلميح والسد أمراً جوهرياً يمسّ المواطنين في حياتهم، سياسياً واجتماعياً وثقافياً. وبأسساً على ذلك، نعدو وظائف الصحيفة متعددة، متنوعة، ولا سيما وظيفتها في نشر الثقافة وتميعتها.

وبرداد أهمية الصحيفة الحديثة بما أناح لها النص، بالكلمة المطبوعة، وبما يقدّمه المحللون السياسيون والاقتصاديون والاجتماعيون والرياضيون . من معالجات آثار العصر على صفحات الصحيفة، ويتحولون، من ثم، إلى وسطاء بين الفكر وجمهور القراء، مما يجعل الصحيفة على اختلاف توجهاتها واختصاصها شأنًا ثقافياً بامتياز، ووسيلة اتصال جماعية من الدرجة الأولى.

وإذ تعتمد الصحيفة من حيث التعبير على اللغة، بشكل رئيسي، لتحقيق وظيفتها الاتصالية، فإن مسؤولية اللغة، وفق هذا، تتعاضد من جزاء ما تتطلبه هذه الوسيلة الاتصالية، من حيث شروط لغة النص (المُرسل)، والشروط اللغوية الواجب توفرها في المُربّل (الكاتب، المحرر، المعلق . . .)، وكذلك ظروف المتلقي (المُرسل إليه).

وبداية، لا بدّ من الإشارة إلى الدور الوظيفي الذي أنجزته الصحافة والإذاعة، عن صعيد اللغة، فقد مثّل ذلك الإنجاز بتحليل النصّ العربي من أساليب عُلقت به طيلة قرون عدة في عصر الانحطاط، واستمرت حتى عصر النهضة. فالتعبير أخذ يتحرر تدريجياً من الرخايف اللفظية كالسجع والطباق، وحلّ بدلاً من ذلك الأسلوب المرسل، السهل، السريع، الذي يحرص على المادة الفكرية والعاطفية والتعبير عنها. وبشكل متنام، متعاقل مع نمو وعي القارئ المتلقي، وبفضل التعميم وانتشافة الإعلامية الإبداعية، أنتجت لغة الصحافة أسلوباً جمع بين البساطة والجمال، وسرعة الأداء والتعبير، وهو ما انعكس إيجابياً على تقليص الفجوة التي سادت قروناً عدة بين العصري والعواميات.

لكن معودة العواميات ثانية إلى الاستخدام اللغوي من جراء اعتمادهما بشكل متزايد في العديد من محطات التلفزة وإذاعات الـ «إف إم»، وبعض البرامج الإبداعية في الإذاعات الرسمية، إضافة إلى عامل آخر ساعد على ذلك، هو اعتماد المتلقي على مشاهدة التلغزيون ومتابعة برامج اليومية، بحيث صار يميل إلى النصّ المسجوع - المرئي أكثر من اهتمامه بالنصّ المكتوب؛ أقول، بتأثير ذلك كله

أصبحت مسؤولية الصحافة مضاعفة في تكريس اللغة المشتركة، أو اللغة التي
مهجنها في تقريب العاميات إلى الفصحى المبصرة، ويات على الصحافة أن تجتهد
في انتداع:

(١) أسلوب حي بعيد إلى التلقي رغبة القراءة، ويستميل ذوقه المعرفي، كي
يصل على قراءة النص المكتوب بشغف.

(٢) بالمقابل، عرفت اللغة أشكالاً وأساليب جديدة استوجبتها الصحافة
وتعبيتها، وهو ما تمثل بنجاح نسبي في تكييف اللغة العربية من حيث اعتماد الدقة
في دلالة المفردات المستخدمة في المقالة الصحفية، واعتماد الإيجاز في التعبير
اجملي، والالتزام بحجم ومقاييس الافتتاحية والرواية الثقافية وعمود مراجعة
الكتب وسواها.

(٣) وفي الوقت نفسه، أحدثت الصحافة تعديلاً على المقومات التقليدية لبعض
لأشكال الأدبية المنشورة في الصحافة، فقد تحلّت المقالة مثلاً عن التطويل في
المقدمة، وياتت تطرق الموضوع مباشرة، وقلّصت من العرض، لتختص سريعاً إلى
نتائج واضحة محدّدة. ونجد الشيء نفسه في ما أحدثته الصحافة في النص المسرحي
أو الأدبي المنشور في الرواية الثقافية.

(٤) وأسهمت الكتابة الصحفية في توسيع اللغة المهنية ذات الطابع التقني،
وذات اعتماد لمة الإقناع عن طريق إيراد المعلومات المعززة بالإحصاءات والبيانات.
لكن انقلب أن هذا الانتشار الواسع للغة الصحافة، وما رافقه من نجاح ثقافي، لم
يقترن بدراسات علمية تناول لمة الصحافة، وتحدّد حصائصها، وتعمل على وضع
معجم مهني خاص بها يرصد المفردات والأساليب الأكثر استعمالاً، والأقل
استعمالاً. كما لم يعمل المختصون من لغويين وإعلاميين على صناعة معاجم ثنائية
متطورة تتضمن المستجد من مفردات الإعلام في اللغات الأجنبية الأكثر انتشاراً في
عالم الصحافة، وتتضمن أنواع الأساليب المعتمدة حديثاً في أرقى الصحف العالمية.

ب - وعلى صعيد لغة الإعلان في الصحافة، فإننا نلاحظ ارتباط هذه اللغة في
معظم الصحف برغبة المعلن ومقاصده في تسويق السلعة التجارية. ومن الطبيعي أن
تلقى هذه الرغبة موافقة المسؤولين في الصحافة، لأن المعلن هو رأس الموارد المالية
للصحيفة، فالإحصاءات تشير إلى أن ٨٠ في المئة من إيرادات الصحف تعتمد على
إعلانات. وعندما تُحسب المساحة المخصصة للإعلانات في الصحف يصح
أنها لا تعل عن ٧٠ في المئة، وتخصص المساحة الباقية ٣٠ في المئة للأخبار والموارد
الثقافية، وبما في الموارد الإعلامية الأخرى، مما يصع في أيدي المعلمين والشركات

الإعلامية سلطات خفية تصل إلى حد إمكاتبه إفلام هذه الصحف إذا تحلى عنها هؤلاء المعلنون^(١٨).

وتتوزع لغة الإعلان في الصحافة بين التعبير بالصورة والتعبير بالكلمة. وفي حين تسيطر لغة الإثارة في الصورة، ولا سيما استغلال جسد المرأة، تتفاوت في لغة الكلمة نسبة التعبير بالفصحى حيناً، والتعبير بالعامية حيناً آخر. وفي لبنان، تتميز لغة الإعلان المطبوع في الأغلب الأعم باعتماد اللغة الفصحى القائمة على الاحتمنة، ثم توريث الكلمة في الجملة إلى تقطيعات مقرونة بالنسجيج الخفيف، أو اعتماد الحملتين أو الثلاث القصيرة جداً^(١٩)، وقد يتداخل التعبير الفصحى بالعامي في إعلان الواحد، أو في جزء من الإعلان^(٢٠)، ويتداخل من حيث أساليب الجملة الخبر الإبلاغي بالاستفهام^(٢١).

وتحتكر اللغة الفصحى في الصحف اللبنانية الإعلانات المبوبة ذات الطابع الرسمي (الأحكام القضائية، إعلانات الأدلة، التعليقات والتبليغات الرسمية والخاصة المتعلقة بالمسائل الاجتماعية والثقافية)، فهي تندرج كلها في سياق لغوي فصحى، ولغة سليمة مختصرة واضحة، كما يراعى في الصياغة اعتماد المفردات - المصطلحات الخاصة بموضوع الإعلان^(٢٢).

(١٨) عبد الرحمن، قضايا التنمية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث، ص ١٠١.

(١٩) في إعلان لصالح «Dream Park» نلاحظ اعتماد ثلاث جمل، كل منها جملة مؤلفة من كلمتين (١) ألعاب جديدة، (٢) المدخول مجاني، (٣) أسعار مخفضة. ثم جاءت جملة رابعة للتأكيد مع توضيح بالعربية (٤) المدخول مجاني إلى حديقة الحيوانات. ما يذكر أن هذا الإعلان كان ثنائي اللغة العربية والانكليزية. انظر: صدى البلد، ٢٠٠٥/٨/١٣، ص ١.

(٢٠) مثال للإعلان الواحد الذي يجمع بين الفصحى والعامية: إعلان لصالح «Animal City»، جاء فيه: «أكبر حديقة حيوانات في لبنان ٢٥ ألف متر - ٤٠ نوع حيوانات مفرسة ولحمة - مدينة ملاهي ومطاعم». انظر: المصدر نفسه، ص ١. مثال آخر، لصالح برنامج تلفزيوني، بعنوان «Soccer Stars»، جاء فيه: «من عدة بلاد عربية تم اختيارهم / حلم واحد يجمعهم / ويسكن واحد سوف يتدربون / هوايتهم هي كرة القدم / والكرة أقرب صديق لهم / من منهم سيصبح بطل عالمي؟». انظر: السفير، ٢٠٠٥/٨/٢٤، ص ٧.

(٢١) إعلان لبرنامج تلفزيوني، بعنوان: «لغة شعاع». جاء في الإعلان المؤلف من الكلمة والصورة: «هل تعاني من أن يصبح أطفالك هكذا؟ هل يعاني أحد أفراد عائلتك من أوجاع في العمود الفقري - الجمعية اللبنانية للتربية بأطفال السكولير تنصحكم بمشاهدة برنامج لغة شعاع على تلفزيون الجديد... الخ». انظر: السفير، ٢٠٠٥/٨/٢٤، ص ٧.

(٢٢) مثال: «تنظم مؤسسة الفكر العربي، الملتقى العربي للترجمة برعاية الرئيس إميل لحود وبالتعاون مع عدد من الجهات والائتمانات للغة بالترجمة... الخ». مثال آخر، إعلان شركة تأمين، موجه إلى ثقافة صياديه بيان: «ميد غلف... تعلن عن تجديد عقد الشبان الجماعي مع شركة للتوسط والتخليج للتأمين وإعادة التأمين (...). على الراغبين في الانسحاب المحصور إلى مركز تعادة صيانة لساندا... الخ». انظر: السفير، ٢٠٠٥/٨/٢٢، ص ٨ و ٢٢ على التوالي.

لكن هذا المستوى اللغوي في الإعلان قد يتغير بحسب رغبة المعلن، فهناك من يرى أن لغة الإعلان بالعامة أقرب إلى أذواق الناس، وهي تستميلهم بسرعة، وتتجاوب مع سلوكهم اللغوي والتفسي^(٣٣).

٢ - لغة النص الإذاعي والتلفزيوني

١- تعود أهمية الإذاعة الصوتية (الراديو) والتلفزيون باعتبارهما وسيلتي اتصال فعالين بالجمهور - إلى ما يُتاح لهما إذاعته من إنتاج خاص بهما، وإلى كونهما جهاري نشر لبعض ما تنتجه وسائل الاتصال الأخرى التي يتلاءم نشاطها مع نشاطهما، كالسينما والمسرح والمحاضرات والمقابلات واللقاء بالناس في عملهم ونحوالهم ونزهاتهم، وما إلى ذلك.

وتتصل هاتان الوسيلتان اتصالاً وثيقاً بالثقافة التي تنتقل عن طريق الصوت، والصورة المقترنة بالصوت، إلى قطاعات كبيرة من المجتمع، فيترك بهما أصمى الأثر في نفس السامع والمُشاهد، ويحقق جاذبية خاصة وقدرة عالية على الإقناع، يرجع بعضها إلى سهولة إدراك الرسالة المبتوثة والانفعال بها. ويزيد من هذه الجاذبية والقدرة إحساس السامع والمُشاهد بانعدام عنصر الزمن بين عنصر بث الرسالة وتلقيه لها. ويحيل عملية التلقي إلى عملية من المشاركة الوجدانية العميقة^(٧٤).

من هنا تبدو ظاهرة الارتداجية في استعمال اللغة مسألة أساسية في البث أو الإنتاج الإذاعي والتلفزيوني. ويختلف النماطي مع المستوى اللغوي باختلاف المواد والبرامج من حيث أهدافها وتنوعها وتقسيماتها الإدارية؛ ف لغة البث في المواد السياسية، ونشرات الأخبار، والتعليقات، والبرامج التي تحقق الهدف الإعلامي الموجه تكون بالفصحى، إن كان ذلك في المحطات الرسمية أو الخاصة. ويل ذلك لغة المواد الثقافية التي تحقق هدف «التثقيف»؛ فهي في الغالب لغة «ثالثة» تتيح إلى الفصحى الميترية. أما لغة المواد الدرامية والمتوعات ونقل البرامج الرياضية والمناسبات والألعاب وسائر مواد الثقافة الشعبية، فعالباً ما تكون بالعامة.

يستثنى من هذا المشهد لغة الإذاعات المحلية على موجات الرافد، إم (FM).

(٢٣) مثال أول: إعلان لصالح جمعية قرى الأطفال SOS اللبنانية، جاء فيه بالحرف الكبير جداً كلمة،
 روح نسبح / كلمة «شكراً» من هنا بيعتها... . انظر: حملتي اليقظة، ٢٤/٨/٢٠٠٥، ص ١٨. مثال ثانٍ
 إعلان لصالح لئد المصارف في بيروت، جاء فيه: «نعا... روح، نعا... روح، نعا... روح»، مثال ثالث
 «ناحدك ومحبك عل الفاضي» (...). «هم يتنكر مشنري بيب العمر» بدل ما تأخني وقتك رابع جناح
 سمعيت الحواب من الأول. انظر: النهار، ١٣/١٠/١٩٩٧، ص ٤.

(٢٤) المؤتمر الثاني للاتحاد الشعبي اللبناني (بيروت)، طرابلس، ١٩٩٩، ص ٨١٢.

المشتركة بالثلاث في المدن العربية، فمعظم هذه المحطات تعتمد العامية، كما تتميز بمعجم مفرداتها وتراكيبها المحدود.

لكي الوجه المقابل لهذا الشبوع اللهجي في محطات الإذاعة المحلية ما نشه الإذاعات الموحدة من خارج الوطن العربي، فالمفارقة أن هذه الإذاعات (الصدقية والعدوة) تعتمد الفصحى ولا مكان للهجات المحلية في ما نبثه من برامج. وتروى دهشة المفارقة عندما تعلم أن القاتمين على هذه الإذاعات يدركون طبيعة اللغة كأداء اتصال... لذا فإنهم يلجأون بالضرورة إلى «اللغة المشتركة».

ورن الإحصاءات المالية تؤكد أن اللغة العربية الفصحى تحتل المكان الثالث بين اللغات المستخدمة في الإذاعات الأجنبية^(٢٥).

وهي دراسة ميدانية أعدها ياسر الملاح لاتحاد إذاعات الدول العربية من الفصحى والعامية في الإذاعة والتلفزيون في الوطن العربي^(٢٦)، خلص في تحليله الاستبيانات الاستطلاعية وملاحظاته حول الجداول الإحصائية إلى نتائج نختار منها ما يلي:

(١) يبين المتوسط النسبي للفصحى في برامج كل إذاعة وتمثيلياتها ومسلسلاتها وأغانيها^(٢٧):

(أ) يبين الجدول رقم (٣) في الدراسة المذكورة أن أعلى نسبة متوافرة في المواد التي تبثها إذاعات البرنامج الثاني والقرآن الكريم هي في مصر العربية (١٠٠ في المئة)، وأخفض نسبة للفصحى هي في إذاعة تونس (١,٥٤ في المئة)^(٢٨).

(ب) إن المتوسط النسبي لمجموع ما يبث باللغة العربية في الإذاعات المذكورة يبلغ ٦,٨٢ في المئة، وهي نسبة جيدة تشير إلى تفوق الفصحى على العامية بدرجة ملحوظة^(٢٩).

— ملاحظات حول الفصحى في الأغاني^(٣٠).

(٢٥) شرف، اللغة العربية والفكر للخطي، ص ١٦٩.

(٢٦) ياسر الملاح، معجم الفصحى والعامية في الإذاعة والتلفزيون بالوطن العربي، دراسات وبحوث إذاعة، ٣٠ (تونس: اتحاد إذاعات الدول العربية، ١٩٨٤).

(٢٧) المصدر نفسه، الجدول رقم (٣)، ص ٣٢-٣٣.

(٢٨) المصدر نفسه، الجدول رقم (٣)، ص ٣٣.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٣٣.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٣٣-٣٤.

(ح) إن نسبة ما يبث باللغة العربية الفصحى يراوح بين ٥٠ في المئة في إذاعة الكويت إلى ١٠٠ في المئة في إذاعة القرآن الكريم في القاهرة.

ب - أما الإذاعات العربية الأخرى، فتتراوح النسبة بين ٢٠ ٣٠ في المئة. وتغطي اللهجة المحلية بالنسبة الأكبر في كل إذاعة، ثم يأتي بعدها اللهجة المصرية في الإذاعات العربية غير المصرية.

(٢) يبين المتوسط النسبي للفصحى والعامية في برامج تلفزيونات الدول وفق نظام تنازلي :

المادة	نسبة الفصحى (في المئة)	نسبة العامية (في المئة)
شرة الأخبار	١٠٠	
التعليق على الأخبار	١٠٠	
برامج المناسبات القومية	١٠٠	
برامج المناسبات الدولية	١٠٠	
البرامج التمثيلية والمسلسلات الدورية	١٠٠	
الحديث الديني	٩٧,٩	٢,١
برامج المناسبات الدينية	٩٥,٨	٤,٢
البرامج الأدبية	٩٥,٥	٤,٥
برامج المناسبات الوطنية	٩٣,٨	٦,٢
البرامج العلمية	٩٠,٤	٩,٦
شرة الأحوال الجوية	٨٨,٨	١١,٢
البرامج الثقافية المتنوعة	٨٠	٢٠
المقابلات التلفزيونية	٧٩	٢١
برامج الطلبة	٧٧,٥	٢٢,٥
التمثيلات والمسلسلات التاريخية	٧٧,٢	٢٢,٨
الأخبار الرياضية	٧٧	٢٣
برامج الأسرة	٦٩,٨	٣٠,٢
برامج المسابقات	٦٦,٢	٣٣,٨
برامج الأطفال	٥٧,٩	٤٢,١
برامج المتنوعات	٣٩,٦	٦٠,٤

يتبع

تابع

عمل الدراسات الرياضية	٣٧,٥	٦٦,٥
لتمثيلات والمسلسلات المعاصرة	١٠,٥	٨٩,٥

ملاحظات - يلاحظ أن نسبة العامية مرتفعة فوق ٦٠ في المئة في البرامج التالية: برامج المتوعات، وعمل الدراسات الرياضية والتمثيلات والمسلسلات المعاصرة.

- يلاحظ أن البرامج التي تبث مساء ١٠٠ في المئة الفصحى هي: نشرة الأخبار، والتعليق على الأخبار وبرامج المسابقات القومية، وبرامج للتسابقات الدولية، والتمثيلات والمسلسلات الدبية.

- يلاحظ أن بعض البرامج تنخفض نسبة الفصحى فيها عن ١٠٠ في المئة، وهي: الحديث الدبي، وبرامج المسابقات الدبية، والبرامج الأدبية، وبرامج التسابقات الوطنية، والبرامج العلمية، ونشرة الأحوال الجوية.

المصدر: ياسر اللاح، معد، الفصحى والعامية في الإذاعة والتلفزيون بالوطن العربي، دراسات وبحوث إبداعية ٣٠ (تونس: اتحاد إذاعات الدول العربية، ١٩٨٤)، الجدول رقم (٢)، ص ٤٤ و ٢٣-٢٤.

(٣) يبين المتوسط النسبي للفصحى في برامج كل محطة تلفزيونية وتمثيلية ومسلسلاتها وأغانيتها وفق نظام تنازلي:

البلد	نسبة الفصحى (في المئة)
المملكة الأردنية الهاشمية	٩٢,٧
جمهورية اليمن العربية	٩٢
الجمهورية العربية السورية	٨٣,٦
المملكة العربية السعودية	٨٣
دولة قطر	٨١,٤
الجمهورية العراقية	٨١,٣
جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية	٨١
جمهورية مصر العربية (القناة الثانية)	٧٦,٨
جمهورية مصر العربية (القناة الأولى)	٧٠,٦
دولة الكويت	٦٤
جمهورية السودان الديمقراطية	٥٤,٧
الجمهورية التونسية	٥١

المصدر: المصدر نفسه، الجدول رقم (٣)، ص ٤٥.

(٤) ملاحظات حول البرامج والتمثيلات المنتجة محلياً والمستوردة، ونسبة الفصحى واللهجات المحلية فيها^(٣١):

(٣١) المصدر نفسه، ص ٤٩.

- إن المتوسط النسبي للفصحى يبلغ ٢٢,٧٥ في المئة، في حين أن المتوسط النسبي اللهجة المصرية يبلغ ٤٣,٥٧ في المئة.

- أما اللهجات العربية الأخرى، فيبلغ متوسطها النسبي ١١,٤٢ في المئة.

وهذا يدل دلالة واضحة على أن الإنتاج الذي ينم باللهجة المصرية رائج في المحطات العربية، وهو يبلغ أعلى نسبة إزاء الفصحى واللهجات الأخرى.

(٥) يشير المتوسط النسبي لمجموع ما يبث بالفصحى في التلفزيونات العربية إلى ارتفاع نسبة الفصحى، فهو يبلغ ٧٦ في المئة، ولكنه دون المتوسط النسبي لمجموع ما يبث بالفصحى في الإذاعات العربية (الراديو) (٣٢).

ما يمكن أن يسجل على هذه الدراسة القائمة على استبيانات استطلاعية وجداول إحصائية، هو التالي:

(أ) تعتبر هذه الدراسة قواة دراسات في الاتجاه نفسه.

(ب) ضرورة استقاء المعلومات من مستمعي (الراديو) ومشاهدي التلفزيون من خلال استبيانات عشوائية تشمل مدن الوطن العربي وأريافه.

(ج) قراءة نتائج الاستبيانات والجداول الإحصائية قراءة وظيفية لصالح تفريب الشقة والتباعد بين الفصحى والعامية.

(د) تعقيب القراءة الوظيفية بمسح تطبيقي نستخلص مؤشرات جدواه بعد مرحلة محددة، ثم يباشر باستطلاع تال لتكون للمعالجة متواصلة.

رابعاً: اللغة والإعلام: نحو تنمية الوظائف المشتركة

١ - تنمية عناصر البنى التحتية

أ - يتقدم وضع سياسة لغوية - إعلامية قائمة الأعمال التي تسهم في بناء هيكلية نظرية - تطبيقية تكون بمثابة خريطة طريق يسترشد بها الباحثون المعنيون في مسائل الإعلام الجماهيري.

ب - ومن المتعذر تحقيق مثل هذا البرنامج بغياب قرار سياسي يصدر عن السلطات الحكومية، يُسمح بموجبه لـ للوارد البشرية المختصة إطلاق ورش العمل.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٥٠

ومن المتعذر أيضاً أن تنجح فرق العمل مهماتها معزلة عن موازنة مالية تكفل سداد مصفات الدراسة والتعمد.

ومن البديهي أن ينهض بهذا المشروع الرائد الباحثون المبدعون، والتحدياتيون، والمتورون بثقافة العصر، والمطلعون باستمرار على الجديد في بحوث تقنيات الإعلام وتقنيات المعلوماتية، وهذا يعني دائرة واسعة من المتخصصين في علم اللغة والمعالجة والإعلام والتربية والمعلوماتية والحضارة.

ومن المتعذر التوسع، كمّاً وكيفاً، في إعداد الموارد البشرية اللازمة لتنمية تقنيات الإعلام، وتدريبها، وبالتالي يتعذر نشر الثقافة العلمية بين أوسع الجماهير ما لم يتم تدريس المواد العلمية والتقنية باللغة الأم، وما لم يستند هذا التدريس إلى البحث العلمي داخل الوطن العربي، والترجمة الدقيقة المكثفة السريعة المتواصلة لما يستجد من دراسات علمية وأبحاث تكنولوجية تنشر في لغات الأمم الأخرى المتقدمة تكنولوجياً وصناعياً^(٣٣).

ج - ويقترح بهذا البرنامج الشمولي التزوّد بـ مواد المعلومات اللغوية، عبر استثمار المكانز اللغوية المتوفرة في المؤسسات الحالية^(٣٤)، وإجراء ما يُعرف بـ «استطلاعات الرأي» التي تربط الدرس النظري بالجماهير في شبه اتصال دائم، ليجمع الباحثون مادتهم من واقع الحياة اليومية الزاخر بالتحويلات والمؤشرات الحيوية، مما يجعل الاتصال في مناخه الطبيعي بين الباحثين وجمهور المتلقين.

٢ - تنمية عناصر استخدام اللغة العربية

أ - يسجل نظام قواعد العربية درجة عالية من عدد الأحكام الموجبة، والأصول المقررة، والمسائل الخلافية. وقد بذلت جهود في تيسير الصرف والنحو، ولما يزن يحاول عدد من اللغويين تحديث نظام الجملة العربية في ضوء مساهج اللسانيات الحديثة، ولا سيما المنهج التوليدي. لكن عصر المعلومات المتعاظم يجابه العربية بنظم المعالجة الآلية للغة، وي طرح في هذا الضوء نظم البرمجة بوساطة الكمبيوتر، الأمر الذي يدفع بالباحثين العرب إلى ابتداع السبل التطويرية كي تقدر اللغة العربية على الامتراط في النظم الآلية للصرف والإعراب وتحليل الدلالة، وسائر التطبيقات

(٣٣) اللسان العربي (المغرب)، العدد ٢٥ (١٩٨٤ - ١٩٨٥)، ص ٤٦.

(٣٤) تقوم مجلة اللسان العربي (التي تصدر عن المنظمة العربية للدراسات والثقافة والعلوم - مكتب نسبي العربي) بنشر بحوث في غاية الأهمية، تناول فيها الدراسات النظرية والتطبيقية التي تجرى حول الفكر العربي، وسائر مشكلات المعلومات الآلية، وتنظم الترجمة إلى العربية والمعجمية الحديثة المتخصصة ومساهماتها في الترجمة ونقل التكنولوجيا، إضافة إلى جهود مكتب التنسيق في وضع مصطلحات لمختلف العلوم والفنون الحديثة.

لغائمة على النظم اللغوية الآلية التي تشمل، على سبيل المثال، لا الحصر «الترجمة لآلية، والتدقيق الهجائي والنحوي، والفهرسة والاستخلاص الآلي، وفهم الكلام ونطقه آلياً»^(٣٥).

ب - يسجل نظام للمعجم اللغوي نقطة مركزية في دلالة الكلمة المفردة، ودلالة موقعها في السياق، مما يعطي المستخدم مجال الاختيار والبحث عن الدلالة المرادة في تعبيره وأسلوبه المتنوع.

لكن تنوع النص الإعلامي (مُرْسَلَة علمية أو أدبية أو ثقافية، سياسية أو اقتصادية...)، وتعدد وسائط الاتصال الإعلامية، وما لكل واسطة من متطلبات تقنية مميزة (صحيفة، أو مجلة، أو كتاب، أو إذاعة، أو تلفزيون...) يدفع بالمعجم العربي إلى ضرورة مماثلة لمعجم اللغة الإنكليزية الذي يسجل تطوراً سريعاً على صعيد تنظيم مداحلاته ومحتوى البيانات التي توصف من خلالها هذه المداحلات، إضافة إلى الكم المتزايد باطراد في عدد المفردات والمصطلحات؛ ذلك الكم الذي تفرره باستمرار مستجدات عصر المعلومات وتقنياته الحديثة.

لذا، تدعو الضرورة إلى إنتاج معجم يخدم الإعلام اللغوي، فوامه الألفاظ الأكثر وروداً في الاستعمال الإعلامي، ولا سيما الصحافة والإذاعة والتلفزيون. وتستدعي المنفعة العلمية، في هذا المعجم، أن تُرتَّب الألفاظ الواردة فيه ترتيباً ألفبائياً، ثم ترتيباً بحسب الحقول الدلالية، ثم قوائم تشير إلى نسبة تواتر الألفاظ في استخدام الإعلاميين، وفق ما تعطيه إحصاءات تواتر الكلمات صعوداً أو تنازلاً.

ويقودنا ذلك إلى حاجة الإعلام، بمختلف وسائطه، إلى ما يمكن تسميته بـ «معاجم المهن»، أو «معاجم الاختصاص». فالتص على تنوعه من مسوع أو مقروء أو مرئي، وعلى مختلف مضامينه، يتطلب توفر العودة إلى معجم يحمل اللغة الخاصة وينضم التنوعات اللغوية التي يستعملها المتخصصون، كل في مهنته، في كتاباتهم، في الحقول الموضوعية المختلفة، كما هو الحال في اللغة التي تكتب فيها مادة الفيزياء، أو الطب، أو الجيولوجيا... إلخ^(٣٦).

ومع السمو المتزايد لظاهرة الإعلام وعالم المعلومات اطرْد سمو المفردات

(٣٥) الرامي، اللغة العربية وعصر المعلومات، ص ٢٨٧

(٣٦) يشار بالنويه، هنا، إلى جهود المجمع اللغوية العربية (في القاهرة ودمشق وعمان وبيروت)، وما أبتن عنها من لجان متخصصة، في وضع المصطلحات العلمية والفنية، وما صدر عنها من معاجم متخصصة في حصول مهبة علم.

والمصطلحات الخاصة بهذا الإنتاج المعرفي والتقني، وهو أمر مستلزم من الباحثين المعنيين العرب تدارك هذا النقص عن طريق:

أ - «محصى طبيعة التصورات والمصطلحات بغية وضع المصطلحات المسقة الأحادية أو المتعددة اللغات، بحيث يتاح توظيفها من حيث هي أدوات للاتصال وتنظيم المعرفة، وتقل المعرفة والتعنية».

ب - «محصى اللغات الخاصة من جهة استعمالها معجمياً ونحوياً وأسلوبياً وإحصائياً، بغية تعليم هذه اللغات، ومعالجة النصوص الخاصة وترجمتها»^(٣٧).

ج - إن تنمية العلاقة التبادلية بين اللغة والإعلام يكون ممكناً بمقدار ما تتوفر الأدوات الإنتاجية التي يتطلبها الاستثمار، وفي مقدمة ذلك الترجمة. وهنا يجب التوجه، بصورة أساسية، إلى الكاتب الإعلامي والصحافي والمعلم، فهم مركز اهتمام الترجمة باعتبارهم يكونون جمهور الثقافة العامة.

ويقترن بذلك توفير المستلزمات الأساسية التي لا تقوم الترجمة من دونها، وهي طبيعتها: المعاجم المتخصصة، والكتاب المرجع.

د - نعتبر ثنائية الفصحى والعامية من أبرز ملامح العلاقة بين العربية وفئات مستخدميها، فما زال طيف الاستخدام اللغوي موزعاً بين الفصحى والفصيحة والدغة المشتركة (أو الثالثة) والعاميات، على اختلاف مستوياتها وخصائصها في الوطن العربي. ومن خلال تعامل هذه المستويات اللغوية نتج مستوى لغوي، لغة الاتصال بالجمهور، وهي التي نمت وتطورت خلال سنوات طويلة في حقل الصحافة، ثم أزرعتها وسائل الاتصال السيمي والرئي بالجمهور، الأكثر حداثة، وهي الإذاعة والسينما والتلفزيون.

هذا المستوى اللغوي يرفض طبيعته الجديدة المتغيرة الواسعة الانتشار أن يكون حبيس لغة التراث، وليس من الممكن بطبيعة فاعليته ومدى انتشاره أن يكون لغة متخصصة للمعلم والخبيرة، ثم هو يختلف كثيراً عن لغة الأدب والعلم، لكنه ليس مقطوع الصلة تماماً بهذه النماذج الثلاثة من التعبير اللغوي، فهو يأخذ من كل منها، ويصنع من هذه الحصيللة المشتركة شيئاً جديداً يحمل ملامح المعايير والاختلاف، ويقرّب بدوره من وجدان الجمهور، وتعاملهم اليومي مع الحياة.

إن التعلّص المستمر للمسافة بين الفصحى والعاميات تتفاوت بسببه من وسيلة

(٣٧) اللسان العربي، العدد ٢٢ (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٩)، ص ١٣٩.

إعلامية إلى أخرى، ومن برنامج إلى آخر. وقد تكون الصحيفة أو المجلة من أكثر الوسائط الإعلامية إسهاماً إيجابياً في هذه المسألة.

وهنا يأتي دور إعلام اللغة، فبحقدور الإذاعة والتلفزيون الإسهام الفاعل في إحراز مهمة التثريب المشار إليها، وذلك بالتخطيط والتنفيذ لفائمة موضوعات يكون في مقدمتها أن يتكلم المذيع بالعربية الفصحى الميسرة.

ويندرج في هذا الدور للإذاعة والتلفزيون تصميم برنامج شامل لمحو الأمية، قد يكون من بعض وجوه تنفيذه إنتاج مسلسلات تلفزيونية وإذاعية باللغة الفصحى الميسرة تستهدف المبتدئين، وأخرى لغيرهم من العامة، حتى ينتشر النمط الدعوي السليم، ويشيع على ألسنة الناس كافة.

هـ- ويفضي الوعي بما يجابه الوطن واللغة من أخطار أن نحدد طبيعة علاقتنا باللغة، فنحن كثيراً ما نجانب جادة الصواب والموضوعية العلمية، حين نقع في ردة الفعل، فنحب العربية حباً صوفياً، ونبالغ إذ نرى فيها لغة مريدة المبقرية. إن هذا المنحى العاطفي يتأثير من الدين أو القومية لا يخدم العربية المعاصرة في صراعها مع قصايا الإعلام، بل الذي يخدم لغتنا في هذا الصدد هو أن نحدد مناحي القصور، ونمتلك الشجاعة بالاعتراف، فنقول إن لغتنا نجحت في العصر العباسي بفعل مؤثرين: الغلبة للدولة، وقدرة اللاهني على الاجتهاد، فأعاد من خصائص اللغة ولا سيما القياس والاشتقاق، فأبدع وبرع في استخدام اللغة، وأثرى إمكاناتها الواسعة في صوغ الألفاظ للمدلولات الحصرية المستجدة. وإن الموضوعية في تحليل الواقع اللغوي الإعلامي يدفعنا إلى القول:

«إن مقياس انتشار العربية أو تداولها لا يقوم على عدد المتكلمين بها، أو زيادة عددهم، بقدر ما يقوم على رصد الوظائف التي تقوم بها العربية في هذا الخصوص، وتحديد مجالات الاتصال التي يتحدث بها فيها، ولأي أغراض، وبأي مستوى من الكفاءة»^(٣٨).

(٣٨) فلوريان كولاس، اللغة والاقتصاد، ترجمة أحمد عوض، مراجعة عبد السلام دحوان، عام المعرفة: ٢٠١٣ (الكويت). المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١١، ص ٢٥٥.

الفصل السادس

اللغة وروابط الهيمنة عند ابن خلدون^(*)

محسن بوعزيزي^(**)

«علم أن لغة أهل الأندلس إنما تكون بلسان الأمة، أو بليل الغالين عليها أو المختلون لها».

فلما هجر الدين اللغات الأجنبية، وكان لسان الفاتحين بالدولة الإسلامية عربياً، هجرت كلها في جميع ممالكها، لأن الناس تبع السلطان وحمل دينه، فصار اتصال اللسان العربي من شمائر الإسلام وطاعة العرب.

أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون

أولاً: الفرضية

بعيداً عن الإسقاطات المفهومية، وحموح تحميل الفكرة الخلدونية ورر ما لا تعني، فذلك ضرب من «الأورثوذكسية» تتجنبها هذه الدراسة، أفترض هنا، أن في ما أنتجه ابن خلدون حول اللغة يمكن أن يساعد على فهم المسألة اللغوية، راسماً، في علاقاتها بروابط القوة.

(*) في الأصل ورقة قدمت إلى الندوة الدولية حول راهية ابن خلدون، للمعونة «اللغة وروابط القوة عند ابن خلدون» وهي من تنظيم جامعة صفاقس بالتعاون مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، ١٥-١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦ وشرب هذه الدراسة في المستقبل العربي، السنة ٢٩، العدد ٢٣٥ (يونيو الثاني/يولي ٢٠٠٧)، ص ١٩-٣١.

(**) أستاذ علم الاجتماع، جامعة التار، ورئيس الجمعية التونسية لعلم الاجتماع.

اللغة عند ابن خلدون ترتبط بالهيمنة، وكذلك بشروط اجتماعية وجغرافية وتاريخية. ويبدو العد الاجتماعي، أو السوسيوسياسي، في ما أنجزه من ربط محتر بين اللغة والهيمنة، تتحدد فيه اللغة بروابط القوة؛ فاللغة ليست قوية في حد ذاتها، بل الهيمنة تعلوها أو تدنيها. إنها أداة بيد السلطة لتشريع هيمنتها وفرض قوتها.

ويسرّز الثقل الاجتماعي للغة كذلك، حين تحسّست هذه الدراسة سوسيلوجيا املاكة الخلدونية، فرأتها مكتسباً تحول إلى كيان، وتحصل تطوراً بكثرة الممارسة للكلام العرب.

وليبيان صلة ابن خلدون، قصداً أو ضمناً، بالشروط الموضوعية للغة، نعزّض هذا النص كذلك إلى ما في النظرية الخلدونية من توزيع سائكروني، رسم فيه أطلسية اللغة العربية. وتتبعها دياكرونيّاً كذلك لتختلف عنه باختلاف السياق التاريخي. ولو لم يكن معيارياً في بعض المواضع، لا يمكن القول إنه كان رائداً لسوسيلوجيا اللغة، بما هي علم يدرس اللغة في ترابطاتها وعلاقاتها. لكن معيارته، أحياناً، تسقطه في التمييز، تفاصلياً، بين لغة وأخرى، استناداً إلى الدين أو الإثنية على غرار لغة القرآن أو لغة النبي (ﷺ) مثلاً.

ثانياً: اللغة والهيمنة

في نص من نصوص المقدمة كتب ابن خلدون فصلاً محيراً سناه «في لغات أهل الأمصار»، يربط فيه اللغة بروابط القوة؛ فاللغة المهيمنة التي تحكّر القول، وتفرض شرعيتها كلغة «اعتباطية» غير قابلة للاحتجاج، هي لغة المجتمع المهيمن بدينه: «اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة، أو الجليل العالين عيب أو المختطين لها»^(١). ولأن الهيمنة كانت لصالح الدولة الإسلامية على عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، فقد كانت العربية هي اللغة الشرعية التي وجب استعمالها وهجر ما عداها من اللغات الأعجمية، لأنها «حبّ» أي مكر وخديعة، كما يقرر عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) والسبب في ذلك عند ابن خلدون: «ما وقع للدولة الإسلامية من العلب على الأمم، والدين والملة صورة للوجود وللملك. وكلها مواذ له، والصورة مقدمة على المادة، والدين إنما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب، لما أن لسان العرب (ﷺ) عربي، فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها واعتبر ذلك في نهي عمر (رضي الله عنه) من رطانة الأعاجم. وقال إنها حبّ؛ فلما هجر

(١) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة (نوس) الدار التونسية للنشر، ١٩٦٤، ج ١،

الدين اللغات الأعجمية وكان لسان الفاعلين بالدولة الإسلامية عربياً، هجرت كلها في جميع ممالكها، لأن الناس تتبع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب»^(٢).

مكنا نقصى بحكم المهيمن من الاستعمال حتى لدى الناطقين بها، إقصاء يصل حد موها: «وهجروا الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك، وصار اللسان العربي لسانهم، حتى رشح ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم»^(٣).

ولكن اللغة العربية كذلك فقدت شرعيتها الاحتكارية وكادت تذهب لما تعبرت روابط القوة، واستول العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم في المشرق، وزنه والبربر في المغرب، على جميع الممالك الإسلامية. يقول ابن خلدون في هذا «ولما تملك العجم... وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية فسد لسان العربي لذلك، لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة»^(٤).

يخضع ابن خلدون اللغة إذا لروابط الهيمنة، فاللغة المهيمنة هي لغة الدولة المهيمنة، تقوى بقوتها وتضعف بضعفها، فحينما كانت روابط القوة لعائدة الدولة الإسلامية وصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب، أسدت شرعية احتكار السلطة لعائدة اللغة العربية ونهي عن غيرها من اللغات الأعجمية لما فيها من «رطانة ومكر». أما حينما أخضعت الدول الإسلامية وفقدت سلطانها، افسدت اللغة العربية على الإطلاق»^(٥). معنى هذا أن ابن خلدون لا يدرس اللغة كموضوع مستقل بذاته، بل يربطها بشروط استعمالها وعلاقات القوة التي تحكمها، فاللغة الحققة، هي لغة الأيديولوجيا المهيمنة. إنها خلق الدولة المهيمنة لسط نفوذها وتشريعها بحضاب واحد يسف ما عداها. هكذا تحولت اللغة العربية زمن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى لغة «إمبريالية»، احتكاريًا، تسطو على لغة الآخر، «الكافر»، الأعجمي، فتغلبها وتقتلها. وما هي اليوم كما كانت على عهد المغول والشر، تعدي أرمه حقيقية، تحت سطوة إرادة المهيمن واستبعاد الوسائط التقنية الحديثة للاتصال لها، حتى قيل إن المجتمعات العربية لا لغة لها اليوم.

ولقد كانت الفرنسية في القرون الوسطى تمثل لغة النبيل والوجاهة الاجتماعية لدى الناطقين باللغة الانكليزية، أما اليوم فتعيش غيباً حقيقياً بفعل هيمنة اللغة

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٥٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٥٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٥٨.

وانثقافة الأمريكيتين عليها. لغة الآخر المغلوب، عادة، كما يفتر ابن خلدون. لغة مبنية، خبث، مكر، وخديعة، لغة متوحشة، لهجة (Patois). ولقد ادرى ملراك (Balzac) في (Les Chouans) لغة «البروتون» ليضعها دون مستوى اللغة^(٦) هذا السطو على لغة الآخر باسم اللغة عينها، يحتل عند رولان بارت (Roland Barthes) المطلق لكل أنماط القتل الشرعي.

ويدعو جون لوي كالفي (Jean Louis Calvet)، في المعنى بعبه، إلى كشف كل أنواع الهيمنة والإمبريالية اللسانية التي تمارسها المؤسسة الاستعمارية حين أجهزت على اللغات المحلية، إجهاراً بلغ حد قتلها (Glottophagie). وليست اللغة عنده، بما فيها من جماعات لسانية (Communautés linguistiques) سوى خلق الدولة وكديتها، تشريعاً للهيمنة وتأكيداً لتفوق الغرب المسيحي على «الشعوب البدائية». ولقد مارست لسانيات كذلك تحت وطأة السياسي الإيديولوجي نوعاً من النفي للغات الشعوب الأخرى. وعليها الآن أن تكون ماصلة^(٧). إن هذه النظرة الأيديولوجية التي تكرر تفوق لغة على لغة أخرى من شأنها أن تقضي في وجه من وجوها إلى تشريع الهيمنة وتبرير الاستعمار ونفي الهوية المحلية كما يرى كالفي. يبدأ هذا التشريع من صياغات نظرية، لا تقضي ذرائعها، تقبم علاقة شرطية بين تطور المعرفة واستعمال لغة الآخر، لغربي، بحثاً وتدرجاً. وهما نمدو العربية ضمن هذا التوجه المتنامي (في الجامعة التونسية مثلاً) بعيدة عن التعبير عن المكر الحديث.

هكذا تنكشف في تاريخ اللغات سيرة من الصراع بين لغة غالبية ولغة مغلوقة، تظهر في ثنائيات متقابلة من قبيل لغة التوحش ولغة المتحضر، اللغة واللهجة، لغة حديثة ولغة بدائية، لغة القرآن ولغة المعجم، لغتنا ولغة الآخر، ويقع خدف نفي لغة الآخر نفي للثقافات والجماعات المنتجة لها. هذه اللغة لا مبرر لوجودها إلا لإنسان تفوق المهيمن وتشريع هيمنته؛ فالعربية، مثلاً، لم تكن من وجهة نظر عربية متفوقة سوى لهجة (Jargon) شاهدة على البدايات وعلى ما قبل التاريخ، وهذا الشعور بالاكتمال التاريخي حاض العرب معاصرة الاستعمار نحو شعوب «متوحشة» لم تبلغ بعد درجة الصغر في حرارة التاريخ، درجة تملكت اللغة، وهي لا تزال في مرحلة اللهجة برطانتها.

ولقد ساعدت اللسانيات الحديثة في بداياتها على ترويح فكرة دونية اللغات غير

Honoré de Balzac, *Les Chouans*.

(٦)

Louis Jean Calvet, *Linguistique et colonialisme, petit traité de glottophagie*, bibliothèque scientifique (Paris: Payot, 1974), p. 10.

انعمره سرعة مشبعة بمركزية أوروبية (Eurocentrique). ويمثل هذه النزعة درس موريس دي لافوس (Maurice Delafosse) لغات السودان القديم مستعيداً هذا التناقض بين اللغة واللهجة، فلا يرى فيها سوى لهجات بخلفية «تخفيري» عصرية أحياناً^(٨)؛ فالفرنسية مثلاً هي لغة المستعمر الأبيض، أما «اليمبرا» فلهجة المستعمر الأسود. تحمي هذه الثنائية المتغابلة باسم العلم روابط من العوة تدنو فيها اللغة قادمة بما اكتسبته من سلطة سياسية واقتصادية. أما اللهجة فلهجة مغموعة (Une Langue Ratée) سرعة كولونيالية لسانية جامعة.

ثالثاً: اللغة ظاهرة اجتماعية موضوعية

تشير هذه الدراسة أيضاً ما لوحظ من غياب عام في النصوص القارئة للمسألة اللغوية عند ابن خلدون، أهملت بالقصد أو من دونه المقاربة الاجتماعية للغة على أهميتها، فكل دارس لها، نظر إليها من زاوية اختصاصه الدقيق، فاستحضر ما يناسبه وغيب ما دون ذلك. اكتمى عبد القادر المهيري، مثلاً، بعرض ما ظهر له في أصل الخلدوني من مأكوف في علوم اللسان على عهده، وما بدا مجاوراً له^(٩) وقفاً عند التمييز الاصطلاحي بين اللغة واللسان^(١٠). وتبعه في هذا المسح عبد السلام المسدي الذي اقتصر على عرض هيكल المعارف اللغوية عند ابن خلدون، مشيراً في نهاية نضه، وفي جملة عرضية، إلى الثقل الاجتماعي في المسألة اللغوية، فهي بذلك: «نموذج الصنط العمراني بالمعنى الخلدوني الصائر بعد إلى دوركهايم»^(١١). أما أبو يعرب المرروفي فقد رأى وتحدد يدية غير مبررة، ابن خلدون أما علم الاجتماع للسان من دون منازع^(١٢).

تدرج المسألة اللغوية عند ابن خلدون في سياق اهتمامه بالعمران البشري والتفكير الاجتماعي، علاقتها بالمجتمع وثيقة تتغير بتغيره ونفسه بفساد اللسان

Maurice Delafosse, *La Langue mandingue et ses dialectes (Mali, Sénégal, Guinée)* (Paris, P. Geuthner, 1929), tome I, p. 10.

Calvet, *Ibid.*, p. 34

(٩) عبد القادر المهيري، «ابن خلدون وعلوم اللسان»، «حوليات الجامعة التونسية»، العدد ٢٤ (١٩٨٥).

(١٠) عبد القادر المهيري، «مصطلحات اللغة واللسان عند ابن خلدون»، «حوليات الجامعة التونسية»، العدد ٢٥ (١٩٨٦).

(١١) عبد السلام المسدي، «علوم اللسان عند ابن خلدون»، «الورد» (دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد)، العدد ١ (١٩٨٦)، ص ٢٦.

(١٢) أبو يعرب المرروفي، «مقالة اللسان وعلومه في مقدمة ابن خلدون»، «الشرق»، العدد ١ (حريف ١٩٨٨).

الأول والابتعاد عنه بالمخالطة، فتصير عمتزجة. إنه، مثلاً، لا يقف عند النحو، القائم على المطلق بتجربتيته، بل يربطه بالواقع ويراه تابعاً منه أصلاً. ولا يدرس اللغة في ذاتها ولذاتها، لأنها شديدة الصلة بالممارسة والاستعمال، أي بالظاهرة الاجتماعية في وحدتها وكنيتها^(١٤)، فاللغة، عنده ملكة في اللسان تحصل بممارسة فعل الكلام ومعاودته، حتى تترسخ متوالاً، يرتسم في المخيال بعد طول معايشة وحفظ لكلام العرب، فتصبح صفة راسخة في الفرد، ينسج عليها ويعيد إنتاجها من جديد، فالممارسة هي التي تبني للنوال، ولعلّه «هيتوس اللغة» الذي يمجّر في الفرد - متى تحقق - «الملكة المستعرة» هي العبارة عن المقاصد^(١٥)، أهليس في هذا بعض مما ذهب إليه اللساني السويسري فردينان دي سوسير، حين رأى في اللغة نتاجاً اجتماعياً لملكة الكلام تنبئها المجموعة، فتتمكن الفرد من ممارسة هذه الملكة^(١٦).

وعلى الرغم من تنزيل سوسير للغة منزلتها الاجتماعية، إلا أنه يستبعد مفارقتها سوسبولوجياً في سياق حديثه عن علاقة اللسانيات، موضوعاً ووظيفة، بالعلوم المقترنة بها. أما عند ابن خلدون، فاللغة نتاج الاجتماع الإنساني، وتكون بلسان الأمة العالية، فيفسرها اجتماعياً باعتبارها مواضع الأقرباء والمتغلبين في كل مجتمع^(١٧). إنها ظاهرة اجتماعية تاريخية تتطور بالاستعمال وتختلف باختلاف المجتمعات، تتجدد كل لحظة بالممارسة والتواتر من جيل إلى جيل، فيتعلمها المعجم والأطفال حتى أنها جيلة وليس كذلك. وهنا يقطع ابن خلدون مع السائد في الفكر وفي الحس المشترك، فاللغة، بلاغة وإعراباً، ليست طبيعة وجيلة مثلما هو مسلم على عهد، إذ كانت «العرب تنطق بالطبع»، بل ملكة تكتسب بالنشئة الاجتماعية، وضمن سيرورة من التعلم والتكرار، ومتى استقرت في الفرد ورسخت، تصبح كأنها طبيعة فيه، والحال أنها ليست كذلك، فظاهرها جيلة وطبع، وباطنها تربية اجتماعية وسيرورة من التكيف مع لغة المجتمع وموالاته في التعبير وفي البيان. كذلك هي اللغة عند فردينان دي سوسير شيء مكنسب متواضع عليه، ولا توجد إلا بمقتضى نوع من التعاقد الاجتماعي نتمثلها تدريجياً بالتدريب^(١٨). لكن سوسير يكتفي بوصف الظاهرة

(١٤) المصدر نفسه، ص ٨١.

(١٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ٧٣١.

(١٦) فردينان دي سوسير، دروس في الأنسبة العامة، تريب صالح القرمادي، محمد الشاوش و محمد عبيدة (طرابلس، ليبيا: دار العربية للكتاب، ١٩٨٥)، ص ٢٩.

(١٧) «في لغات أهل الأمصار»، يقول ابن خلدون في هذا السياق: «أعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأئمة، أو الجيل العاليين عليها أو للعتقلين لها». انظر «في لغات أهل الأمصار»، ص ١٥. ابن خلدون، المصدر نفسه، ص ٢٥٧، والمروعي، «مترلة اللسان وعلومه في مقدمة ابن خلدون»، ص ٣١.

(١٨) دي سوسير، المصدر نفسه، ص ٣٥.

للسان به من الداحل، ولا يجيل في مقارنته لها طورياً للسياقات الاجتماعية. إن امتداد اللهجة لتصير لغة يأخذ عنده طابعاً مثالياً (Idyllique)، إذا التعافد لها ضمنى (Convention Tacite).

نسب اللغة للعرب «بالطبع» كما هو متداول في الحص المشترك، بل تكسب «ملكة اللغة» بالممارسة والمحاكاة حتى يترسخ «منوال الملكة» نموذجاً في الفرد فيظهر كأنه طبيعة. وهو ليس كذلك في الأصل، بل يحصل بسيرة من الاستيطان لحو اللغة وعناصر البيان والبلاغة فيها؛ فملكة اللسان العربي و«منوالها» بحسب العبارة الخلدونية لا يستقران بالطبع، بل باستيطان «هيتوس اللغة» بعد طول حفظ وممارسة ومعايشة لكلام العرب. وتخضع اللغة عند ابن خلدون كذلك لصواب «ثنو جغرافية»؛ فالمستعمون بـ «الترى»، أي بالمحاكاة، هم أقرب إلى صناعة اللغة ونحوها من أهلها من العرب؛ فلما «فسدت» اللغة وصارت «مترجمة» احتيج إلى وضع الحو، فوضعه من اكتسبها بالترى من غير العرب. كما إن المعرنيين من غير العرب كانوا هم حملة العلم بمختلف «صناعاته»، إذ «الملة الإسلامية» كانت «أمة السزعة والشعار»، ومع ذلك تظل البلاغة الإسلامية في نظر ابن خلدون أبلغ من البلاغة الجاهلية. ولغة أيضاً منطلق جغرافي يرتبط بمسافات القرب والبعد من المدينة، تبتعد عن لسان مضر ولعة فريش كلما اقتربت من المدينة وامتزجت بغيرها من اللغات ففسدت. ويتحدث ابن خلدون كذلك عن لغة المدينة «لغة أهل الحضر والأمصار»، وهي لغة قائمة بذاتها تختلف عن لغة البدوة. وتكشف اللغة في مستوى آخر عن تراتبية اجتماعية يستنكف منها، بما هي «صاعة» أهل السياسة والسلطة والوجاهة الاجتماعية ويعتادها من كان هو ذلك.

رابعاً: سوسولوجيا الملكة الخلدونية

الملكة، ملكة اللغة، مكتسب محوّل إلى كيان، ترنسم منوالاً هي المحيال بالنعيم. إنها فعل فربوي تحصل تدريجياً بكثرة الحفظ والمعاودة والممارسة لكلام العرب، حتى يصح كأنه جبلّة أو طبع في الناطق بها، والخيال أنه سيرة من السليم وتكرار الفعل، حتى يترسخ منوال اللغة فيصير «بنية مبنية» يعاد إتاحتها ويسج عليها من تحقّت في العود «الملكة المسخرة في العبارة عن المقاصد»^(١٩).

إن مفهوم «النوال» هنا مركزي في تعريف ملكة اللسان، والملكة بصورة عامة، ولعنه الإضافة الأساسية في مقاربة ابن خلدون للملكة؛ فالنوال نموذج مثالي نسج،

(١٩) ابن خلدون، المصدر نفسه، ص ٧٢١.

نظورياً، بالفعل وتكرار الفعل «لحفظ النقيّ الحرّ من كلام العرب»^(٢٠) حتى تتكوّن الملكة وتصبح «صعّة راسحة»، ظاهرها جبلة، لصيفة بالكيان ويأطرها إنجاز ثقافي اجتماعي، اكتسب بضرورة من التكيّفات الاجتماعية ومن الاستعمال لكلام العرب يقول ابن خلدون في كيفية بناء الملكة، «إنّها تتكوّن : بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المتوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فيسج هو عليه، وتسرل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عبارتهم في كلامهم»^(٢١).

ويبدو ابن خلدون متيقظاً إلى أهمية مرحلة الطفولة في ترسيخ الملكة، مما يكتسبه الطفل خلال سنوات تعليمه الأولى : «أشدّ رسوخاً وهو الأصل لما بعده، لأنّ السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأسايبه يكون حال ما ينسج عليه»^(٢٢). هذه الفكرة عدّت اكتشافاً أنجزته في بدايات القرن العشرين المقاربة الأنثروبولوجية للثقافة بخاصة مع مدرسة «الثقافة الشخصية». تؤكد هذه المدرسة بمصايرها الجامعة لكلّ من روث بينيديكت (Ruth Benedict) ومارغريت ميد (Margaret Mead) ورالف لينتون (Ralph Linton) وأبراهام كاردينر (Abraham Kardner)، أنّ الملامح الأساسية للشخصية ترسم خلال السنوات الأولى من الطفولة بواسطة الثقافة. ومن هنا صاغ كاردينر وتبعه رالف لينتون مفهوم «الشخصية الأساسية»^(٢٣). وليس هذا بعيداً عنّا قصد ابن خلدون من «السابق الأول» ثمّ يتلقاه الطفل الذي هو كالفائدة أو الأساس للملكة. وفي الملكة طبقات، تتراتب بلافتها، فتتوقفي أو تنزل بحسب جودة المحفوظ وبلاغته، ويمدّ يديه أو بعده من اللسان المضوي.

خامساً: أطلس اللغة عند ابن خلدون : المستوى النكروني

يفترب ابن خلدون في بعض المواضع من سوسولوجيا اللغة من دون المقاربة السوسiolسانية (La Sociolinguistique)^(٢٤). في الأولى تقارب اللغة سوسولوجياً،

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٧٥٠.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٧٣١.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٧٠١.

(٢٣) «Anthropologie» dans: *Encyclopédie Universelle* (Paris: n. s.), 1996, tome 2, p. 522.

(٢٤) في سوسولوجية اللغة يبرز البعد السوسولوجي أصلاً فيها، وفي المقاربة السوسiolسانية بسند لأرويه اللسانيات (La Linguistique). الأولى تعتبر مقاربة سوسولوجية للغة تسعى إلى الكشف عن البعد الاجتماعي من المعطى اللساني، كالبحث عن الفروقات الاجتماعية أو التكوينية النهائي لمرد أو لمجموعة ما من خلال النشاط اللغوي، انظر مثلاً: Jean-Baptiste Marcellesi et Bernard Gardin, *Introduction à la sociolinguistique - La Linguistique sociale, langue et langage* (Paris: Larousse, 1974), p. 19.

بحثاً عن متغيرات ممكنة ترتبط بالسياق الاجتماعي الذي يستجها^(٢٥)؛ أما الثانية فلاصل فيها مقارنة لسانية تفتح على البعد السوسولوجي. ويبدو لي أن هذا أبرز ما أنجزه ابن خلدون وجعل منه معاصراً في بعض المواضع، حين ربطها بسياق الاستعمال، تتغير في حركة جولاتها، شرقاً وغرباً، بحسب جغرافية المستعمل وإثنته وزمنية معاشرته لها، طولاً أو قصراً.

وهنا نجدت ابن خلدون منعطفاً جديداً غير مسبوق في عصره وقبله، عندما يصنف اللغة بحسب ميقات جغرافية وتاريخية واجتماعية، تفتح أحياناً وليس دائماً مع التصنيفات المعيارية من قبيل لغة الأشراف ولغة القرآن ولغة النبي (ﷺ) ولغة الأدب ببلها. ولكنه يعود ليتوزط في مثل هذه المعيارية عندما يقيم فارقاً بين الكلام السقي والحز والفساد منه. وفي هذا ابتعاد عن ركن أسامي من أركان اللسانيات الحديثة التي استندت إلى مقارنة موضوعية للغة، ترى فيها شكلاً من أشكال التعبير، فتحترف باختلاف مستعملها من دون اعتبار للأفضليات المعيارية القائمة على لإقصاء. وهو ما يقلل من علمية الرؤية الخلدونية للغة ويحد من راعتها في مثل هذه الحالة. ولكنه يظل مع ذلك، وفي حده الأدنى، رائداً لعلم اجتماع اللغة. يبدو هذا مبرراً، ولو ضمنيّاً، في ما حاول رسمه من أطلسية للغة العربية، تبدأ من المركز، وتمثله لغة قرش «أفصح اللغات العربية وأضرخها»، وفصاحتها راجعة إلى انغلاق جغرافيتها عن الآخر من جميع جهاتها، تليها دائرة حمرانية ثانية تحيط بها، قريبة في تعبيرات أهلها من «صريح العربية»، ومسا قبائل ثقيف وهذيل وخزاعة. وبقدر ما تبتعد عن المركز، تتمتع الحدود متقاطع الإنسيات، عرباً وفرنساً وروماً وأحبشاً، فتضعف الملكة بمقدار البعد من المركز ويدرجة العمق في المخالطة، وعلى نسبة المخالطة يكون الابتعاد عن ملكة اللسان الأول، افتراضاً من الملكة الثانية التي للمعجم^(٢٦). ينسحب هذا على لغة أهل أفريقيا والمغرب التي صارت مخرجة بالمخالطة. ثم إن هؤلاء علبوا منطق اللغة على ملكاتها، فابتعدوا عن صناعة العربية عملاً وافترسوا منها علماً. ولأنهم كذلك، أكثر تمسكاً بقوانين اللغة من ملكاتها، فقد صبروها علماً صرفاً، فبعدوا عن ثمراتها، وهي عنده الملكة.

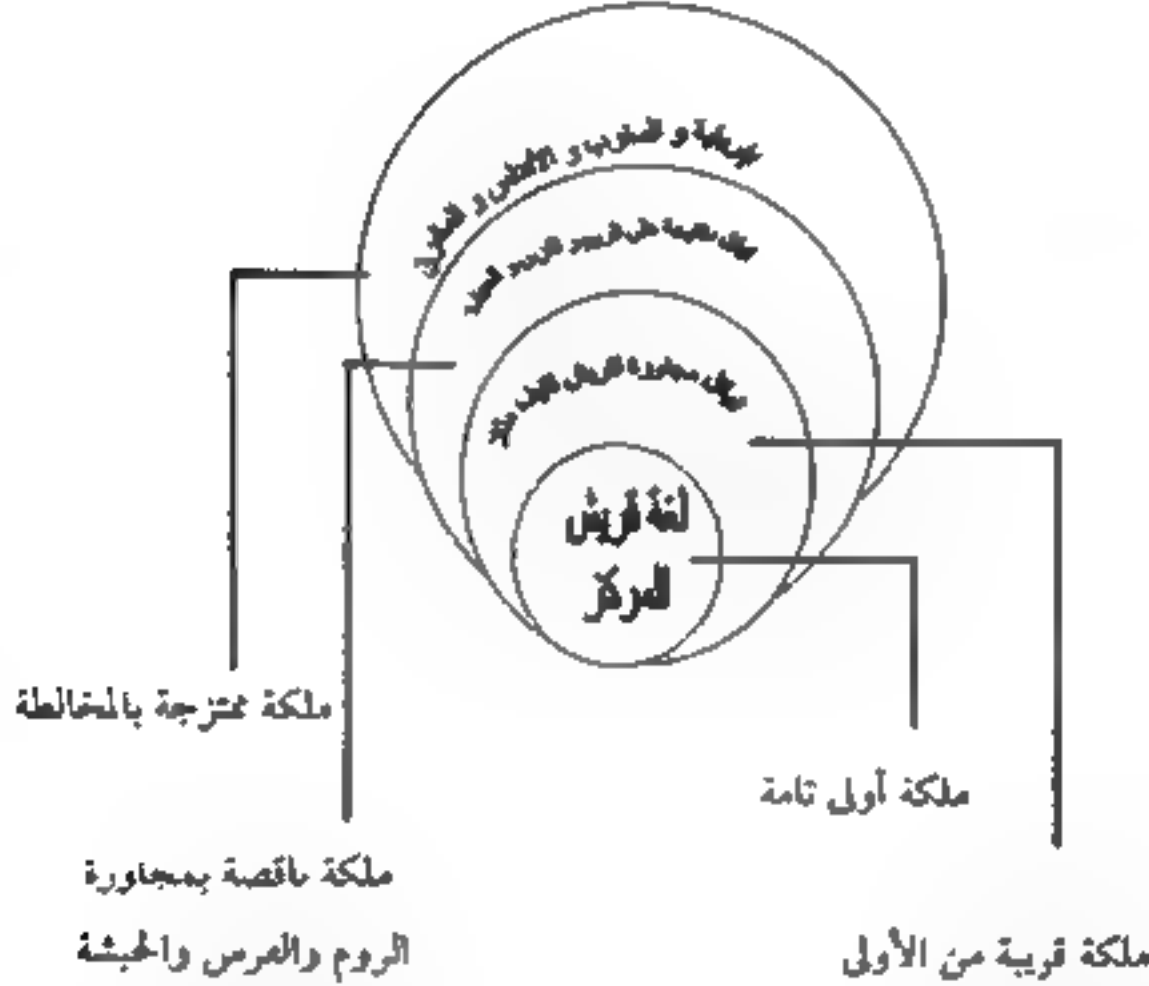
يقول ابن خلدون على معنى تمام الملكة بحسب القرب من المركز، أو مسادها بالابتعاد عنه ومخالطة الأعاجم: «ولهذا كانت لغة قرش أفصح اللغات العربية

William Labov, *Sociolinguistics: William Labov, le sens commun* (Paris: Bédouin de (٢٥) Minuit, 1976), p. 19.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٧٧٧.

وأصرحها ليعلمهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم. ثم من اكتشفهم من ثقب
وهديل وحراغة ويني كبانة وغطقان ويني أسد ويني تميم، وأما من بعد عنهم من
ربعة ولحم وجدام وغسان وإياد وقصاعة وعرب اليمن المجاورين للأمم الفرس
والروم والحبيشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم. وعلى سسه بعدهم
من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والعساد عند أهل الصناعة العربية^(٢٧)

الشكل رقم (٦ - ١)
أطلس اللغة عند ابن خلدون



ومن المنير ملاحظة أن طريقة النطق «بالقاف» أيضاً تختلف باختلاف الجغرافيات
الاجتماعية؛ فهي «قاف» مضحمة في لغة المدينة، و«قاف» قرصة من «الكاف» في لغة
البدو، فصارت مقياساً للتراتب والتمايز الاجتماعي وللتفريق بين الدحيل والأصيل
في عرويته^(٢٨). ومن أراد أن يتعرب فعليه أن عيد النطق بالقاف «من أقصى اللسان

(٢٧) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٢٧.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٧٢٥.

وما فوقه من الحنك الأعلى^(٢٩) ليظهر بذلك أنه مضري اللغة، لغة النبي (ﷺ) بعينها، حتى أن من قرأ القرآن بغير هذه «القاف» المضرية فقد «لحن وأفسد صلاته»، في رأي الفقهاء^(٣٠).

سادساً: سياقية اللغة: المستوى الدياكروني

لا يكتفي ابن خلدون بتوزيع اللغة أفقياً بل ينظر إليها في سياق تطوري . . . تعاقبي؛ فكلما ارتحلت اللغة عبر التاريخ وتداولتها الأجيال جيلاً بعد جيل، اختلفت في مبنائها ومعناها، فابتعدت عن بنيتها الأصلية أو نصير مختزجة وقد تذهب كلياً فتتقلب لغة أخرى. وقد كانت اللغة العربية فترة امتداد الدولة الإسلامية زمن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) هي اللغة الشرعية (Legitime) المهيمنة، ما دامت لغة الأقوى، إذ «الناس تبع للسلطان وعلى دينه»^(٣١). ولما امتدت الدولة الإسلامية، شرقاً وغرباً، امتزجت اللغة العربية باللغات الأعجمية فضممت ملكتها وتغير إعرابها وبعض أحكامها. أما اللغة التي عاصرها ابن خلدون في المائة الثامنة فقد تغيرت كذلك بالمخالطة، فصارت «مختزجة»، بعيدة في بعض أحكامها عن لسان مضر، ولكنها بالرغم من اختلافها تظل قادرة على التبليغ ببلاغتها الخاصة. ولم تفقد إلا حركات الإعراب في آخر الكلام، وليس بضائر لها، ما دامت اللغة تختلف باختلاف المستعمل وسياق الاستعمال. وهنا تظهر بوضوح المقاربة السوسولوجية للغة التي تربط اللغة، بنية ودلالة، بمعطيات اجتماعية وبروابط القوة؛ فقد ابتعدت لغة عصره عن لغة مضر حتى انقلبت أخرى مغايرة لكنها ظلت قادرة على تحقيق التواصل و«التعبير عن المقاصد»^(٣٢).

ويدعو ابن خلدون إلى دراسة خصوصيات اللسان العربي لعهد، وكشف القوانين التي تخضع والتي نسجها سياق اجتماعي وتاريخي مغاير: «ولعلنا لو اعطينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه، نعتاض عن الحركات الإعرابية التي فسدت في دلالتها بأمور أخرى وكيفيات موجودة فيه، فتكون لها قوانين تخضعها. ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر، فليست اللغات وملكاتها مجاناً»^(٣٣). وهنا يقطع ابن خلدون مع معيارية عصره. وينظر إلى اللغة نظرة سوسولوجية تربطها بواقعها الاجتماعي الحي المتطور.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٧٢٥.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٧٢٦.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٤٥٧.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٧٢٤.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٧٢٥.

سابعاً: سوسولوجيا ابن خلدون

حين تتراكم الرؤى، شرحاً وتقديراً، ويتعاضد أمر الفكرة لدى العامة والخاصة، وتنهطل الدراسات حولها، لها أو عليها، تزداد الحاجة إلى العودة مجدداً إلى تبعها الأول، وبخاصة إذا تعلّق الأمر بمقلدة عبد الرحمن بن خلدون التي مضت على كتابتها قرون، فبلغت في سنتنا هذه عتويتها السادسة تماماً وكمالاً. تبدأ ملحمة ابن خلدون الفكرية من العبارة التالية «وكأن هذا علم مستقل بنفسه»، مبتدوها أداة التشبيه «كأن»، وهي أعلى درجة في التصوير من حيث الحقيقة، وخبرها علم جديد له موضوعه ومنهجه. معنى هذا أننا إزاء لحظة تأسيسية إبيستيمولوجية صنعت بحسبها النقدي منعطفاً في عصور الانحطاط، وليست مجرد وهم ميتولوجي يضمد جراح شرق مبخوس أمام غرب متفوق.

قدّم ابن خلدون لكتاب العبر فكانت عبرته في المقلدة علماً جديداً باغته اكتشافه في عرض الكتابة، على نحو لم يكن يتوقعه أصلاً. ويبدو أنّه تنبّه إليه في لحظة متأخرة من الإنجاز، فعاد من جديد لينقح ويضيف مقلدة المقلدة^(٣٤)، أو بعضاً منها. وأهم ما فيها علم «كأنه مستبطن النشأة»، لأنّه «ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني»^(٣٥) وما يلحقه من العوارض، أي القوانين الداخلية التي تحكم المجتمع: «فهذه بحث متاحيه تهذيباً، وقزيت لإفهام العلماء والخاصة تقريباً، وسلكت في ترتيبه وتبويه مسلكاً غريباً، واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً، وطريقة مبتدعة وأصولياً، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن، وما يعرض في الاجتماع الإنساني من الأعراض»^(٣٦).

هكذا مجّد ابن خلدون علماً موضوعه «العمران»، أي الحياة الجماعية وما ينجز عنها من عوارض وقوانين^(٣٧). ومنهجه التاريخ الذي يساعد على فهم العمران. إنّه علم المجتمع، بحسب المصطلح الحديث يعين التاريخ لفهم ما يطرأ على العمران من

(٣٤) يبدو لي أنّ ابن خلدون قد ارتطم بعلمه الجديد ارتطاماً غير مقصود مسبقاً، إذ لم يكن يروم سوى إنجاز قراءة موضوعية للتاريخ فلذا به يكتشف علماً جديداً لا يعدو فيه التاريخ أن يكون سوى منهج لموضوع هو العمران البشري والاجتماع الإنساني. ولعلّ هذا ما يفسّر تردّد ابن خلدون بين مقصد راسه في البداية بتعلّق بفن التاريخ بما فيه من نظر وتحقيق، وبين نتيجة بلغها على وجه الصدفة كان فيها التاريخ نهجاً وليس موضوعاً. وأمام هذه المفاجأة العلمية عاد ليضيف ما اكتشفه من علم، وقلته أن يخلّف بعض الفقرات بحثاً عن تجانس نفسه.

(٣٥) ابن خلدون، للفتحة، ج ١، ص ٧٠.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٣٢-٣٣.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٧٠.

«تبدل الأحوال»، وفق قراءة موضوعية، تجنب الذهول عن الحقيقة وفق قانون المطابقة، بقيس الغائب من الأحداث التاريخية بالشاهد^(٣٨)، «لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا بقيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق»^(٣٩).

أرلد ابن خلدون في البداية أن يقف مسلك المسعودي في مروج الذهب حين دون تاريخ عهده في المائة الثالثة غرباً وشرقاً، فإذا به يقف عند لحظة انهيار مجتمعي، تبدلت معها أوضاع المشرق والمغرب بالجملة، فكأنما: «نادى لسان الكون في العالم بالحمول والانقباض فيادر بالإجابة»^(٤٠). ولعل هذه الظرفية التي طالت البنى المجتمعية لعهد «فكان بالعالم خلقاً جديداً»، هي التي جرّت ابن خلدون باتجاه تأسيس علم مستحدث، يستوعب تبدلاتها، فإذا به يرتطم «بعلم مستقل بنفسه» أذهله اكتشافه مثلما أذهله الخلق الجديد لعصره، على انقباضه وشدة ضعفه وما لحقه من أعراض وأحوال وظواهر يفترض كشف قوانينها الاجتماعية. معنى هذا أن المعطيات التاريخية الكبرى، المسرعة نحو التطور أو الانهيار كذلك، وعلى حد سواء، يمكن أن تحدث القطيعة الإيستيمولوجية كالتي أحدثها ابن خلدون حين وجد نفسه، في عرض التفكير والتأليف في أحوال عصره أمام «علم مستحدث الصنعة، غريب النزعة»، نقله من فن التاريخ بما هو خبر عن الاجتماع الإنساني، إلى علم المجتمع، فلا يرغب من التاريخ إلا فهم الواقع وتفسيره، فيمارسه وفق رؤية كلية. وقد كان ابن خلدون جامعاً لضروب مختلفة من المعارف شملت: فن التاريخ والفلسفة والفقه وعلوم اللسان والسياسة والاقتصاد والتربية. وهذه الرؤية الكلية التي تقاطعت فيها الاختصاصات حاول فهم المجتمع وتفسير تبدل أحواله وحركة تطوره واتجاهاته فهماً أفقياً ينظر في راحته، وعمودياً يتتبع سيرورته. وفي المقدمة وصي واضح بضرورة أن تتضافر الاختصاصات، فالباحث في تاريخ المجتمعات ووقائعها «محتاج إلى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة»^(٤١). ومن دون ذلك قد لا يأمن فيها الباحث من العثور^(٤٢) والخوف من مزلة القدم، جعلته يقطع مع مسلمات عصره ويقيم جدلاً متواصلاً مع السائد من الأخبار المستحيلة والقناعات المتداولة بين

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٦٣.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٣٧.

العامة والخاصة من العلماء. لكن العلوم تتضافر عند ابن خلدون لتدرس ظاهرة معقدة موضوعها العمران البشري والاجتماع الإنساني. والإنسان، كما يقول التوحيدي «ذو أشياء كثيرة» ولكثرة «ما هو به كثير» يعجز عن إدراك ما هو به واحداً^(٤٣).

هكذا يحدث المنعرج الخلدوني الأهم، ويبدو ذلك في قدرته على التزحلق من فن التاريخ إلى علم المجتمع بظواهره وقوانينه الاجتماعية، فكان شبيهاً في بعض مبادئه بعلم الاجتماع الحديث في أوروبا، مع فارق أساسي في السياق؛ ففي أوروبا كان مجتمع جديد يتكون ويعيش لحظة جانشة بثورته الصناعية. أما سوسيولوجيًا ابن خلدون فقد كانت نتاج «خلق جديد» وعلم يحدث، ولكن لشدة تداعيه إلى التلاشي والاضمحلال، وانتفاص العمران فيه في المائة الثامنة التي شهدها ابن خلدون.

لا يتعلق الأمر، إذاً، بمنهج جديد في كتابة التاريخ، بل بمقاربة كلية للاجتماع الإنساني في مختلف أعراقه وأحواله، يبدو فيها البعد الاجتماعي عاملاً منفصلاً. هكذا تعامل ابن خلدون، مثلاً، مع المسألة اللغوية ليجعل منها «ظاهرة اجتماعية كلية» - استعارة لعبارة مارسيل موس - مرتبطة بسياقية الاستعمال وعلاقات القوة وروابط الهيمنة.

(٤٣) علي بن محمد أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة (بيروت: دار الكتب العلمية، [د.ت.])،